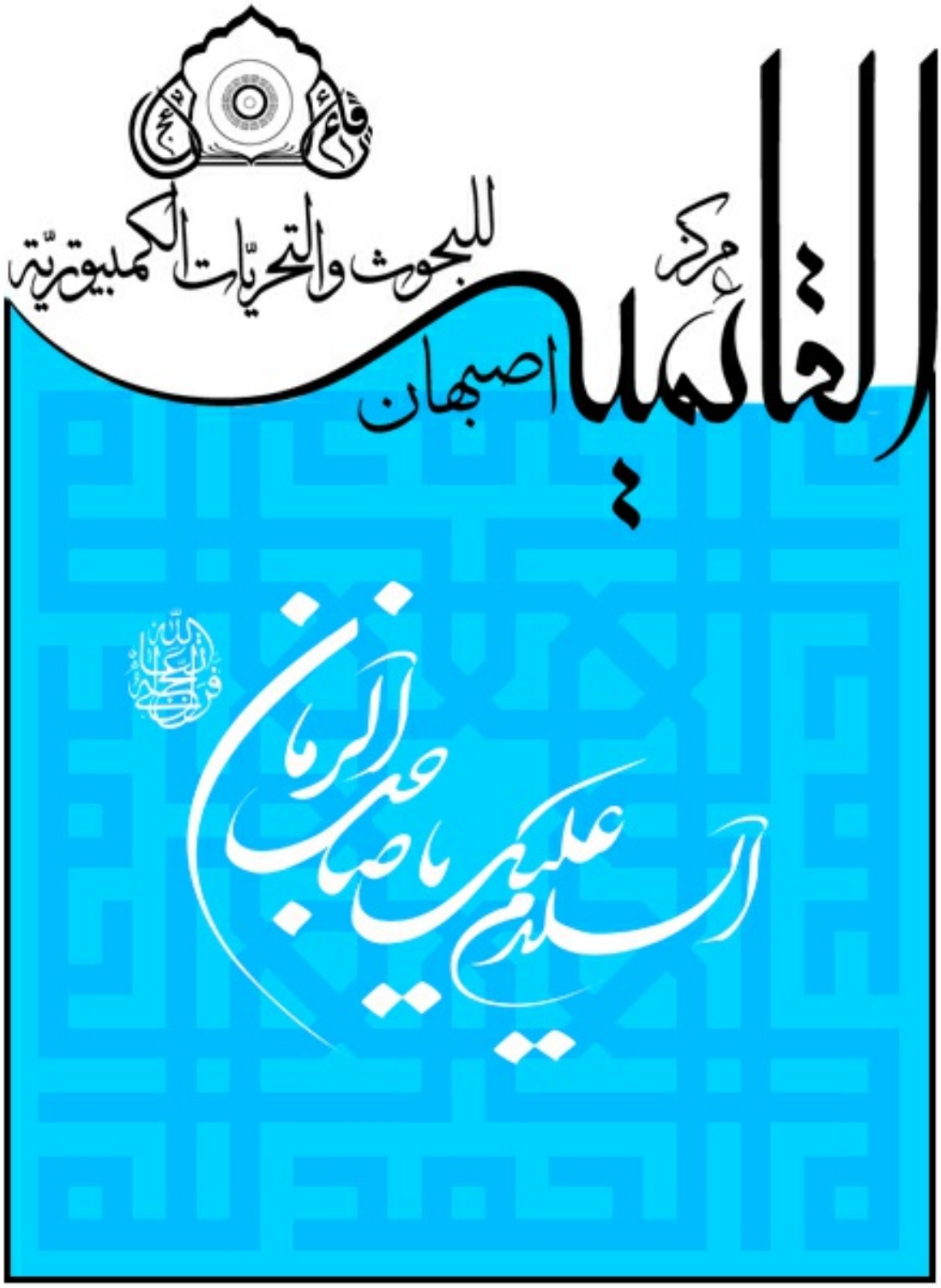

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

كتاب

الأربعين في أصول الدين

في العقائد وأسرار العبادات والأخلاق

تأليف

الإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي

طبعة جديدة محققة مخرجة الآيات والأحاديث

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه

عبد الله عبد الحميد عرواني

راجعه وقدم له الدكتور

محمد بشير الشقفة

بسم الله الرحمن الرحیم

الاربعين فى اصول الدين

كاتب:

ابوحامد محمد بن محمد بن محمد غزالى

نشرت فى الطباعة:

دار الكتب العلمية

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵

الاربعین فی اصول الدین ----- ۱۴

اشاره ----- ۱۴

اشاره ----- ۱۴

المقدّمه ----- ۱۶

القسم الأول: فی جمل العلوم و أصولها و هی عشره ----- ۱۸

الأصل الأوّل فی الذات: ----- ۱۸

الأصل الثانی فی التقدیس: ----- ۱۸

الأصل الثالث فی القدره: ----- ۱۹

الأصل الرابع فی العلم: ----- ۱۹

الأصل الخامس فی الإراده: ----- ۱۹

الأصل السادس فی السمع و البصر: ----- ۲۵

الأصل السابع فی الکلام: ----- ۲۶

الأصل الثامن فی الأفعال: ----- ۲۶

الأصل التاسع فی الیوم الآخر: ----- ۲۷

الأصل العاشر فی النبوه: ----- ۲۸

خاتمه فی التنبیه علی الکتب التی تطلب فیها حقیقه هذه العقیده: ----- ۲۹

القسم الثانی: فی الأعمال الظاهره و هی عشره أصول ----- ۳۱

الأصل الأول فی الصلاه: ----- ۳۱

الأصل الثانی فی الزکاه و الصدقه: ----- ۳۵

اشاره ----- ۳۵

[المحافظه فی زکاه و الصدقه علی خمسه أمور:] ----- ۳۶

الأصل الثالث فی الصیام: ----- ۳۷

الأصل الرابع فی الحج: ----- ۳۹

اشاره ---- ۳۹
أما الآداب فسبعه: ---- ۳۹
الأصل الخامس فی قراءه القرآن: ---- ۴۱
اشاره ---- ۴۱
أما الآداب الظاهره فثلاثه: ---- ۴۱
و أما الأسرار الباطنه فخمسه: ---- ۴۲
الأصل السادس:ذکر اللّه عز و جل فی کل حال: ---- ۴۶
الأصل السابع فی طلب الحلال: ---- ۵۲
اشاره ---- ۵۲
فصل ---- ۵۳
فصل ---- ۵۶
الأصل الثامن فی القیام بحقوق المسلمین و حسن الصحبه معهم: ---- ۵۸
اشاره ---- ۵۸
فصل ---- ۶۴
الأصل التاسع فی الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر: ---- ۶۶
اشاره ---- ۶۶
فصل ---- ۶۶
فصل ---- ۶۸
الأصل العاشر فی اتّباع السنه: ---- ۶۹
اشاره ---- ۶۹
[فصل السبب المرغّب فی الاتباع فی هذه الأفعال] ---- ۷۰
[فصل التحریض کله الذی ذکر إنما هو فی العادات] ---- ۷۳
خاتمه فی ترتیب الأوراد و تنعطف علی الأمور العشره: ---- ۷۵
القسم الثالث: فی تزکیه القلب عن الأخلاق المذمومه ---- ۷۷
اشاره ---- ۷۷
الأصل الأول شره الطعام: ---- ۷۷

اشاره ----- ۷۷
[فصل السر فی تعظیم الجوع و مناسبته لطریق الآخره] ----- ۷۸
[فصل کیفیه ترک عاده الشبع و الإکثار] ----- ۷۹
الأصل الثانی شره الکلام: ----- ۸۱
اشاره ----- ۸۱
[فصل أن للسان عشرین آفه] ----- ۸۱
[فصل تفصیل هذه الآفات] ----- ۸۲
اشاره ----- ۸۲
[الآفه] الأولی الکذب: ----- ۸۲
اشاره ----- ۸۲
فصل الکذب حرام فی کل شیء،إلا لضروره ----- ۸۲
الآفه الثانیه الغیبه: ----- ۸۴
اشاره ----- ۸۴
[فصل یرخص فی الغیبه فی سته مواضع] ----- ۸۶
فصل ----- ۸۶
الآفه الثالثه المراء و المجادله: ----- ۸۷
الآفه الرابعه المزاح: ----- ۸۷
الآفه الخامسه المدح: ----- ۸۸
فصل ----- ۸۹
الأصل الثالث فی الغضب: ----- ۸۹
اشاره ----- ۸۹
فصل ----- ۸۹
الأصل الرابع فی الحسد: ----- ۹۱
اشاره ----- ۹۱
[فصل الحسد من الأمراض العظیمه للقلب] ----- ۹۱
فصل ----- ۹۲

الأصل الخامس فی البخل و حب المال: ---- ۹۳
اشاره ---- ۹۳
[فصل أصل البخل حب المال] ---- ۹۳
[فصل أن المال لیس مذموما من کل وجه] ---- ۹۴
[فصل فی معرفه مقدار الکفایه] ---- ۹۵
[فصل فی ان الذی ذکرت تقریب یمکن الزیاده علیه و النقصان منه] ---- ۹۶
[فصل فی معرفه حدّ البخل] ---- ۹۷
[فصل فی معرفه علاج البخل] ---- ۹۷
الأصل السادس الرعونه و حب الجاه: ---- ۹۸
اشاره ---- ۹۸
[فصل حقیقه الجاه هی ملک القلوب لتتسخر لذی الجاه علی حسب مراده] ---- ۹۹
[فصل لم کان طلب الرفعه مذموما] ---- ۱۰۰
[فصل فی ان طریق علاج حب الجاه هو قمع هذا الحب] ---- ۱۰۱
[فصل من البواعث علی طلب الجاه حب المدح] ---- ۱۰۲
الأصل السابع حب الدنیا: ---- ۱۰۲
اشاره ---- ۱۰۲
[فصل فی ان هذه الدنیا المذمومه هی بعینها مزرعه الآخره] ---- ۱۰۳
[فصل فی ان من عرف نفسه،و عرف ربه عرف وجه عداوه الدنیا للآخره] ---- ۱۰۴
[فصل فی أن من ظن أنه یلابس الدنیا ببدنه و یخلو عنها بقلبه فهو مغرور] ---- ۱۰۶
الأصل الثامن فی الکبر: ---- ۱۰۷
اشاره ---- ۱۰۷
[فصل فی حقیقه الکبر أن یری نفسه فوق غیره فی صفات الکمال] ---- ۱۰۷
[فصل فی ان العلاج الجملی لقمع رذیله الکبر أن یعرف الإنسان نفسه] ---- ۱۰۸
[فصل فی علاج الکبر علی التفصیل] ---- ۱۰۹
الأصل التاسع العجب: ---- ۱۱۲
اشاره ---- ۱۱۲

[فصل فی ان حقیقه العجب استعظام النفس و خصالها] ---- ۱۱۳
[فصل العجب جهل محض،فعلاجه العلم المحض] ---- ۱۱۳
[فصل من العجائب أن یعجب العاقل بعلمه و عقله] ---- ۱۱۳
الأصل العاشر فی الریاء: ---- ۱۱۴
اشاره ---- ۱۱۴
فصل ---- ۱۱۵
[فصل الریاء علی درجات خبیثه] ---- ۱۱۷
[فصل یعظم بما به المراءاه و بقوه قصد الریاء] ---- ۱۱۸
فصل ---- ۱۱۹
[فصل ما أقدر علی انفکاک الریاء الخفیّ] ---- ۱۱۹
[فصل فی دفع الأسباب الباعثه علیه و هی ثلاث:حب المدح،و خوف الذم،و الطمع] ---- ۱۲۰
[فصل علاج الریا] ---- ۱۲۱
[فصل یجوز إظهار الطاعات لأجل اقتداء الناس و ترغیبهم إذا صحت النیه] ---- ۱۲۲
خاتمه فی مجامع الأخلاق و مواقع الغرور فیها: ---- ۱۲۳
[فصل طریق إصلاح هذه الأخلاق کلها المجاهده و الریاضه] ---- ۱۲۵
فصل ---- ۱۲۶
فصل ---- ۱۲۶
فصل ---- ۱۲۷
القسم الرابع: فی الأخلاق المحموده و هی أیضا عشره أصول ---- ۱۳۰
الأصل الأول التوبه: ---- ۱۳۰
اشاره ---- ۱۳۰
[فصل فی حقیقه التوبه] ---- ۱۳۰
[فصل فی وجوب التوبه علی کل احد] ---- ۱۳۱
فصل ---- ۱۳۱
[فصل فی ان علاج التوبه حل عقده الاصرار] ---- ۱۳۲
فصل ---- ۱۳۲

فصل ----- ۱۳۴
الأصل الثانی فی الخوف: ----- ۱۳۵
اشاره ----- ۱۳۵
[فصل فی حقیقه الخوف] ----- ۱۳۵
[فصل فی علاج الخوف و تحصیله] ----- ۱۳۶
فصل ----- ۱۳۷
الأصل الثالث فی الزهد: ----- ۱۳۸
اشاره ----- ۱۳۸
[فصل فی ان للزهد فی الدنیا حقیقه و أصل و ثمره] ----- ۱۳۸
[فصل فی ان الزهد علی درجات] ----- ۱۴۱
فصل ----- ۱۴۱
فصل ----- ۱۴۲
فصل ----- ۱۴۲
فصل ----- ۱۴۲
الأصل الرابع فی الصبر: ----- ۱۴۳
اشاره ----- ۱۴۳
[فصل فی حقیقه الصبر] ----- ۱۴۳
[فصل فی درجات الصبر] ----- ۱۴۵
فصل ----- ۱۴۶
الأصل الخامس الشکر: ----- ۱۴۸
اشاره ----- ۱۴۸
[فصل فی مقام الشکر] ----- ۱۴۸
فصل ----- ۱۵۲
الأصل السادس الإخلاص و الصدق: ----- ۱۵۳
اشاره ----- ۱۵۳
[ارکان الاخلاص] ----- ۱۵۳

الركن الأول النيه: ----- ۱۵۳
اشاره ----- ۱۵۳
[فصل فی حقیقه النیه] ----- ۱۵۵
[فصل النیه و العمل بهما تمام العباده] ----- ۱۵۵
[فصل فی فضل النیه] ----- ۱۵۶
[فصل فی أن النیه لا تدخل تحت الاختیار] ----- ۱۵۷
الرکن الثانی فی إخلاص النیه: ----- ۱۵۸
اشاره ----- ۱۵۸
[فصل فی حقیقه الإخلاص] ----- ۱۵۸
فصل ----- ۱۶۰
الرکن الثالث الصدق: ----- ۱۶۰
الأصل السابع فی التوکّل: ----- ۱۶۲
اشاره ----- ۱۶۲
[فصل فی حقیقه التوکل] ----- ۱۶۴
اشاره ----- ۱۶۴
الرکن الأول:المعرفه ----- ۱۶۴
اشاره ----- ۱۶۴
[فصل التوحید له لبّان و قشران] ----- ۱۶۴
[فصل فی حقیقه التوکل] ----- ۱۶۶
[فصل لا یکفی الإیمان بتوحید الفعل و الذات] ----- ۱۶۷
الرکن الثانی:حال التوکل ----- ۱۶۸
اشاره ----- ۱۶۸
[فصل فی درجات التوکل] ----- ۱۶۹
الرکن الثالث فی الأعمال: ----- ۱۶۹
اشاره ----- ۱۶۹
[فصل ترک الادخار محمود لمن غلب یقینه] ----- ۱۷۱

الأصل الثامن فی المحبه: ---- ۱۷۱
اشاره ---- ۱۷۱
[فصل فی أن أکثر المتکلمین أنکروا محبّه اللّه تعالی] ---- ۱۷۲
[فصل فی أن کلّ لذیذ محبوب] ---- ۱۷۲
[فصل ما معنی الصور الجمیله الباطنه؟] ---- ۱۷۳
[فصل المیل إلی المنعم المحسن] ---- ۱۷۴
[فصل العارف لا یحب إلا اللّه تعالی] ---- ۱۷۵
[فصل اعلم أن لذه العارف فی الدنیا من مطالعه جمال الحضره الربوبیه] ---- ۱۷۶
[فصل لذه النظر إلی وجه اللّه الکریم] ---- ۱۷۷
فصل ---- ۱۷۸
[فصل إنما ضعفت شهوه معرفه اللّه تعالی لزحمه سائر الشهوات] ---- ۱۷۹
[فصل فی أن للمحبه علامات کثیره] ---- ۱۷۹
الأصل التاسع،الرضاء بالقضاء: ---- ۱۸۰
اشاره ---- ۱۸۰
[فصل قد أنکر الرضا جماعه] ---- ۱۸۰
[فصل کیف أجمع بین الرضا بقضاء اللّه تعالی،و بین بغض أهل الکفر] ---- ۱۸۲
[فصل ینبغی أن لا یظن أن معنی الرضا بالقضاء ترک الدعاء] ---- ۱۸۳
الأصل العاشر،ذکر الموت و حقیقته ---- ۱۸۴
اشاره ---- ۱۸۴
[فصل فی أن الموت عظیم هائل] ---- ۱۸۴
[فصل أصل الغفله عن الموت طول الأمل] ---- ۱۸۵
[فصل أن العارف الکامل المستهتر بذکر اللّه تعالی مستغن عن ذکر الموت] ---- ۱۸۶
[فصل حقیقه الموت و ماهیته] ---- ۱۸۶
[فصل الروح لا تفنی البته] ---- ۱۸۷
[فصل فی أن معنی الموت زمانه البدن] ---- ۱۸۸
[فصل أن الإنسان یعدم بالموت ثم یعاد] ---- ۱۸۹

[فصل فی إن المشهور من عذاب القبر التألم بالنیران و العقارب و الحیات،صحیح] ---------- ۱۹۰
[فصل فهل یتمثل التنین تمثلا یشاهده مشاهده تضاهی إدراک البصر] ---------- ۱۹۲
[فصل أنواع عذاب الآخره یدرک بنور البصیره و المشاهده] ---------- ۱۹۲
[فصل فی العذاب الآخره] ---------- ۱۹۵
خاتمه فی مناظره النفس ---------- ۲۰۴
الفهرس ---------- ۲۰۸
تعریف مرکز ---------- ۲۱۹

الاربعین فی اصول الدین

اشاره

سرشناسه : غزالی، محمد بن محمد، ق ۵۰۵ - ۴۵۰

عنوان و نام پدیدآور : ...الاربعین فی اصول الدین/ ابی حامد محمد بن محمد بن محمد غزالی

مشخصات نشر : بیروت : دارالکتب العلمیه ، م ۱۹۸۸ = .ق ۱۴۰۹ = .۱۳۶۷.

مشخصات ظاهری : ص ۱۹۲

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

موضوع : اخلاق اسلامی -- متون قدیمی تا قرن ۱۴

موضوع : اسلام -- عقاید

رده بندی کنگره : BP۲۴۷/۳۵/غ ۴ الف ۴

شماره کتابشناسی ملی : م ۸۰-۳۷۷۲۶

ص: ۱

اشاره

المقدّمه

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم الحمد للّه رب العالمين و الصلاه و السلام على محمد و آله أجمعين.

«أما بعد»و لعلك تقول هذه الآيات التى أوردتها فى القسم الثانى (۱)تشتمل على أصناف مختلفه من العلوم و الأعمال،فهل يمكن تمييز مقاصدها و شرح جملها على وجه من التفصيل و التحصيل يمكن التفكر فى كل واحده منها على حيالها ليعلم الإنسان تفصيل أبواب السعاده فى العلم و العمل،و يتيسر عليه تحصيل مفاتيحها بالمجاهده و التفكير؟ «فأقول»نعم ذلك يمكن،فإنه ينقسم جمل مقاصدها إلى علوم و أعمال،و الأعمال تنقسم إلى ظاهره و باطنه،و الباطنه تنقسم إلى تزكيه و تحليه؛فهى أربعه أقسام:علوم و أعمال ظاهره،و أخلاق مذمومه تجب التزكيه عنها،و أخلاق محموده تجب التحليه بها.

و كل قسم يرجع إلى عشره أصول.و اسم هذا القسم:كتاب الأربعين فى أصول الدين.

فمن شاء أن يكتبه مفردا فليكتب فإنه يشتمل على زبده علوم القرآن.

۱- يعنى القسم الثانى من كتاب«جواهر القرآن و درره»و كتاب«الأربعين فى أصول الدين»الذين بين أيدينا الآن هو القسم الثالث من كتاب«جواهر القرآن»كما وضعه الغزالى.يقول فى فهرسته لكتاب الجواهر:«...القسم الثالث فى اللواحق:و مقصوده حصر جمل المقاصد الحاصله من هذه الآيات،و هو منعطف على جمله الآيات،و هو كتاب مستقل لمن أراد أن يكتبه مفردا،و قد سميناه «كتاب الأربعين فى أصول الدين».

القسم الأول: فی جمل العلوم و أصولها و هی عشره

الأصل الأوّل فی الذات:

فنقول:الحمد للّه الذی تعرف إلی عباده بکتابه المنزل،علی لسان نبیه المرسل، بأنه فی ذاته واحد لا- شریک له،فرد لا- مثل له،صمد لا ضد له،متوحد لا ند له؛و أنه قدیم لا أوّل له،أزلی لا بدایه له،مستمر الوجود لا آخر له،أبدیّ لا نهایه له،قیوم لا انقطاع له،دائم لا- انصرام له؛لم یزل و لا- یزال موصوفا بنعوت الجلال،لا- یقضی علیه بالانقضاء و الانفصال،و بتصرم الآماد و انقضاء الآجال؛بل هو الأوّل و الآخر و الظاهر و الباطن،و هو بکل شیء علیم.

الأصل الثانی فی التقدیس:

و أنه لیس بجسم مصور،و لا جوهر محدود مقدر،و أنه لا یماثل الأجسام لا فی التقدیر و لا فی قبول الانقسام،و أنه لیس بجوهر و لا- تحله الجواهر،و لا- بعرض و لا- تحله الأعراض؛بل لا- یماثل موجودا،و لا- یماثله موجود،و لیس کمثله شیء و لا هو مثل شیء،و أنه لا یحده المقدار،و لا تحویه الأقطار،و لا تحیط به الجهات،و لا تکتنفه السموات،و أنه مستو علی العرش علی الوجه الذی قاله،و بالمعنی الذی أراده،استواء منزّها عن المماسّه و الاستقرار،و التمکن و التحول و الانتقال؛لا یحمله العرش،بل العرش و حملته محمولون بلطف قدرته،و مقهورون فی قبضته؛و هو فوق العرش و فوق کل شیء إلی تخوم الثری فوقیه لا تزیده قربا إلی العرش و السماء،بل هو رفیع الدرجات علی العرش،کما أنه رفیع الدرجات علی الثری،و هو مع ذلک قریب من کل موجود، و هو أقرب إلی العبید من حبل الورید،و هو علی کل شیء شهید،إذ لا- یماثل قربه قرب الأجسام،کما لا- یماثل ذاته ذات الأجسام؛و أنه لا یحل فی شیء،و لا یحل فیه شیء؛

تعالی عن أن یحویه مکان،کما تقدس عن أن یحدّه زمان؛بل کان قبل أن خلق الزمان و المکان،و هو الآن علی ما علیه کان.و أنه باین بصفاته من خلقه لیس فی ذاته سواه،و لا فی سواه ذاته.و أنه مقدس عن التغییر و الانتقال،لا تحله الحوادث،و لا تعتریه العوارض،بل لا یزال فی نعوت جلاله منزها عن الزوال،و فی صفات کماله مستغنیا عن زیاده الاستکمال.و أنه فی ذاته معلوم الوجود بالعقول،مرئیّ الذات بالأبصار،نعمه منه و لطفا بالأبرار فی دار القرار،و إتماما للنعیم بالنظر إلی وجهه الکریم.

الأصل الثالث فی القدره:

و أنه حیّ قادر جبار قاهر،لا یعتریه قصور و لا عجز،و لا تأخذه سنه و لا نوم،و لا یعارضه فناء و لا موت.و أنه ذو الملک و الملکوت،و العزه و الجبروت،له القدره و السلطان و القهر،و الخلق و الأمر،و السموات مطویات بیمینه،و الخلائق مقهورون فی قبضته.و أنه المتفرد بالخلق و الاختراع،المتوحد بالإیجاد و الإبداع؛خلق الخلق و أعمالهم،و قدّر أرزاقهم و آجالهم،لا یشذ عن قبضته مقدور،و لا یعزب عن قدرته تصاریف الأمور،لا تحصی مقدوراته و لا تتناهی معلوماته.

الأصل الرابع فی العلم:

و أنه عالم بجمیع المعلومات،محیط بما یجری فی تخوم الأرضین إلی أعلی السموات،لا یعزب عن علمه مثقال ذره فی الأرض و لا فی السماء،بل یعلم دبیب النمله السوداء،علی الصخره الصماء،فی اللیله الظلماء،و یدرک حرکه الذر فی جوّ الهواء،و یعلم السر و أخفی،و یطلع علی هواجس الضمائر و حرکات الخواطر و خفیات السرائر،بعلم قدیم أزلی،لم یزل موصوفا به فی أزل الآزال،لا یعلم متجدد حاصل فی ذاته بالتحوّل و الانتقال.

الأصل الخامس فی الإراده:

و أنه مرید للکائنات،مدبر للحادثات،فلا یجری فی الملک و الملکوت قلیل و لا کثیر،و لا صغیر و لا کبیر،خیر أو شر،نفع أو ضر،إیمان أو کفر،عرفان أو نکر،فوز أو خسر،زیاده أو نقصان،طاعه أو عصیان،إلا بقضائه و قدره،و حکمه و مشیئته؛فما شاء کان،و ما لم یشأ لم یکن.لا یخرج عن مشیئته لفته ناظر و لا فلته خاطر؛بل هو المبدئ المعید،الفعّال لما یرید،لا رادّ لحکمه،و لا معقب لقضائه،و لا مهرب لعبد عن

معصیته إلا بتوفیقه و رحمته،و لا قوه له علی طاعته إلا بمعونته و إرادته.لو اجتمع الإنس و الجن و الملائکه و الشیاطین،علی أن یحرکوا فی العالم ذره أو یسکّنوها دون إرادته و مشیئته عجزوا عن ذلک.و أن إرادته قائمه بذاته فی جمله صفاته،لم یزل کذلک موصوفا بها،مریدا فی أزله لوجود الأشیاء فی أوقاتها التی قدرها،فوجدت فی أوقاتها کما أراده فی أزله،من غیر تقدم و لا تأخر،بل وقعت علی وفق علمه و إرادته،من غیر تبدل و لا تغیر.دبّر الأمور بلا ترتیب أفکار،و تربص زمان،فلذلک لا یشغله شأن عن شان.

اعلم أن هذا المقام مزله الأقدام،و لقد زلت فیه أقدام الأکثرین،لأن تمام تحقیقه مستمدّ من تیّار بحر عظیم وراء التوحید،و هم یطلبونه بالبحث و الجدال؛و لقد قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم:«ما ضلّ قوم بعد هدی إلا أوتوا الجدال»و یستدلون بآیات القرآن مؤولین و لیسوا من أهل التأویل،و لو نال کل واحد مقام التأویل،لما قال صلی اللّه علیه و سلم داعیا لابن عباس-رضی اللّه عنهما-:«اللهم فقهه فی الدین و علمه التأویل»،و لما قال یعقوب لیوسف-علی نبینا و علیهما السلام-«کذلک یجتبیک ربّک و یعلّمک من تأویل الأحادیث».قال صاحب«الکشاف»فی تفسیرها:یعنی معانی کتب اللّه،و سنن الأنبیاء-علیهم السلام-و ما غمض و اشتبه علی الناس من أغراضها و مقاصدها تفسرها لهم و تشرحها،و تدلهم علی مودعات حکمها.و إنما زلت أقدام الأکثرین فی هذا المقام،لأنهم یتبعون الذین یتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنه و ابتغاء تأویله،و ما یعلم تأویله إلا اللّه و الراسخون فی العلم؛و هؤلاء لیسوا براسخین فیه،بل هم قاصرون عاجزون؛فلقصورهم لم یطیقوا ملاحظه کنه هذا الأمر،فألجموا عما لم یطیقوا خوض غمراته بلجام المنع مع سائر القاصرین،فقیل لهم اسکتوا،فما لهذا خلقتم، لا یُسْئَلُ عَمّا یَفْعَلُ وَ هُمْ یُسْئَلُونَ (۱) [الأنبیاء:۲۳]عن أبی هریره-رضی اللّه عنه-أنه قال:خرج علینا رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم و نحن نتنازع فی القدر،فغضب-علیه السلام-حتی احمرّ وجهه الشریف،فقال:«أ بهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إلیکم؟إنما هلک من کان قبلکم،حین تنازعوا فی هذا الأمر؛عزمت علیکم،عزمت علیکم فی هذا الأمر أن لا تنازعوا فیه».

و عن أبی جعفر قال:قلت لیونس بن عبید:مررت بقوم یختصمون فی القدر، فقال:لو همّتهم ذنوبهم ما اختصموا فی القدر،و امتلأ مشکاه بعضهم نورا مقتبسا من نور اللّه،و کان زیتهم صافیا حتی یکاد یضیء و لو لم تمسسه نار،فاشتعل نورا علی نور،

۱- سوره ۲۱ - آیه ۲۳

فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها،فأدركوا الأمور كما هى عليه؛فقيل لهم:تأدبوا بآداب اللّه و اسكتوا،و إذا ذكر القدر فأمسكوا!فلذلك أمسك عمر لما سئل عن القدر،فقال للسائل:بحر عميق لا تلجه؛و لما كرر السؤال قال:طريق مظلم لا تسلكه؛و لما كرر ثالثا قال:سر اللّه قد خفى عليك فلا تفتشه.و من أراد معرفه أسرار الملكوت فليلازم بابهم بالمحبه و الإخلاص و الصدق و الإعراض عن عدائهم،و الامتثال بأوامرهم و السعى فيما يرضيهم،و كذلك من أحب معرفه أسرار الربوبيه،فليلازم باب اللّه عز و جل بالمحبه،و الإخلاص،و الصدق و التعظيم،و الحياء و الامتثال بالأوامر، و الانتهاء عن المعاصى،و المجاهده و الإقبال بكنه الهمه،و التعرض لنفحاته لقوله-عليه السلام-«إن لربكم فى أيام دهركم نفحات،ألا فتعرّضوا لها»و السعى فيما يرضى و إن لم يطق ذلك فعليه أن يعتقد فى هذا البحث ما عليه أبو حنيفه-رحمه اللّه-و أصحابه، حيث قالوا:إحداث الاستطاعه فى العبد فعل اللّه،و استعمال الاستطاعه المحدثه فعل العبد حقيقه لا- مجازا.و القدريه أنكروا قضاء اللّه و رأوا الخير و الشر من أنفسهم.

أرادوا بذلك تنزيه اللّه عن الظلم و فعل القبيح،و لكنهم ضلوا إذ نسبوا العجز إلى اللّه تعالى فى ضمن ذلك،و لم يدروا.و الجبريه اعتمدوا على القضاء،و رأوا الخير و الشر من اللّه،و لم يروا من أنفسهم فعلا-كما لم يروا من الجمادات؛أرادوا بذلك تنزيه اللّه تعالى عن العجز فضلّوا،إذ نسبوا الظلم إليه تعالى فى ضمن ذلك؛و أضلوا سفهاءهم، فكانوا يعصون اللّه و ينسبون إلى اللّه،و يبرءون أنفسهم عن الذم و اللوم كالشيطان حيث قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (۱) [الأعراف:۱۶].

فالحاصل أن القدريه أثبتوا الاختيار الكلى للعبد فى جميع أفعال العباد،و أنكروا قضاء اللّه تعالى و قدره بالكليه فى الأفعال الاختياريه.و الجبريه نفوا الاختيار بالكليه فى أفعال العباد،و اعتمدوا على القضاء و القدر؛فينبغى للباحث معهم أن يضربهم،و يمزق ثيابهم و عمائمهم و يخدش وجوههم،و ينتف أشعارهم و شواربهم و لحاهم،و يعتذر بما اعتذر هؤلاء السفهاء فى سائر أفعالهم القبيحه الصادره منهم.و المعتزله أضافوا الشر فقط إلى أنفسهم،و أثبتوا لأنفسهم الاختيار الكلى تحرزا عن نسبه القبح و الظلم إلى اللّه، و لكن نسبوا إلى اللّه العجز فى ضمن ذلك و لم يدروا،فتعالى اللّه عن ذلك علوّا كبيرا.

و أما أهل السنه و الجماعه،فتوسطوا بينهم،فلم ينفوا الاختيار عن أنفسهم

۱- سوره ۷ - آیه ۱۶

بالکلیه،و لم ینفوا القضاء و القدر عن اللّه تعالی بالکلیه،بل قالوا:أفعال العباد من اللّه من وجه،و من العبد من وجه.و للعبد اختیار فی إیجاد أفعاله.

و اعلم أن قضاء اللّه تعالی علی أربعه أوجه:قضاء الطاعات،و قضاء المعاصی، و قضاء النعم،و قضاء الشدائد.و المذهب المستقیم فی ذلک،إذا قضی للعبد الطاعه فعلیه أن یستقبله بالجهد و الإخلاص حتی یکرمه اللّه بالتوفیق و الهدایه لقوله تعالی:

وَ الَّذِینَ جاهَدُوا فِینا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنا (۱) [العنکبوت:۶۹].یعنی الذین جاهدوا فی طاعتنا و فی دیننا لنوفقنهم لذلک.و إذا قضی المعصیه،فعلیه أن یستقبله بالاستغفار و التوبه و الندامه من صمیم الفؤاد،لقوله تعالی: إِنَّ اللّهَ یُحِبُّ التَّوّابِینَ وَ یُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِینَ (۲) [البقره:۲۲۲].و إذا قضی النعمه،فعلیه أن یستقبله بالشکر و السخاء حتی یکرمه بالزیاده،لقوله تعالی: لَئِنْ شَکَرْتُمْ لَأَزِیدَنَّکُمْ (۳) [إبراهیم:۷].و إذا قضی الشده،فعلیه أن یستقبله بالصبر و الرضاء حتی یعطیه الکرامه فی الدار الآخره،لقوله تعالی:«إن اللّه یحبّ الصّابرین» (۴)و قال: إِنَّما یُوَفَّی الصّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَیْرِ حِسابٍ (۵) [الزمر:۱۰].و ذکر الفاضل الإمام مولانا علاء الدین فی شرحه للمصابیح:

«الفرق بین القضاء و القدر،هو أن القضاء وجود جمیع الموجودات فی اللوح المحفوظ، إجمالا لا تفصیلا،و القدر هو تفصیل قضائه السابق بإیجادها فی المواد الخارجیه واحدا بعد واحد.و قیل القضاء هو الإراده الأزلیه،و العنایه الإلهیه المقتضیه لنظام الموجودات علی ترتیب خاص،و القدر تعلق تلک الإراده بالأشیاء فی أوقاتها الخاصه.ثم إن المسلمین فی القدر علی اختلاف:منهم من ذهب إلی أن کلّ ما یجری فی العالم من الخیر و الشرّ و الأفعال و الأقوال بقضاء اللّه و قدره،و لا اختیار للعباد فیه،و یسمی هذا القوم جبریه.و الجبر هو القهر و الإکراه؛فیقولون:أجبر اللّه عباده علی أقوالهم و أفعالهم من غیر اختیار منهم فیها؛و یزعمون أن إضافتها إلیهم إضافتها إلی الجمادات؛فی مثل قولنا:دارت الرحا و جری المیزاب.و هذا المذهب باطل؛لأنهم قالوا هذا القول لیسقطوا من أنفسهم التکالیف،و شبهوا أنفسهم بالصبیان و المجانین فی عدم جریان الخطاب بهم،فقد کفروا؛لأن مذهبهم یفضی إلی إبطال الکتب و الرسل.و إن قالوا .

۱- سوره ۲۹ - آیه ۶۹

۲- سوره ۲ - آیه ۲۲۲

۳- سوره ۱۴ - آیه ۷

۴- لفظ الآیه ۱۴۶ من سوره آل عمران: وَ ما ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَکانُوا وَ اللّهُ یُحِبُّ الصّابِرِینَ .

۵- سوره ۳۹ - آیه ۱۰

ذلک لتعظیم اللّه و تحقیر أنفسهم و عجزهم عن دفع قضاء اللّه،فهم مبتدعون لمخالفتهم الإجماع.

و منهم من ذهب إلی أن کل ما یصدر عن العباد عقیب قصدهم و إرادتهم یکون واقعا بقدرتهم و اختیارهم،و لا یتعلق بها بخصوصها قدره اللّه و إرادته،و یسمّی هؤلاء قدریه لنفیهم القدر لا لإثباتهم.و هذا المذهب أیضا باطل؛لأنهم إن قالوا هذا القول عن اعتقاد جواز العجز عن التقدیر للّه تعالی،فهم کافرون،تعالی اللّه عن ذلک علوّا کبیرا؛و إن قالوا عن خطأ اجتهاداتهم و تنزیه الحق عن تقدیر أفعالهم القبیحه و خلقها فهم مبتدعون لمخالفتهم الإجماع.و من هذه الطائفه من یقول:الخیر بتقدیر اللّه.

و الشر لیس بتقدیره.

و المذهب الحق هو أن المؤثر مجموع القدرتین:قدره اللّه و قدره العباد،فالأفعال الصادره عن العباد کلها بقضاء اللّه و قدره،و لکن للعباد اختیار،فالتقدیر من اللّه، و الکسب من العباد،و هذا المذهب وسط بین الجبر و القدر،و علیه أهل السنه و الجماعه».انتهی کلامه.

و ذکرنا فی کتاب«المقصد الأقصی»تدبیر رب الأرباب و مسبب الأسباب،أصل وضع الأسباب،لیتوجه إلی المسببات حکمه،و نصبه الأسباب الکلیه الأصلیه الثابته المستقره التی لا تزول و لا تحول کالأرض و السموات السبع و الکواکب و الأفلاک، و حرکاتها المتناسبه الدائمه التی لا تتغیر و لا تنعدم،إلی أن یبلغ الکتاب أجله و قضاؤه، کما قال: فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِی یَوْمَیْنِ،وَ أَوْحی فِی کُلِّ سَماءٍ أَمْرَها (۱) [فصلت:۱۲].و توجیهه هذه الأسباب-بحرکاته المناسبه المحدوده المقدره المحسوبه إلی مسببات الحادثه منها لحظه بعد لحظه-قدره.فالحکم هو التدبیر الأول الکلی،و الأمر الأزلی هو کلمح البصر.و القضاء هو الوضع الکلیّ للأسباب الکلیه الدائمه.و القدر هو توجیه الأسباب الکلیه بحرکاتها المقدّره المحسوبه إلی مسبباتها المعدوده المحدوده بقدر معلوم لا یزید و لا ینقص؛و لذلک لا یخرج شیء عن قضائه و قدره.و لا تفهم ذلک إلا بمثال؛و لعلک شاهدت صندوق الساعات التی بها تتعرف أوقات الصّلوات و إن لم تشاهده،فجمله ذلک أنه لا بدّ فیه من آله علی شکل أسطوانه تحوی مقدارا من الماء معلوما،و آله أخری مجوفه موضوعه فیها فوق الماء،و خیط

۱- سوره ۴۱ - آیه ۱۲

مشدود أحد طرفيه فى هذه الآله المجوفه،و طرفه الآخر فى أسفل ظرف صغير موضوع فوق الآله المجوفه،و فيه كره و تحته طاس،بحيث لو سقطت الكره وقعت فى الطاس و سمع طنينها،ثم تثقب أسفل الآله الأسطوانيه ثقبا بقدر معلوم ينزل الماء،منه قليلا قليلا-فإذا انخفض الماء انخفضت الآله المجوفه الموضوعه على وجه الماء،فامتد الخيط المشدود بها فحرك الطرف الذى فيه الكره تحريكا يقربه من الانتكاس إلى أن ينتكس،فتتدحرج منه الكره و تقع فى الطاس و تطنّ،و عند انقضاء كلّ ساعه تقع واحده؛ و إنما يتقدر الفصل بين الوقعتين بتقدير خروج الماء و انخفاضه،و ذلك بتقدير سعه الثقب الذى يخرج منه الماء،و يعرف ذلك بطريق الحساب؛فيكون نزول الماء بمقدار مقدر معلوم،بسبب تقدير سعه الثّقبه بقدر معلوم،و يكون انخفاض أعلى الماء بذلك المقدار و به يتقدر،و انخفاض الآله المجوفه و انجرار الخيط بها المشدود،و تولد الحركه فى الظرف الذى فيه الكره؛و كل ذلك يتقدر بتقدّر سببه،و لا يزيد لا ينقص.و يمكن أن يجعل وقوع الكره فى الطاس سببا لحركه أخرى،و تكون الحركه الأخرى سببا لحركه ثالثه،و هكذا إلى درجات كثيره،حتى تتولد منها حركات عجيبه مقدره بمقادير محدوده، و سببها الأول نزول الماء بقدر معلوم.

فإذا تصورت هذه الصوره،فاعلم أن واضعها يحتاج إلى ثلاثه أمور:أوّلها التدبير،و هو الحكم بأنه ما الذى ينبغى أن يكون من الآلات و الأسباب و الحركات حتى يؤدى إلى حصول ما ينبغى أن يحصل؛و ذلك هو الحكم.و الثانى إيجاد هذه الآلات التى هى الأصول،و هى الآله الأسطوانيه لتحوى الماء،و الآله المجوفه لتوضع على وجه الماء،و الخيط المشدود بها،و الظرف الذى فيه الكره و الطاس الذى تقع فيه الكره؛ و ذلك هو القضاء.الثالث نصب سبب يوجب حركه مقدره محسوبه محدوده،و هو ثقب أسفل الآله ثقبه مقدره السّعه،ليحدث بنزول الماء منها حركه فى الماء تؤدى إلى حركه وجه الماء بنزوله،ثم إلى حركه الآله المجوفه الموضوعه على وجه الماء بنزوله،ثم إلى حركه الخيط،ثم إلى حركه الظرف الذى فيه الكره،ثم إلى حركه الكره،ثم إلى الصدمه بالطاس-إذا وقع-ثم إلى الطنين الحاصل منها،ثم إلى تنبيه الحاضرين و استماعهم، ثم إلى حركاتهم فى الاشتغال بالصلوات و الأعمال عند معرفتهم بانقضاء الساعه؛و كل ذلك يكون بقدر معلوم و مقدار مقدر بسبب تقدر جميعها بقدر الحركه الأولى،و هى حركه الماء.

فإذا فهمت أن هذه الآلات أصول لا بدّ منها للحركه،و أن الحركه لا بدّ من تقدرها ليتقدر ما يتولد منها،فكذلك فافهم حصول الحوادث المقدر التى لا يتقدم منها شىء و لا يتأخر؛إذا جاء أجلهم،أى حضر سببها.و كل ذلك بمقدار معلوم أن اللّه بالغ أمره قد جعل اللّه لكل شىء قدرا.فالسماوات و الأفلاك و الكواكب و الأرض و البحر و الهواء، و هذه الأجسام العظام فى العالم كتلك الآلات،و السبب المحرك للأفلاك و الكواكب و الشمس و القمر بحساب معلوم،كتلك الثقبه الموجبه لنزول الماء بقدر معلوم،و إفضاء حركه الشمس و القمر و الكواكب إلى حصول الحوادث فى الأرض،كإفضاء حركه الماء إلى حصول تلك الحركات المفضيه إلى سقوط الكره المعرّفه لانقضاء الساعه.و مثال تداعى حركات السماء الى تغيير الأرض،هو أن الشمس بحركتها إذا بلغت إلى المشرق فاستضاء العالم،و تيسر على الناس الإبصار،فيتيسر عليهم الانتشار فى الاشتغال؛فإذا بلغ المغرب تعذر عليهم ذلك،فيرجعوا إلى المساكن.و إذا قربت من وسط السماء و سامتت (۱)رءوس أهل الأقاليم حمى الهواء و اشتد القيظ و حصل نضج الفواكه،و إذا بعدت حصل الشتاء و اشتد البرد،و إذا توسطت حصل الاعتدال فظهر الربيع،و أنبتت الأرض و ظهرت الخضره؛و قس بهذه للمشهورات التى تعرفها و الغرائب التى لا تعرفها.

فاختلاف هذه الفصول كلها مقدره بقدر معلوم،لأنها منوطه بحركات الشمس و القمر، و اَلشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبانٍ (۲) [الرحمن:۵]،أى حركتهما بحساب معلوم.فهذا هو التقدير.و وضع الأسباب الكليه هو القضاء.و التدبير الأول الذى هو كلمح البصر،هو الحكم.و كما أن حركه الآله و الخيط و الكره ليست خارجه عن مشيئه واضع الآله،بل ذلك هو الذى أراد بوضع الآله فكذلك كل ما يحدث فى العالم من الحوادث،شرها و خيرها،نفعها و ضرها،غير خارج عن مشيئه اللّه تعالى،بل ذلك مراد اللّه تعالى و لأجله دبر أسبابه.و تفهيم الأمور الإلهيه بالأمثله العرفيه عسير؛و لكن المقصود من الأمثله التنبيه،فدع المثال و تنبه للغرض،و احذر من التمثيل و التشبيه.

الأصل السادس فى السمع و البصر:

و أنه تعالى سميع بصير،يسمع و يرى:لا يعزب عن سمعه مسموع و إن خفى، و لا يغيب عن رؤيته مرئىّ و إن دق،و لا يحجب سمعه بعد،و لا يدفع رؤيته ظلام،يرى

۱- سامتت:قابلت و قربت.

۲- سوره ۵۵ - آیه ۵

من غير حدقه و لا أجفان و يسمع من غير أصمخه (۱)و لا آذان.كما يعلم من غير قلب، و يبطش بغير جارحه،و يخلق بغير آله؛إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق،كما لا تشبه ذاته ذات الخلق.

الأصل السابع فى الكلام:

و أنه متكلم آمرناه،و اعد متوعد بكلام أزلى قديم،قائم بذاته لا يشبه كلامه كلام الخلق،كما لا يشبه ذاته ذوات الخلق؛فليس بصوت يحدث من انسلال هواء و اصطكاك أجرام،و لا حرف ينقطع بإطباق شفه أو تحريك لسان.و أن القرآن و التوراه و الإنجيل و الزبور كتبه المنزله على رسله.و أن القرآن مقروء بالألسنه،مكتوب فى المصاحف،محفوظ فى القلوب.و أنه مع ذلك قديم قائم بذات اللّه تعالى،لا يقبل الانفصال و الافتراق بالانتقال إلى القلوب و الأوراق.و أن موسى-عليه السلام-سمع كلام اللّه بغير صوت و لا حرف.كما يرى الأبرار ذات اللّه-سبحانه-من غير جوهر و لا شكل و لا لون و لا عرض.و إذا كانت له هذه الصفات،كان حيّا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا،متكلما بالحياه و العلم و القدره و الإراده،و السمع و البصر و الكلام،لا بمجرد الذات.

الأصل الثامن فى الأفعال:

و أنه لا موجود سواه إلا و هو حادث بفعله،و فائض من عدله،على أحسن الوجوه و أكملها،و أتمها و أعدلها.و أنه حكيم فى أفعاله،عادل فى أقضيته،لا يقاس عدله بعدل العباد؛إذ العبد يتصوّر منه الظلم بتصرفه فى ملك غيره،و لا يتصوّر الظلم من اللّه تعالى -سبحانه-فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما.فكل ما سواه من إنس و جن،و شيطان و ملك،و سماء و أرض،و حيوان و نبات،و جوهر و عرض،و مدرك و محسوس،حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعا و إنشاء،بعد أن لم يكن شيئا؛إذ كان فى الأزل موجودا وحده،و لم يكن معه غيره،فأحدث الخلق إظهارا لقدرته، و تحقيقا لما سبق من إرادته،و لما حقّ فى الأزل من كلمته،و هى قوله:«كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف»لا لافتقاره إليه،و لا لحاجته.و أنه متفضل بالخلق و الاختراع

۱- أصمخه:جمع صمخ،و هو باطن الأذن المفضى إلى الرأس.

و التكليف،لا- عن وجوب،و متطول (۱)بالإنعام و الإصلاح لا- عن لزوم،فله الفضل و الإحسان و النعمه و الامتنان،إذ كان قادرا على أن يصب على عباده أنواع العذاب،و يبتليهم بضروب الآلام و الأوصاب (۲).و لو فعل ذلك لكان منه عدلا و لم يكن منه قبيحا و لا ظلما.و أنه يثيب (۳)عباده على الطاعات بحكم الكرم و العدل لا بحكم الاستحقاق و اللزوم؛إذ لا يجب عليه فعل،و لا يتصور منه ظلم،و لا- يجب لأحد عليه حق.و أن حقه فى الطاعات واجب على الخلق بإيجابه على لسان أنبيائه،لا بمجرد العقل،و لكنه بعث الرسل و أظهر صدقهم بالمعجزات الظاهره فبلّغوا أمره و نهيه،و وعده و وعيده،فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به.

الأصل التاسع فى اليوم الآخر:

و أنه يفرق بالموت بين الأرواح و الأجسام،ثم يعيدها إليها عند الحشر و النشور، فيبعث من فى القبور و يحصّل ما فى الصدور (۴).فيرى كل مكلّف ما عمله من خير أو شر محضرا (۵)،و يصادف دقيق ذلك و جليّه مسطّرا فى كتاب،لا يغادر صغيره و لا كبيره إلا- أحصاها.و يعرف كل واحد مقدار عمله،خيره و شره بمعيار صادق،يعبّر عنه بالميزان، و إن كان لا- يساوى ميزان الأعمال ميزان الأجسام الثقال،كما لا يساوى الاصطرلاب الذى هو ميزان المواقيت،و المسطره التى هى ميزان المقادير،و العروض الذى هو ميزان الأشعار،سائر الموازين،ثم يحاسبهم على أفعالهم و أقوالهم،و سرائرهم و ضمائرهم، و نياتهم و عقائدهم،مما أبدوه أو أخفوه،فإنهم يتفاوتون فيه إلى مناقش فى الحساب، و إلى مسامح فيه،و إلى من يدخل الجنه بغير حساب.و أنهم يساقون إلى الصراط،و هو جسر ممدود بين منازل الأشقياء و منازل السعداء،أحدّ من السّيف،و أدقّ من الشّعر، يخفّ عليه من استوى فى الدنيا على الصراط المستقيم الذى يوازيه فى الخفاء و الدقه،

۱- متطول:متفضل متمنن.

۲- الأوصاب:جمع وصب و هو المرض الدائم و قد يطلق على التعب.

۳- يثيب:يجزى و يعطى.

۴- قال تعالى فى سوره العاديات؛الآيتان ۹ و ۱۰: أَ فَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ، وَ حُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ .

۵- قال تعالى فى الآيه ۳۰ من سوره آل عمران: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً .

و یتعثر به من عدل عن سواء السبیل المستقیم إلا من عفی عنه بحکم الکرم.و أنهم عند ذلک یسألون،فیسأل من شاء من الأنبیاء عن تبلیغ الرساله،و من شاء من الکفار عن تکذیب المرسلین،و من شاء من المبتدعه عن السنّه،و من شاء من المسلمین عن أعمالهم،فیسأل الصادقین عن صدقهم،و المنافقین عن نفاقهم.ثم یساق السعداء إلی الرحمن وفدا،و المجرمون إلی جهنم وردا (۱).ثم یأمر بإخراج الموحّدین من النار بعد الانتقام،حتی لا یبقی فی النار من فی قلبه مثقال ذره من الإیمان،و یخرج بعضهم قبل تمام العقوبه و الانتقام،بشفاعه الأنبیاء و العلماء و الشهداء،و من له رتبه الشفاعه.ثم یستقر أهل السعاده فی الجنه منعمین أبد الآبدین،ممتعین بالنظر إلی وجه اللّه تعالی.

و یستقر أهل الشقاوه فی النار مردّدین تحت أنواع العذاب،مبعدین عن النظر بالحجاب إلی وجه اللّه تعالی،ذی الجلال و الإکرام.

الأصل العاشر فی النبوه:

و أنه تعالی خلق الملائکه و بعث الأنبیاء،و أیّدهم بالمعجزات.و أن الملائکه کلهم عباده لا یستکبرون عن عبادته و لا یستحسرون (۲).یسبحون اللیل و النهار لا یفترون.و أن الأنبیاء رسله إلی خلقه،و ینتهی إلیهم وحیه بواسطه الملائکه فینطقون عن وحی یوحی لا عن الهوی،و أنه بعث النبیّ الأمیّ القرشیّ محمد المصطفی صلی اللّه علیه و سلم برسالته إلی کافه العرب و العجم،و الجن و الإنس،فنسخ بشرعه الشرائع،و جعله سید البشر، و منحه کمال الإیمان بشهاده التوحید،و هو قوله:«لا إله إلا اللّه»ما لم یقترن بها شهاده الرسول،و هو قوله:«محمد رسول اللّه».و ألزم الخلق تصدیقه فی جمیع ما أخبر به عنه،فی أمر الدنیا و الآخره،و ألزمهم اتّباعه و الاقتداء به فقال: وَ ما آتاکُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاکُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (۳) [الحشر:۷].فلم یغادر شیئا یقرّبهم من اللّه سبحانه، إلا أمرهم به،و دلهم علی سبیله،و لا شیئا یقربهم إلی النار،و یبعدهم عن اللّه تعالی إلا نهاهم عنه،و عرّفهم طریقه.و أن ذلک أمور لا یرشد إلیها مجرد العقل و الرأی و الذکاء، بل هی أسرار یکاشف بها من حظیره القدس قلوب الأنبیاء.

۱- قال تعالی فی الآیتین ۸۵ و ۸۶ من سوره مریم: یَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِینَ إِلَی الرَّحْمنِ وَفْداً، وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِینَ إِلی جَهَنَّمَ وِرْداً .

۲- یستحسرون:یتعبون و یکلون.

۳- سوره ۵۹ - آیه ۷

و الحمد للّه على ما أرشد و هدى،و أظهر من أسمائه الحسنى،و صفاته العليا، و الصلاه و السلام على محمد المصطفى،خاتم الأنبياء و على آله و أصحابه،و سلم كثيرا.

آمين يا رب العالمين.

خاتمه فى التنبيه على الكتب التى تطلب فيها حقيقه هذه العقيده:

اعلم أن ما ذكرناه هو الحاصل من علوم القرآن،أعنى جمل ما يتعلق منها باللّه و اليوم الآخر؛و هى ترجمه العقيده التى لا بد أن ينطوى عليها قلب كل مسلم،بمعنى أنه يعتقده و يصدق به تصديقا جزما.و وراء هذه العقيده الظاهره رتبتان:إحداهما معرفه أدله هذه العقيده الظاهره من غير خوض على أسرارها،و الثانيه معرفه أسرارها و لباب معانيها و حقيقه ظواهرها.و الرتبتان جميعا ليستا واجبتين على جميع العوام،أعنى أن نجاتهم فى الآخره غير موقوفه عليهما،و لا فوزهم موقوف عليهما،و إنما الموقوف عليهما كمال السعاده.و أعنى بالنجاه الخلاص من العذاب،و أعنى بالفوز الحصول على أصل النعيم،و أعنى بالسعاده نيل غايات النعيم،فالسلطان إذا استولى على بلده و فتحها عنوه،فالذى لم يقتله و لم يعذبه فهو ناج و إن أخرجه عن البلده،و الذى لم يعذبه و مع ذلك مكّنه من المقام فى بلدته مع أهله و أسباب معيشته فهو مع ذلك فائز بالنجاه.

و الذى خلع عليه و أشركه فى ملكه و استخلفه فى مملكته و إمارته فهو مع النجاه و الفوز سعيد،ثم زياده درجات السعادات لا تنحصر.و اعلم ان الخلق فى الآخره ينقسمون إلى هذه الأصناف،بل إلى أصناف أكثر منها،و قد شرحنا ما أمكن من شرحها فى كتاب التوبه فاطلبه فيه.

و الرتبه الأولى من الرتبتين:و هى معرفه أدله هذه العقيده،و قد أودعناها الرساله القدسيه فى قدر عشرين ورقه،و هى أحد فصول كتاب قواعد العقائد من كتاب الإحياء.

و أما أدلتها مع زياده تحقيق و زياده تأنق فى إيراد الأسئله و الإشكالات،فقد أودعناها فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد فى مقدار مائه ورقه،فهو كتاب مفرد برأسه،يحوى لباب علم المتكلمين،و لكنه أبلغ فى التحقيق،و أقرب إلى قرع أبواب المعرفه من الكلام الرسمى الذى يصادف فى كتب المتكلمين.و كل ذلك يرجع إلى الاعتقاد لا إلى المعرفه؛فإن المتكلم لا يفارق العامى إلا فى كونه عارفا،و كون العامى معتقدا،بل هو أيضا معتقد عرف مع اعتقاده أدله الاعتقاد،ليؤكد الاعتقاد و يستمره،و يحرسه عن

تشویش المبتدعه.و لاـ تنحل عقیده الاعتقاد إلی انشراح المعرفه،فإن أردت أن تستنشق شیئا من روائح المعرفه صادفت منها مقدارا یسیرا مثبوتا فی کتاب الصبر و الشکر، و کتاب المحبه و باب التوحید،من أول کتاب التوکل و جمله ذلک من کتاب الإحیاء، و تصادف منها قدرا صالحا یعرفک کیفیه قرع باب المعرفه فی کتاب المقصد الأقصی فی معانی أسماء اللّه الحسنی،لا سیما فی الأسماء المشتقه من الأفعال.و إن أردت صریح المعرفه بحقائق هذه العقیده من غیر مجمحه و لا مراقبه،فلا تصادفه إلا فی بعض کتبنا المضنون بها علی غیر أهلها،و إیاک أن تغتر و تحدث نفسک بأهلیته،فتشرئب لطلبه، فتستهدف للمشافهه بصریح الرد؛إلاـ أن تجمع ثلاث خصال:إحداها الاستقلال فی العلوم الظاهره و نیل رتبه الإمامه فیها.و الثانیه انقلاع القلب عن الدنیا بالکلیه بعد محو الأخلاق الذمیمه،حتی لاـ یبقی فیک تعطش إلا إلی الحق،و لا اهتمام إلا به،و لا شغل إلا فیه،و لا تعریج إلا علیه.و الثالثه أن یکون قد أتیح لک السعاده فی أصل الفطره، بقریحه صافیه،و فطنه بلیغه،لا تکلّ عن درک غوامض العلوم و مشکلاتها علی سبیل البدیهه و المبادره؛فإن البلید إذا أتعب خاطره و أکد نفسه،ربما أدرک بعض الغوامض أیضا،و لکن یدرک منها شیئا یسیرا فی مده طویله.فلن یصلح لاقتباس المعرفه الحقیقیه،إلا قلب صاف کأنه مرآه مجلوّه؛و إنما یصیر کذلک بقوه الفطره و صحه القصد،ثم بإزاله کدورات الدنیا عن وجهه،فإنه الرّین (۱)و الطبع یمنع اللّه به القلوب عن معرفته.و أَنَّ اللّهَ یَحُولُ بَیْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ (۲) [الأنفال:۲۴].ب.

۱- الرین:الطبع الغالب.

۲- سوره ۸ - آیه ۲۴

القسم الثانی: فی الأعمال الظاهره و هی عشره أصول

الأصل الأول فی الصلاه:

قال اللّه تعالی: وَ أَقِمِ الصَّلاهَ لِذِکْرِی (۱) [طه:۱۴]و قال النبی علیه السلام:

«الصلاه عماد الدین».و اعلم أنک فی صلاتک مناج ربک،فانظر فانظر کیف تصلی،و حافظ فیها علی ثلاثه أمور لتکون من جمله المحافظین علی الصلاه و المقیمین لها:

[المحافظه الأولی:]فإن اللّه تعالی إنما یأمر بالإقامه و یقول: أَقِمِ الصَّلاهَ (۲) [الإسراء:۷۸]و أَقِیمُوا الصَّلاهَ (۳) [الأنعام:۷۲]و لیس یقول صل أو صلوا.و یثنی علی المحافظین علی الصلاه فیقول: وَ الَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ یُؤْمِنُونَ بِهِ،وَ هُمْ عَلی صَلاتِهِمْ یُحافِظُونَ (۴) [الأنعام:۹۲]الأول المحافظه علی الطهاره،بأن یسبغ (۵)الوضوء قبل الصلاه،و إسباغها أن یأتی بجمیع سننها و أذکارها المرویه عند کل وظیفه منها، و یحتاط أیضا فی طهاره ثیابه،و طهاره بدنه،و طهاره الماء الذی یتوضأ به احتیاطا لا ینفتح علیه باب الوسواس،فإن الشیطان یوسوسه فی الطهاره فیضیع أکثر أوقات العباده.

و اعلم أن المقصود من طهاره الثوب-و هو القشر الخارج-ثم من طهاره البدن- و هو القشر القریب-ثم طهاره القلب-و هو اللب الباطن-.و طهاره القلب عن نجاسات الأخلاق المذمومه،أهم طهاره کما سنذکرها فی القسم الثالث؛لکن لا یبعد أن یکون لطهاره الظاهر أیضا تأثیر فی إشراق نورها علی القلب؛فإنک إذا أسبغت الوضوء، و استشعرت نظافه ظاهرک،صادفت فی قلبک انشراحا و صفاء کنت لا تصادفه من قبل،

۱- سوره ۲۰ - آیه ۱۴

۲- سوره ۱۷ - آیه ۷۸

۳- سوره ۶ - آیه ۷۲

۴- سوره ۶ - آیه ۹۲

۵- یسبغ:یتم.

و ذلک لسر العلاقه التی بین عالم الشهاده و عالم الملکوت؛فإن ظاهر البدن من عالم الشهاده،و القلب من عالم الملکوت بأصل فطرته،و إنما هبوطه إلی عالم الشهاده کالغریب عن جبلّته (۱).و کما تنحدر من معارف القلب آثار إلی الجوارح،فکذلک یرتفع من أحوال الجوارح أنوار إلی القلب،و لذلک أمروا بالصلاه مع أنها حرکات الجوارح التی هی من عالم الشهاده،و لذلک جعلها رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم فی الدنیا و من الدنیا،و قال:

«حبب إلیّ من دنیاکم ثلاث...» (۲).الحدیث.فلا یستبعد أن یفیض من طهاره الظاهر أثر علی الباطن؛ففی بدائع صنع اللّه أمور أعجب من هذا،إذ قد عرف بالتجربه،أن المجامع فی حال المباشره،لو أدمن النظر إلی بیاض مشرق أو حمره قانیه حتی غلبت تلک الصوره علی نفسه،مال لون المولود إلی ذلک اللون الذی غلب علیه،و أن الجنین أول ما یتحرک فی البطن،تمیل صورته إلی الحسن،إن کانت الأم مشاهده فی تلک الحاله لصوره حسنه،بحیث غلبت تلک الصوره علی نفسها،و لذلک أمر رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم المباشر عند مباشرته أن یحضر فی قلبه إراده إصلاح المولود،و یدعو اللّه بذلک فیقول:

«اللهم جنّبنا الشیطان و جنب الشیطان عما رزقتنا»حتی یفیض اللّه سبحانه مبادی الصلاح علی الروح التی یخلقها عند إلقاء البذر فی محل الحرث بواسطه الصلاح الغالب علی قلب الحارث،کما یفیض اللّه النور بواسطه المرآه المحاذیه للشمس علی بعض الأجسام المحاذیه للمرآه.و ها نحن الآن نقرع بابا عظیما من معرفه عجائب صنع اللّه فی الملک و الملکوت،و إلی قریب منه یرجع سر الشفاعه فی الآخره فلنجاوزه؛ فغرضنا الآن ذکر الأعمال دون المعارف.و قد أشممناک شیئا یسیرا من أسرار الطهاره الظاهره،فإن کنت لا تصادف بعد الطهاره و إسباغ الوضوء شیئا من الصفاء الذی وصفناه،فاعلم أن الدرن الذی عرض علی قلبک من کدورات شهوات الدنیا و شواغلها، اقتضی کلال (۳)حس القلب فصار لا یحس باللطائف و الأشیاء الخفیه اللطیفه،و لم یبقء.

۱- الجبلّه:الخلقه.

۲- عن أنس بن مالک عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم قال:«حبب إلیّ من الدنیا النساء و الطیب و جعل قره عینی فی الصلاه».رواه الإمام أحمد فی مسنده ج ۳ ص ۱۲۸،۱۹۹،۲۸۵،و النسائی فی کتاب عشره النساء باب ۱.

۳- کلال:تعب،إعیاء.

فی قوته إلا إدراک الجلیات إن بقی.فاشتغل بجلاء قلبک و تصفیته،فذلک أوجب علیک من کل ما أنت فیه!.

المحافظه الثانیه:أن تحافظ علی سنن الصلاه و أعمالها الظاهره،و أذکارها و تسبیحاتها،حتی تأتی فیها بجمیع السنن و الآداب و الهیئات،کما جمعناها فی کتاب بدایه الهدایه،فإن لکل واحد منها سرّا،و له تأثیر فی القلب کما نبهنا علیه فی تأثیر الطهاره،بل أشدّ و أبلغ،و شرح ذلک یطول.و أنت إذا أتیت بذلک انتفعت به و إن لم تعلم أسراره،کما ینتفع شارب الدواء بشربه،و إن لم یعرف طبائع أخلاطه و وجوه مناسبته لمرضه.

و اعلم أن الصلاه صوره صوّرها ربّ الأرباب،کما صور الحیوان مثلا؛فروحها النیه و الإخلاص و حضور القلب،و بدنها الأعمال،و أعضاؤها الأصلیه الأرکان، و أعضاؤها الکمالیه الأبعاض (۱)فالإخلاص و النیه فیها یجری مجری الروح،و القیام و القعود یجری مجری البدن،و الرکوع و السجود یجری مجری الرأس و الید و الرجل، و إکمال الرکوع و السجود و الطمأنینه و تحسین الهیئه یجری مجری حسن الأعضاء و حسن أشکالها و ألوانها،و الأذکار و التسبیحات المودعه فیها تجری مجری آلات الحس المودعه فی الرأس و الأعضاء کالعینین و الأذنین و غیرهما،و معرفه معانی الأذکار و حضور القلب عندها یجری مجری قوه الحس المودعه فی آلات الحسّ کقوه السمع و قوه البصر و الشم و الذوق و اللمس فی معادنها.

و اعلم أن تقرّبک بالصلاه،کتقرب بعض خدم السلطان بإهداء وصیفه إلی السلطان.و اعلم أن فقد النیه و الإخلاص من الصلاه کفقد الروح من الوصیفه، و المهدی للجیفه المیته مستهزئ بالسلطان،فیستحق سفک الدم،و فقد الرکوع و السجود یجری مجری فقد الأعضاء،و فقد الأذکار یجری مجری فقد العینین من الوصیفه،و جدع الأنف و الأذنین و عدم حضور القلب فی غفلته عن معرفه معانی القرآن و الأذکار کفقد السمع و البصر مع بقاء جرم الحدقه و الأذن.و لا یخفی علیک أن من أهدی وصیفه بهذه الصفه،کیف یکون حاله عند السلطان؟.و اعلم أن قول الفقیه فی الصلاه،

۱- الأبعاض:جمع بعض،و هو الجزء من الشیء.

الناقصه ألفاظها و سننها أنها صحيحه،كقول الطبيب فى الوصيفه المقطوعه أطرافها أنها حيه و ليست بميته،فإن كان ذلك كافيا فى التقرب بها إلى السلطان و نيل الكرامه منه، فاعلم ان الصلاه الناقصه صالحه أيضا للتقرب بها إلى اللّه سبحانه و نيل الكرامه،و إن أوشك أن يردّ ذلك على المهدى و يزجر،فلا يبعد مثل ذلك فى الصلاه،فإنها قد تردّ على المصلى كالخرقه الخلقه (۱)كما ورد فى الخبر.و اعلم أن أصل الصلاه التعظيم و الاحترام،و إهمال آداب الصلاه يناقض التعظيم و الاحترام.

المحافظه الثالثه:أن تحافظ على روح الصلاه،و هى الإخلاص و حضور القلب فى جمله الصلاه،و اتصاف القلب فى الحال بمعانيها؛فلا تسجد و لا تركع إلا و قلبك خاشع متواضع على موافقه ظاهرك،فإن المراد خضوع القلب لا خضوع البدن؛و لا تقل«اللّه أكبر»و فى قلبك شىء أكبر من اللّه تعالى؛و لا تقل «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ» (۲) إلا و قلبك متوجه بكل وجهه إلى اللّه و معرض عن غيره؛و لا تقل: «الْحَمْدُ لِلّهِ» (۳) إلا و قلبك طافح بشكر نعمه عليك فرح به مستبشر؛و لا تقل «وَ إِيّاكَ نَسْتَعِينُ» (۴) إلا و أنت مستشعر ضعفك و عجزك،و أنه ليس إليك و لا إلى غيرك من الأمر شىء.و كذلك فى جميع الأذكار و الأعمال،و شرح ذلك يطول،و قد شرحناه فى كتاب الإحياء.

فجاهد نفسك فى أن تردّ قلبك إلى الصلاه حتى لا تغفل من أولها إلى آخرها،فإنه لا يكتب للرجل من صلاته إلا ما عقل منها.فإن تعذر عليك الإحضار-و ما أراك إلا كذلك-فانظر،فإن كان قدر الغفله مقدار ركعتين،فلا تعد الصلاه،و لكن افهم أن النوافل (۵)جوابر الفرائض،فتنفّل بمقدار أن يحضر القلب فيها فى مقدار ركعتين،فكلما زادت الغفله،زد فى النوافل حتى يحضر قلبك مثلا فى عشر ركعات بمقدار أربع ركعات و هو قدر فرضك،فمن رحمه اللّه عليك أن قبل منك جبران الفرائض بالنّوافل.فهذه أصول المحافظه على الصلاه.ا.

۱- الخلقه:الباليه.

۲- سوره ۶ - آيه ۷۹

۳- سوره ۱ - آيه ۲

۴- سوره ۱ - آيه ۵

۵- النوافل:جمع نافله و هو ما تفعله مما لم يفرض عليك أو يجب عليك فعله من العبادات.و النوافل أيضا العطايا.

الأصل الثانی فی الزکاه و الصدقه:

اشاره

قال اللّه سبحانه: مَثَلُ الَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِی سَبِیلِ اللّهِ کَمَثَلِ حَبَّهٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِی کُلِّ سُنْبُلَهٍ مِائَهُ حَبَّهٍ،وَ اللّهُ یُضاعِفُ لِمَنْ یَشاءُ (۱) [البقره:۲۶۱].و قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم:«هلک الأکثرون إلا من قال بالمال هکذا و هکذا».فاعلم أن إنفاق المال فی الخیرات أحد أرکان الدین؛و إنما سر التکلیف به بعد ما یرتبط به من مصالح البلاد و العباد،و سد الخلّات (۲)و الفاقات.فإن المال محبوب الخلق،و هم مأمورون بحب اللّه،و یدعون الحب بنفس الإیمان،فجعل بذل المال معیارا لحبهم،و امتحانا لصدقهم فی دعواهم؛فإن المحبوبات کلّها تبذل لأجل المحبوب الأغلب حبّه علی القلب،فانقسم الخلق فیه إلی ثلاث طبقات:

الطبقه الأولی:الأقویاء؛و هم الذین أنفقوا جمیع ما ملکوا و لم یدخروا لأنفسهم شیئا،فهؤلاء صدقوا ما عاهدوا اللّه علیه من الحب،کما فعل أبو بکر الصدیق،إذ جاء بماله کله،فقال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم:«ما ذا أبقیت لنفسک»؟فقال:«اللّه و رسوله».و قال لعمر-رضی اللّه عنه-«ما ذا أبقیت لنفسک»؟قال«مثله»أی مثل ما أتیت به.

فقال صلی اللّه علیه و سلم:«بینکما مثل ما بین کلمتیکما».

الطبقه الثانیه:المتوسطون؛و هم الذین لم یقدروا علی إخلاء الید عن المال دفعه واحده،و لکن أمسکوه لا للتنعم،بل للإنفاق عند ظهور محتاج إلیه،فهم یقنعون فی حق أنفسهم بما یقوّیهم علی العباده،و إذا عرض محتاج بادروا إلی سد خلّته و حاجته، و لم یقتصروا علی قدر الواجب من الزکاه.و إنما غرضهم الأظهر فی الإمساک ترصد الحاجات.

الطبقه الثالثه:الضعفاء؛و هم المقتصرون علی أداء الزکاه الواجبه،فلا یزیدون علیها و لا ینقصون منها.

فهذه درجاتهم؛و بذل کل واحد علی مقدار حبه للّه.و ما أراک تقدر علی الدرجه الأولی و الثانیه،و لکن اجتهد حتی تجاوز الدرجه الثالثه إلی أواخر طبقات المقتصدین

۱- سوره ۲ - آیه ۲۶۱

۲- الخلات:جمع خلّه و هی الحاجه و الفقر.

المتوسطين،فتزيد على الواجب و لو شيئا يسيرا،فإن مجرد الواجب حدّ البخلاء.قال اللّه سبحانه و تعالى: إِنْ يَسْئَلْكَمُوها فَيُحْفِكَمْ تَبْخَلُوا (۱) [محمد:۳۷].أى يستقصى عليكم فتبخلوا.فاجتهد أن لا ينقضى عليك وقت إلا و تتصدق بشىء وراء الواجب،و لو بكسره خبز،فترتفع بذلك عن درجه البخلاء.فإن لم تملك شيئا فليست الصدقه كلها فى المال،لكن كل كلمه طيبه،و شفاعه و معونه فى حاجه،و عياده مريض،و تشييع جنازه،و فى الجمله أن تبذل شيئا مما تقدر عليه من جاه و نفس و كلام،لتطييب قلب مسلم،فيكتب جميع ذلك لك صدقه.

[المحافظه فى زكاه و الصدقه على خمسه أمور:]

و حافظ فى زكاتك و صلاتك و صدقتك على خمسه أمور:

الأول:الإسرار؛فإن فى الخبر أن صدقه السر تطفئ غضب الرب.و الذى يتصدق بيمينه بحيث لا تعلم شماله هو أحد السبعه الذين يظلّهم اللّه،يوم لا ظل إلا ظله؛و قد قال اللّه تعالى: وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ (۲) [البقره:۲۷۱].و بذلك تتخلص عن الرياء،فإنه غالب على النفس و هو مهلك،ينقلب فى القلب-إذا وضع الإنسان فى قبره-فى صوره حيه،أى يؤلم إيلام الحيّه؛و البخل ينقلب فى صوره عقرب.و المقصود فى كل الإنفاق الخلاص من رذيله البخل،فإذا امتزج به الرياء،كان كأنه جعل العقرب غذاء الحيه،فما تخلص من العقرب و لكن زاد فى قوه الحيه،إذ كل صفه من الصفات المهلكات فى القلب إنما غذاؤها و قوّتها فى إجابتها إلى مقتضاها.

الثانى:أن تحذر من المنّ؛و حقيقته أن ترى نفسك محسنا إلى الفقير متفضلا عليه،و علامته أن تتوقع منه شكرا أو تستنكر تقصيره فى حقك و ممالأته عدوك استنكارا يزيد على ما كان قبل الصدقه؛فذلك يدل على أنك رأيت لنفسك عليه فضلا؛و علاجه أن تعرف أنه المحسن إليك بقبول حق اللّه منك؛فإن من أسرار الزكاه تطهير القلب، و تزكيته عن رذيله البخل و خبث الشح؛و لذلك كانت الزكاه مطهره إذ بها حصلت الطهاره،فكأنها غساله نجاسه؛و لذلك ترفع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و أهل بيته من أخذ الزكاه، و قال عليه السلام:«إنها أوساخ أموال الناس»،و إذا أخذ الفقير منك ما هو طهره لك فله الفضل عليك.أ رأيت لو كان فصّاد أفصدك مجانا و أخرج من باطنك الدم الذى تخشى ضرره فى الحياه الدنيا أ كان الفضل لك أم له؟فالذى يخرج من باطنك رذيله البخل و ضررها فى الحياه الآخره أولى بأن تراه متفضلا.

۱- سوره ۴۷ - آیه ۳۷

۲- سوره ۲ - آیه ۲۷۱

الثالث:أن تخرجه من أطيب أموالك و أجودها؛قال اللّه تعالى: وَ يَجْعَلُونَ لِلّهِ ما يَكْرَهُونَ (۱) [النحل:۶۲].و قال اللّه: وَ لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ (۲) [البقره:۲۶۷].الآيه.و قال صلى اللّه عليه و سلم:«إن اللّه طيب لا يقبل إلا الطيب»يعنى الحلال،فإن المقصود من هذا إظهار درجه الحب،و الإنسان يؤثر الأحب إليه الأنفس دون الأخسّ.

الرابع:أن تعطى بوجه طلق مستبشر،و أنت به فرحان غير مستكره؛قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:«سبق درهم مائه ألف»و إنما أراد ما يعطيه عن بشاشه و طيبه نفس من أنفس ماله و أجوده،فذلك أفضل من مائه ألف مع الكراهه.

الخامس:أن تتخير لصدقتك محلا تزكو به الصدقه؛و هو المتقى العالم الذى يستعين بها على طاعه اللّه عز و جل و تقواه،أو الصالح المعيل ذو الرحم.

فإن لم تجتمع هذه الأوصاف،فتزكو للصدقه بآحادها أيضا.و رعايه الصلاح أصل الأمور،فما الدنيا إلا البلغه (۳)للعباد و زاد لهم إلى المعاد،فليصرف إلى المسافرين إليه المتخذين هذه الدار منزلا من منازل الطريق.قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:«لا تأكل إلا طعام تقىّ،و لا يأكل طعامك إلّا تقىّ».

الأصل الثالث فى الصيام:

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:«يقول اللّه سبحانه:كل حسنه بعشر أمثالها،إلى سبع مائه ضعف،إلّا الصيام،فإنه لى و أنا أجزى به».و قال عليه السلام:«لكل شىء باب و باب العباده الصوم»،و إنما كان الصوم مخصوصا بهذه الخواص لأمرين:أحدهما أنه يرجع إلى كفّ،و هو عمل سرّ لا يطلع عليه أحد غير اللّه تعالى لا كالصلاه و الزكاه و غيرهما.

و الثانى أنه قهر لعدو اللّه؛فإن الشيطان هو العدو،و لن يقوى العدو،إلا بواسطه الشهوات، و الجوع يكسر جميع الشهوات التى هى آله الشيطان،فلذلك قال عليه السلام:«إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجارى الشيطان بالجوع»،و هو سرّ قوله صلى اللّه عليه و سلم«إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنان،و غلقت أبواب النيران،و صفدت الشياطين،و نادى مناد:يا باغى الخير هلمّ و يا باغى الشر أقصر».

۱- سوره ۱۶ - آيه ۶۲

۲- سوره ۲ - آيه ۲۶۷

۳- البلغه:ما يكفى من العيش.

و اعلم أن الصوم،بالإضافه إلى مقداره،على ثلاث درجات،و بالإضافه إلى أسراره،على ثلاث درجات.أما درجات مقداره:فأقلها الاقتصار على شهر رمضان، و أعلاها صوم داود عليه السلام،و هو أن تصوم يوما و تفطر يوما؛ففى الخبر الصحيح،أن ذلك أفضل من صوم الدهر،و أنه أفضل الصيام.و سرّه أن من صام الدهر صار الصوم له عاده،فلا يحس بوقعه فى نفسه بالانكسار،و فى قلبه بالصفاء،و فى شهواته بالضعف، فإن النفس إنما تتأثر بما يرد عليها لا بما مرنت (۱)عليه،فلا يبعد هذا،فإن الأطباء أيضا ينهون عن اعتياد شرب الدواء،و قالوا:«من تعود ذلك لم ينتفع به إذا مرض،إذ يألفه مزاجه فلا يتأثر به».

و اعلم أن طب القلوب قريب من طب الأبدان،و هو سر قوله صلى اللّه عليه و سلم لعبد اللّه بن عمر-رضى اللّه عنهما-لما كان يسأله عن الصوم،فقال عليه السلام:«صم يوما و أفطر يوما».فقال:«أريد أفضل من ذلك».فقال عليه السلام:«لا أفضل من ذلك»-و لذلك لما قيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:«إن فلانا صام الدهر»،فقال عليه السلام:«لا صام و لا أفطر».

كما قالت عائشه-رضى اللّه عنها-لرجل كان يقرأ القرآن بهذرمه (۲):«إن هذا ما قرأ القرآن و لا سكت».

و أما الدرجه المتوسطه فهو أن تصوم ثلث الدهر.و مهما صمت الاثنين و الخميس و أضفت إليه رمضان،فقد صمت من السنه أربعه أشهر و أربعه أيام،و هو زياده على الثلث؛لكن لا بد أن ينكسر يوم من أيام التشريق،و ترجع الزياده إلى ثلاثه أيام؛و يتصور أن ينكسر فى العيدين يومان فتكون ثلاثه أيام،فترجع الزياده إلى يوم واحد،فتأمل حسابه تعرفه.فلا ينبغى أن ينقص من هذا القدر صومك،فإنه خفيف على النفس، و ثوابه جزيل.

و أما درجات أسراره فثلاث:أدناها أن يقتصر على الكفّ عن المفطرات،و لا يكف جوارحه عن المكاره؛و ذلك صوم العموم و هو قناعتهم بالاسم.الثانيه:أن تضيف إليه كف الجوارح،فتحفظ اللسان عن الغيبه و العين عن النظر بالزينه و كذا سائرم.

۱- مرنت:اعتادت و ألفت.

۲- الهذرمه:الإسراع فى القراءه و الكلام.

الأعضاء.الثالثه:أن تضيف إليه صيانه القلب عن الفكر و الوسواس،و تجعله مقصورا على ذكر اللّه عز و جل،و ذلك صوم خصوص الخصوص و هو الكمال.

ثم للصيام خاتمه بها يكمل،و هو أن يفطر على طعام حلال لا على شبهه،و أن لا يستكثر من أكل الحلال بحيث يتدارك ما فاته ضحوه،فيكون قد جمع بين أكلتين دفعه واحده،فتثقل معدته و تقوى شهوته،و يبطل سرّ الصوم و فائدته،و يفضى إلى التكاسل عن التهجّد،و ربما لم يستيقظ قبل الصبح؛و كلّ ذلك خسران و ربما لا توازيه فائده الصوم.

الأصل الرابع فى الحج:

اشاره

قال اللّه تعالى: وَ لِلّهِ عَلَى النّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا (۱) [آل عمران:۹۷].و قال صلى اللّه عليه و سلم:«من مات و لم يحج،فليمت إن شاء يهوديا و إن شاء نصرانيا» و قال صلى اللّه عليه و سلم«بنى الإسلام على خمس...».الحديث (۲).و للحج أعمال ظاهره ذكرناها فى كتاب الإحياء.و ننبهك الآن على آداب دقيقه،و أسرار باطنه:

أما الآداب فسبعه:

الأول:أن ترتاد للطريق رفيقا صالحا و نفقه طيبه حلالا،فالزاد الحلال ينوّر القلب،و الرفيق الصالح يذكّر الخير و يزجر عن الشر.

الثانى:أن يخلى يده عن مال التجاره كيلا يتشعب فكره،و ينقسم خاطره و لا يصفو للزياره قصده.

الثالث:أن يوسع فى الطريق بالطعام و يطيّب الكلام مع الرفقاء و المكارى.

الرابع:أن يترك الرّفث (۳)و الجدال و التحدّث بالفضول فى أمر الدنيا،بل يقصر لسانه-بعد مهمات حاجاته-على الذكر و تلاوه القرآن.

۱- سوره ۳ - آيه ۹۷

۲- تمام الحديث،عن ابن عمر عن النبى صلى اللّه عليه و سلم قال:«بنى الإسلام على خمسه:على أن يوحد اللّه،و إقام الصلاه،و إيتاء الزكاه،و صيام رمضان،و الحج»أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان،حديث رقم ۱۹-۲۲،و البخارى فى الإيمان باب ۱ و ۲،و تفسير سوره ۲،و الترمذى فى الإيمان باب ۳، و النسائى فى الإيمان باب ۱۳.

۳- الرفث:قول الفحش.

الخامس:أن يركب راحله دون المحمل،و يكون رث الهيئه أشعث أغبر،غير متزين،بل على هيئه المساكين،حتى لا يكتب فى جمله المترفين.

السادس:أن ينزل عن الدابه أحيانا ترفيها للدابه و تطييبا لقلب المكارى، و تخفيفا للأعضاء بالتحرك،و لا يحمّل الدابه ما لا تطيق،بل يرفق بها ما أمكن.

السابع:أن يكون طيب النفس بما أنفق من نفقه،و بما أصابه من تعب و خسران، و أن يرى ذلك من آثار قبول الحج فيحتسب الثواب عليه.

و أما أسراره فكثيره نرمز منها إلى فنّين:أحدهما أنه وضع بدلا عن الرّهبانيه التى كانت فى الملل كما ورد به الخبر؛فجعل اللّه سبحانه الحج رهبانيه لأمه محمد صلى اللّه عليه و سلم.

فشرف البيت العتيق،و أضافه إلى نفسه،و نصبه مقصدا لعباده و جعل ما حواليه حرما لبيته تفخيما لأمره،و جعل عرفات كالميدان على فناء حرمه،و أكد حرمه الموضع بتحريم صيده و شجره،و وضعه على أمثال الملوك ليقصده الزوار من كل فج عميق،ضعفاء غبرا (۱)، متواضعين لرب العالمين،خضوعا لجلاله،و استكانه لعزته،مع الاعتراف بتنزهه عن أن يكتنفه بيت،أو يحويه مكان،ليكون ذلك أبلغ فى رقهم و عبوديتهم.و لذلك كلفهم أعمالا غريبه لا تناسب الطبع و العقل،ليكون إقدامهم بحكم محض العبوديه،و امتثال الأمر من غير معاونه باعث آخر.و هذا سر عظيم فى الاستعباد،و لذلك قال صلى اللّه عليه و سلم:«لبّيك بحجّه حقّا و تعبّدا و رقّا».

الفن الثانى:أن هذا السفر وضع على مثال سفر الآخره،فليتذكر المريد بكل عمل من أعماله أمرا من أمور الآخره موازيا له،فإن فيه تذكره للمتذكر،و عبره للمعتبر المستبصر.فتذكر من أول سفرك عند وداعك أهلك،وداع الأهل فى سكرات الموت، و من مفارقه الوطن الخروج من الدنيا،و من ركوب الجمل ركوب الجنازه،و من الالتفاف فى أثواب الإحرام الالتفاف فى أثواب الكفن،و من دخول الباديه إلى الميقات ما بين الخروج من الدنيا إلى ميقات القيامه،و من هول قطّاع الطريق سؤال منكر و نكير،و منس.

۱- غبر:جمع أغبر.و كانت فى الأصل غبراء و لعله تصحيف من الناسخ.و معنى أغبر ما لونه الغبره و هى هنا كنايه عن التقشف و إذلال النفس.

سباع البوادی،عقارب القبر و دیدانه،و من انفرادک عن أهلک و أقاربک،وحشه القبر و وحدته،و من التلبیه،إجابه داعی اللّه عز و جل عند البعث،و کذلک فی سائر الأعمال،فإن فی کل عمل سرّا و تحته رمزا،یتنبه له کل عبد بقدر استعداده للتنبه، بصفاء قلبه،و قصور همه علی مهمات الدین.

الأصل الخامس فی قراءه القرآن:

اشاره

قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم:«أفضل عباده أمتی قراءه القرآن».و قال علیه السلام:«لو کان القرآن فی إهاب (۱)ما مسّته النار».و قال علیه السلام:«ما من شفیع أفضل منزله عند اللّه یوم القیامه من القرآن.لا- نبیّ و لا- ملک و لا- غیره».و قال علیه السلام:«یقول اللّه سبحانه:من شغله قراءه القرآن عن دعائی و مسألتی أعطیته أفضل ثواب الشاکرین».

و اعلم أن لقراءه القرآن آدابا ظاهره و أسرارا باطنه،

أما الآداب الظاهره فثلاثه:

الأول:أن تقرأه باحترام و تعظیم،و لن تلزم الحرمه قلبک ما لم تلزم هیئه الحرمه ظاهرک،و قد عرفت کیفیه علاقه القلب بالجوارح و وجه ارتفاع الأنوار منها إلیه.و هیئه الحرمه أن تجلس و أنت علی الطهاره ساکنا مطرقا مستقبل القبله غیر متکئ و لا متربع و لا- نائم،کما تجلس بین یدی المقرئ،و تقرأه بترتیل و تفخیم و تؤده (۲)حرفا حرفا من غیر هذرمه (۳).قال ابن عباس- رضی اللّه عنه-:«لأن أقرأ«إذا زلزلت»و«القارعه» أتدبّرهما ا أحب إلی من أن أقرأ«البقره»و«آل عمران»تهذیرا».

الثانی:أن تتشوف فی بعض الأوقات إلی أقصی درجات الفضل فیه،و ذلک بأن تقرأه فی الصلاه قائما،خصوصا فی المسجد،و باللیل،لأن القلب فی اللیل أصفی لأنه أفرغ.فإنک و ان خلوت بالنهار فتردّد الخلق و حرکاتهم فی أشغالهم،تحرّک باطنک، و تشغلک،خصوصا و إن کنت تتوقع أن تطلب شغلا من الأعمال و الأشغال.و کیفما قرأته،و لو مضطجعا من غیر طهاره،فلا تخلو عن الفضل،فإن اللّه تعالی أثنی علی الجمیع،و قال: اَلَّذِینَ یَذْکُرُونَ اللّهَ قِیاماً وَ قُعُوداً وَ عَلی جُنُوبِهِمْ (۴) [آل عمران:۱۹۱].

۱- الإهاب:الجلد و خاصه ما لم یدبغ منه.

۲- تؤده:تمهل.

۳- الهذرمه:الإسراع فی قراءه القرآن دون تدبر لمعانیه.

۴- سوره ۳ - آیه ۱۹۱

الآیه.و لکن ما ذکرناه فی زیاده الفضل؛فإن کنت من مریدی الآخره،فلا یسهل علیک ترک الفضل،و قد قال علی-رضوان اللّه علیه-«من قرأ القرآن و هو قائم فی الصلاه،فله بکل حرف مائه حسنه،و من قرأ القرآن فی غیر صلاه،و هو علی طهاره،فخمس و عشرون حسنه،و من قرأه علی غیر وضوء،فعشر حسنات».

الثالث:فی مقدار القراءه،و له ثلاث درجات:أدناها أن یختم فی الشهر مره، و أقصاها أن یختم فی ثلاثه أیام مره.و قال صلی اللّه علیه و سلم:«من قرأ القرآن فی أقل من ثلاث لم یفقه»و أعدلها أن یختم فی الأسبوع مره.و أما الختم فی کل یوم فغیر مستحب.و إیاک أن تتصرف بعقلک فتقول:ما کان خیرا و نافعا فکلما کان أکثر کان أنفع.فإن عقلک لا یهتدی إلی أسرار الأمور الإلهیه،و إنما تتلقاها قوه النبوه،فعلیک بالاتّباع فإن خواص الأمور لا تدرک بالقیاس.أو ما تری کیف نودیت إلی الصلاه و نهیت عنها جمیع النهار و أمرت بترکها بعد الصبح و بعد العصر و عند الطلوع و عند الغروب و الزوال؟و ذلک ینتهی إلی قدر ثلث النهار.و کیف و أثر الفساد ظاهر علی قیاسک هذا!فإنه کقول القائل:

الدواء نافع للمریض،فکلما کان أکثر کان أنفع.و أنت تعلم أن کثره الدواء ربما یقتل.

و أما الأسرار الباطنه فخمسه:

الأول:أن تستشعر فی أول قراءتک عظمه الکلام باستشعار تعظیم المتکلم، فتحضر فی قلبک العرش و الکرسی،و السموات و الأرض و ما بینهما،من الملائکه و الجن،و الإنس و الحیوانات،و النباتات و المعادن.و تتذکر أن الخالق لجمیعها واحد، و أن الکل فی قبضه قدرته،متردد بین فضله و رحمته،و أنک ترید أن تقرأ کلامه و تنظر به إلی صفه ذاته،و تطالع جمال علمه و حکمته،و تعلم أنه لا یمس ظاهر المصحف إلا المطهّرون بظواهرهم،و هو محجوب عن غیرهم،فکذلک حقیقه معناه و باطنه، محجوب عن باطن القلب،إلّا إذا کان مطهرا من کل رجس و خبث من خبائث الباطن.

و بمثل هذا التعظیم کان عکرمه،إذا نشر المصحف ربما غشی علیه،و یقول:«هذا کلام ربّی،هذا کلام ربی».

و اعلم أنه لو لا أن أنوار کلامه العزیز و عظمته غشیت بکسوه الحروف لما أطاقت القوه البشریه سماعه لعظمته و سلطانه و سبحات نوره،و لو لا تثبیت اللّه عز و جل موسی-

علیه السلام-لما أطاق سماعه مجردا عن کسوه الحروف و الأصوات،کما لم یطق الجبل مبادئ تجلیه حتی صار دکّا دکّا.

الثانی:أن تقرأ بتدبر معانیه إن کنت من أهله،و کل ما یجری لسانک به فی غفله فأعده،و لا تعده من عملک لأن الترتیل فی الظاهر للتمکن من التدبر.قال علی-علیه السلام-:«لا خیر فی عباده لا فقه فیها،و لا فی قراءه لا تدبّر فیها.و إیاک أن تصیر مشغوفا بعدد الختمات علی نفسک فلأن تردد آیه واحده لیله تتدبّرها خیر لک من ختمتین،فقد قرأ رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم «بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ» (۱) فرددها عشرین مره».و قال أبو الدرداء-رضی اللّه عنه-:«قام رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم بنا لیله،فقام بآیه یردّدها: إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُکَ (۲) و قام تمیم الداری لیله بقوله سبحانه: أَمْ حَسِبَ الَّذِینَ اجْتَرَحُوا السَّیِّئاتِ... (۳) الآیه،و قام سعید بن جبیر لیله بقوله: وَ امْتازُوا الْیَوْمَ أَیُّهَا الْمُجْرِمُونَ (۴) ».و لعل الألیق بک ما قاله بعض العارفین إذ قال:«لی فی کل جمعه ختمه، و لی فی کل شهر ختمه،و فی کل سنه ختمه،و لی ختمه منذ ثلاثین سنه،ما فرغت منها بعد».و ذلک بحسب درجات التدبر،فإن القلب فی بعض الأوقات لا یحتمل التدبر الطویل،فلیکن للتدبر الطویل ختمه خاصه.

الثالث:أن تجتنی فی تدبرک ثمار المعرفه من أغصانها،و تقتبسها من أوطانها، و لا تطلب الترياق من حیث تطلب منه الجواهر،و لا الجواهر من حیث یطلب منه المسک و العود،فإن لکل ثمره غصنا،و لکل جوهر معدنا،و إنما یتیسر لک هذا بأن تعرف الأصناف العشره التی حصرنا فیها أقسام القرآن،و هی عشره معادن:فما یتعلق من القرآن باللّه تعالی و بصفاته و أفعاله،فاقتبس منه معرفه الجلال و العظمه،و ما یتعلق بالإرشاد إلی الصراط المستقیم فاقتبس منه معرفه الرحمه و العطف و الحکمه،و ما یتعلق بإهلاک الأعداء فاقتبس منه معرفه العزّه و الاستغناء و القهر و التجبر،و ما یتعلق بأحوال الأنبیاء،فاقتبس منه معرفه اللطف و النعمه و الفضل و الکرم،و کذلک فی کل صنف ما یلیق به.فلا تنظرنّ إلیه بعین واحده،و شرح ذلک یطول.

الرابع:أن تتخلی عن موانع الفهم و هی الأکنّه (۵)التی تمنع من الفهم.قال اللّه عزا.

۱- سوره ۱ - آیه ۱

۲- سوره ۵ - آیه ۱۱۸

۳- سوره ۴۵ - آیه ۲۱

۴- سوره ۳۶ - آیه ۵۹

۵- أکنه:أغطیه أو ستائر،و هی الحجب التی تحجب الأشیاء و تحول دون رؤیتها.

و جلّ: وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً... (۱) [الأنعام:۲۵، الإسراء:۴۶]الآيه.و قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:«لو لا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء».

و اعلم أن معانى القرآن من جمله الملكوت،و إنما حروفها من عالم الشهاده، و الأكنه التى يبتلى بها المتقى المتعطش إلى الحقّ نوعان:إما ما ابتلى به ضعيف الإيمان من حجاب الشك و الجحود،و إما ما ابتلى به المنهمك فى الدنيا من حجاب الشهوات المستغرقه للقلب.فذلك جليّ لا يخفى كونه مانعا من فهم لطائف القرآن و اقتباس أنواره،فبها حجب أكثر الخلق.و أما العباد المتجرّدون لطريق اللّه عزّ و جل، فيحجبون بنوعين آخرين،أحدهما:الوسواس الصارف للقلب إلى التفكر فى النيه كيف كانت فى الابتداء هل بقيت الآن،و هل هو مخلص فى الحال؟هذا إن كان فى الصلاه؛أو الوسواس الصارف للهمّ إلى تصحيح مخارج الحروف و التشكك فيها و إعادتها لأجل ذلك،و هذا يجرى فى الصلاه و غيرها،فكيف يطالع أسرار الملكوت قلب محجوب مصروف إلى مطالعه الشفتين و كيفيه انطباقهما،و اللسان و الحنك و كيفيه انسلال الهواء من اصطكاكهما؟و هو معنى تقطيع الحروف و تصحيحها.

النوع الثانى:التقليد لظواهر معانى القرآن و الجمود عليها،و ذلك حجاب عظيم عن الفهم،و لست أعنى به التقليد الباطل،كتقليد المبتدع،بل التقليد الحق أيضا.فإن الحق الذى كلف الخلق اعتقاده له درجات،و له مبدأ ظاهر،و هو كالقشر و المثال و له غور باطن و هو كاللّباب.قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:«إن للقرآن ظاهرا و باطنا،و حدّا و مطلعا».فالجامد على الظاهر الظانّ أنه ليس وراءه مرقى يرتقى إليه،كيف يتصور أن تنكشف له الأسرار،فقد كلف الخلق مثلا أن يعتقدوا أن اللّه تعالى يرى،و لكن للرؤيه ظاهر و سرّ،فمن اعتقد أن رؤيه اللّه تعالى مناسبه للرؤيه التى يألفها الإنسان فى هذا العالم،كيف يتصور أن يطّلع على سرّ قوله تعالى: لَنْ تَرانِي (۲) و كيف يفهم أن ذلك ممتنع فى هذه الحياه الدنيا بهذه العين الموقوفه على ملاحظه الجهات و الأقطار،و كيف يدرك قوله: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ (۳) [الأنعام:۱۰۳]،مع قوله: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَهٌ، إِلى رَبِّها ناظِرَهٌ (۴) [القيامه:،۲۲ ۲۳].و يكفيك هذا المثال الواحد،فلسنا نكشف لك أكثر من هذا،و لسنا نقصد فى هذا الأصل إلا التلويحات لمبادئ الأسرار تشويقا للمستعدين لها.

۱- سوره ۶ - آيه ۲۵

۲- سوره ۷ - آيه ۱۴۳

۳- سوره ۶ - آيه ۱۰۳

۴- سوره ۷۵ - آيه ۲۲

الخامس:أن لا تقتصر على اقتباس الأنوار،بل تضيف إليها اقتباس الأحوال و الآثار،و ذلك أن لا تقرأ آيه إلا و أن تصير بصفتها،فتكون لك بحسب كل فهم حال و وجد،فعند ذكر الرحمه،و عند المغفره،تستبشر كأنك تطير من الفرح،و عند ذكر الغضب و شده العقاب،تتضاءل كأنك تموت من الفزع،و عند ذكر اللّه و أسمائه و عظمته،تتطأطأ و تتصاغر حتى كأنك تنمحق من مشاهده الجلال،و عند ذكر الكفار ما يستحيل عليه من ولد و صاحبه،تنكسر و تغض صوتك كأنك تنطمس من الحياء، و كذلك فى كل صنف من الأصناف العشره،و ذلك أيضا يطول.و ليظهر أثر ذلك على جوارحك من بكاء عند الحزن،و عرق جبين عند الحياء،و اقشعرار الجلد،و ارتعاد الفرائص عند الهيبه و الجلال،و انبساط فى الأعضاء و اللسان و الصوت عند الاستبشار، و انقباض فيها عند الاستشعار،فإذا فعلت ذلك،اشترك فى نيل حظ القرآن جميع أعضائك،و فاضت آثار القرآن على عوالمك الثلاثه،أعنى:عالم الملكوت،و عالم الجبروت،و عالم الشهاده.

و اعلم أن محض أنوار المعرفه تفيض من عالم الملكوت إلى سرّ القلب،لأنه أيضا من الملكوت،و أما آثارها من الخشيه و الخوف و السرور و الهيبه و سائر الأحوال، فإنها تهبط من عالم الجبروت،و مهبطها الصدر الذى هو عالم الجبروت،و هو عالم آخر من عوالمك،كنينا عنه بالصدر كما كنينا عن الأول بالقلب،لأن عالم الجبروت بين عالم الملكوت و عالم الشهاده،كما أن الصدر بين القلب و الجوارح.و أما البكاء و الشهيق و الاقشعرار و ارتعاد الفرائص،فتنزل من عالم الشهاده،و مهبطها الجوارح، لأنها من عالم الشهاده،و ما أراك تفهم من القلب غير اللحم الصنوبرى الشكل،و من الصدر غير العظم المحيط به،فإنك لا تدرك من كل شىء إلا غلافه و قشره،و ما أبعدك عن درك الحقائق،فإن هذا يوجد للبهائم و الميت،و لا تنزل عليه أنوار المعارف و العلوم و لا آثارها من الخشيه و الهيبه و السرور،فإن أردت أن تستنشق شيئا من روائح هذه الأسرار-و ما أراك تريد- فقد أخذ الشيطان بمخنقك بحبال الشهوات،فعليك بباب التوحيد من أول كتاب التوكل إن أردته.

و اعلم أن القرآن كالشمس،و فيضان أسرار المعارف منه على القلب كفيضان أنوار الشمس على الأرض،و سريان آثار الخوف و الخشيه و الهيبه و سائر الأحوال منه على

الصدر كسريان حراره الشمس فى باطن الأرض،تابعا لإشراق الأنوار؛فإن الخشيه أثر نور المعرفه،و إِنَّما يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ (۱) [فاطر:۲۸]،فانتشار الحركات و التغيرات إلى الجوارح من البكاء و العرق و الاقشعرار و الارتعاد،منبعث من آثار الخشيه،و سائر الأحوال،كحركه أجزاء الأرض بتصاعد الأبخره و الأدخنه منها،بتصعيد حراره الشمس،فالحركه تبع الحراره،و الحراره تبع النور،و النور تبع وقوع المحاذاه بين الأرض و الشمس.فاجتهد بأن تحاذى بوجه قلبك شطر شمس القرآن،و تستضيء بأنواره.كذلك فإن لم تطق ذلك فأصغ إلى النداء الوارد من جانب الطّور الأيمن،فإن آنست من جوانبه نارا،فخذ منه قبسا و أشعل منه سراجا،فإن كان زيتك صافيا يكاد يضيء و لو لم تمسسه نار،فإذا مسته النار انبعث منه الضياء،و وجدت على النار هدى، و قام فى حقك مقام الشمس المنتشره الإشراق و الضياء.

الأصل السادس:ذكر اللّه عز و جل فى كل حال:

قال اللّه سبحانه: وَ اذْكُرُوا اللّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۲) [الأنفال:۴۵،الجمعه:

۱۰]،و قال لنبيه صلى اللّه عليه و سلم: وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (۳) [المزمل:۸]،و قال صلى اللّه عليه و سلم:

«لذكر اللّه بالغداه و العشى أفضل من حطم السيوف فى سبيل اللّه و من إعطاء المال سخاء»،و قال صلى اللّه عليه و سلم:«ألا أنبئكم بخير أعمالكم و أذكاها عند مليككم،و أرفعها فى درجاتكم،و خير لكم من إعطاء الورق و الذهب،و خير لكم من أن تلقوا أعداءكم فتضربوا أعناقهم و يضربون أعناقكم؟»قالوا:و ما ذاك يا رسول اللّه؟فقال:«ذكر اللّه».

و قال صلى اللّه عليه و سلم:«سبق المفردون سبق المفردون»،فقيل:و من هم يا رسول اللّه؟فقال:

«المستهترون بذكر اللّه،وضع ذكر اللّه عنهم أوزارهم فوردوا القيامه خفافا».

و اعلم أنه قد انكشف لأرباب البصائر أن الذكر أفضل الأعمال؛و لكن له أيضا قشور ثلاثه،بعضها أقرب إلى اللب من بعض،و له لب وراء القشور الثلاثه.و إنما فضّل القشور لكونها طريقا إليه؛فالقشر الأعلى منه ذكر اللسان فقط.و الثانى القلب إذ كان القلب يحتاج إلى موافقته حتى يحضر مع الذكر،و لو ترك و طبعه لاسترسل فى أوديه الأفكار.و الثالث أن يستمكن الذكر من القلب و يستولى عليه،بحيث يحتاج إلى تكلف فى صرفه عنه إلى غيره،كما احتيج فى الثانى إلى تكلف فى قراره معه و دوامه عليه، و الرابع-و هو اللباب-أن يستمكن المذكور من القلب،و ينمحى الذكر و يخفى،و هو

۱- سوره ۳۵ - آیه ۲۸

۲- سوره ۸ - آیه ۴۵

۳- سوره ۷۳ - آیه ۸

اللّباب المطلوب؛و ذلک بأن لا یلتفت إلی الذکر و لا إلی القلب،بل یستغرق المذکور جملته؛و مهما ظهر له فی أثناء ذلک التفات إلی الذکر،فذلک حجاب شاغل.و هذه الحاله التی یعبر عنها العارفون بالفناء،و ذلک بأن یفنی عن نفسه حتی لا یحس بشیء من ظواهر جوارحه،و لا من الأشیاء الخارجه عنه،و لا من العوارض الباطنه فیه،بل یغیب عن جمیع ذلک و یغیب عنه جمیع ذلک،ذاهبا إلی ربه أولا،ثم ذاهبا فیه آخرا،و إن خطر له فی أثناء ذلک أنه فنی عن نفسه بالکلیه فذلک شوب (۱)و کدوره؛بل الکمال فی أن یفنی عن نفسه و یفنی عن الفناء أیضا،فإن الفناء عن الفناء غایه الفناء،و هذا قد یظنه الفقیه الرسمی،أنه طامّات (۲)غیر معقوله،و لیس کذلک،بل هذه الحاله لهم-بالإضافه إلی محبوبهم-کحالتک فی أکثر الأحوال بالإضافه إلی محبوبک من جاه أو مال أو معشوق،فإنک قد تصیر مستغرقا لشده الغضب بالفکر فی عدوک،و لشده التفکر فی معشوقک،حتی لا یکون فیک متسع لشیء أصلا،فتخاطب فلا تفهم،و یجتاز بین یدیک غیرک فلا تراه و عیناک مفتوحتان،و یتکلم عندک فلا تسمع و ما بأذنیک صمم،و أنت فی هذا الاستغراق غافل عن کل شیء و عن الاستغراق أیضا،فإن الملتفت إلی الاستغراق معرض عن المستغرق به.و إنما سمّوا هذه الحاله فناء،و إن کان الشخص و الظل باقیین،لأن الأشخاص و الأظلال بل سائر المحسوسات لیس لها حقیقه الوجود، بل الوجود الحقیقی لعالم الأمر و الملکوت،و القلب من عالم الأمر؛قال اللّه تعالی:

قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی (۳) [الإسراء:۸۵].و القوالب من عالم الخلق،و أعنی بالقلب (۴)اللطیفه الذاکره العارفه التی هی مهبط الأنوار الإلهیه دون القلب الظاهر،فإن ذلک من عوالم الخلق،فلا یفهم من هذا إشاره إلی قدم الروح و حدوث القالب بل هما جمیعا حادثان.و إنما أعنی بالخلق ما تقع علیه المساحه و التقدیر،و هی الأجسام و صفاتها.و أعنی بعالم الأمر ما لا یتطرق إلیه التقدیر.و العالم الجسمانی لیس له وجود حقیقی،بل هو من ذلک العالم کالظل من الأجسام،و لیس لظل الإنسان حقیقه الإنسان، و لیس للشخص حقیقه الوجود،بل هو ظل الحقیقه،و الکل من صنع اللّه تعالی.قال اللّه».

۱- الشوب:الخلط.

۲- طامات:جمع طامه،و هی الداهیه التی لیس بعدها داهیه.

۳- سوره ۱۷ - آیه ۸۵

۴- کذا بالأصل و لعلها،«و أعنی بالقلب الروح اللطیفه...الخ».

تعالى: وَ لِلّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً،وَ ظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ (۱) [الرعد:۱۵].و سجود عالم الأمر طوع للّه،و سجود الظلال كره،و تحته سرّ بل أسرار،تحرك أوائلها سلسله المجانين الحمقى،فضلا عن أواخرها؛فلنتجاوزها، فقد أفهمناك ما أرادوه بالفناء.فدع عنك الغيبه و التكذيب بما لم تحط بعلمه كما قال تعالى: بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ (۲) [يونس:۳۹]،و قال تعالى: وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ (۳) [الأحقاف:۱۱].

فإذا فهم الفناء فى المذكور فاعلم أنه أول الطريق،و هو الذهاب إلى اللّه عز و جل،و إنما الهدى بعده؛أعنى بالهدى هدى اللّه،كما قال الخليل-صلوات اللّه عليه- إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ (۴) [الصافات:۹۹].فأول الأمر ذهاب إلى اللّه، ثم ذهاب فى اللّه،و ذلك هو الفناء و الاستغراق به.و لكن هذا الاستغراق أولا يكون كبرق خاطف قلّ ما يثبت و يدوم.فإن دام ذلك صارت عاده راسخه و هيئه ثابته،عرج به إلى العالم الأعلى و طالع الوجود الحقيقى الأصفى،و انطبع له نقش الملكوت،و تجلى له قدس اللاهوت،و أول ما يتمثل له من ذلك العالم:جواهر الملائكه و أرواح الأنبياء و الأولياء فى صوره جميله،يفيض إليه بواسطتها بعض الحقائق-و ذلك فى البدايه إلى أن تعلو درجته عن المثال،فيكافح بصريح الحق فى كل شىء،فإذا رد إلى هذا العالم المجازى الذى هو كالظلال،نظر إلى الخلق نظر مترحّم عليهم،لحرمانهم من مطالعه جمال حظيره القدس،و تعجب منهم فى قناعتهم بالظلال،و انخداعهم بعالم الغرور و عالم الخيال،فيكون معهم حاضرا بشخصه،غائبا بقلبه،متعجبا هو من حضورهم، و يتعجبون هم من غيبته.فهذه ثمره لباب الذكر،و إنما مبدؤها ذكر اللسان،ثم ذكر القلب تكلّفا،ثم ذكر القلب طبعا،ثم استيلاء المذكور و انمحاء الذكر،و هذا سرّ قوله صلى اللّه عليه و سلم:«من أحبّ أن يرتفع فى رياض الجنه فليكثر ذكر اللّه عز و جل»،بل سرّ قوله:

«يفضل الذّكر الخفى على الذكر الذى تسمعه الحفظه سبعين ضعفا».

و اعلم أن كل ذكر يشعر به قلبك،تسمعه الحفظه،فإن شعورهم يقارن شعورك، و فيه سر،حتى إذا غاب ذكرك عن شعورك بذهابك فى المذكور بالكليه،فيغيب ذكرك عن شعور الحفظه.و ما دام القلب يشعر بالذكر،و يلتفت إليه،فهو معرض عن اللّه عز و جل،و غير منفكّ عن شرك خفىّ حتى يصير مستغرقا بالواحد الحقّ؛فذلك هو

۱- سوره ۱۳ - آیه ۱۵

۲- سوره ۱۰ - آیه ۳۹

۳- سوره ۴۶ - آیه ۱۱

۴- سوره ۳۷ - آیه ۹۹

التوحيد.و كذلك القول فى المعرفه،فمن طلب المعرفه للمعرفه فقد قال بالثانى،و من وجدها،كمثل أن لا يجدها بل يجد المعروف بها،فهو الذى استمكن من حقيقه الوصال،و حل بحبوحه حظيره القدس،فإن قلت:فلم اختصت هذه المكاشفات بحال الفناء؟فاعلم أن هذه قصه يطول فيها نظر الناظر،و ذلك إذا تأملت لم تقصّر عن أن تدرك كون الحواس و عوارض النفس و شهواتها،جاذبه إلى هذا العالم المحسوس،و هو عالم الزور و الغرور،و لذلك يكشف صريح الحق بالموت،لبطلان سلطان الحواس و الخيالات المولیه بوجه القلب إلى عالم السفل؛فإن قصّر عنك سلطان الحواس بالنوم، طولعت بشىء من الغيب على قدر استعدادك و قبولك و همّتك،و لكن بمثال يحتاج إلى التعبير.و ما عندى أنك لم تصادف من نفسك رؤيا صادقه اطّلعت بها على أمر مستقبل، لكن الخيال لا يفتر فى النوم و إن ركدت الحواس؛فلذلك يضعف الاطلاع و لا يخلو من شوب المثال.

و أما الفناء،فعباره عن حاله تركد فيها الحواس و لا تشتغل،و يسكن فيها الخيال و لا يشوّش؛فإن بقيت فى الخيال بقيه مغلوبه،لم يؤثر إلا فى محاكاه ما يتجلى من عالم القدس،حتى يتمثل الأنبياء و الملائكه و الأرواح المقدسه فى قوالب الخيال.

فهذه أمور نبهت عليها لتكون متشوقا إلى أن تصير من أهل الذوق لها،فإن لم تكن،فمن أهل العلم بها،فإن لم تكن،فمن أهل الإيمان بها،و يَرْفَعِ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ (۱) [المجادله:۱۱].و إياك أن تكون من المنكرين لها،فتلقى العذاب الشديد،إذا كوشفت بالحق عند سكرات الموت الذى كنت منه تحيد،و قيل لك: لَقَدْ كُنْتَ فِی غَفْلَهٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (۲) [ق:۲۲].

و اعلم أن الإيمان و العلم و الذوق ثلاث درجات متباعده،فإن العنّين (۳)مثلا يتصور أن يصدق بوجود شهوه الوقاع لغيره،بأن يقبل ذلك ممن يحسن ظنه به و لا يتهمه بالكذب،و ذلك إيمان،و يتصور أن يعلم بالبرهان وجوده لغيره،و هو علم؛و مأخذه قياس أن ينظر إلى شهوته للطعام مثلا،فيقيس بها شهوه الوقاع،و كل ذلك بعيد عنا.

۱- سوره ۵۸ - آیه ۱۱

۲- سوره ۵۰ - آیه ۲۲

۳- العنين:من لا يأتى النساء عجزا أو كرها.

إدراک حقیقه الشهوه بوجودها له.و کذلک المرض یعرفه العامی الصحیح و یؤمن به، و یعرفه الطبیب الصحیح بالبرهان و هو علم،و من لم یصر مریضا لم یحصل له الذوق.

فکذلک القول فی الفناء فی التوحید؛فالذوق مشاهده،و العلم قیاس،و الإیمان قبول بحسن الظن مع الانفکاک عن التهمه.فاجتهد ان تصیر من أهل المشاهده،فلیس الخبر کالمعاینه.

فإن قلت:لقد عظّمت أمر الذکر فهل هو أفضل أم قراءه القرآن؟فاعلم أن قراءه القرآن أفضل للخلق کلّهم إلا للذاهب إلی اللّه عز و جل؛و هو أفضل للذاهب إلی اللّه فی جمیع أحوال بدایته،و فی بعض أحواله فی نهایته؛فإن القرآن هو المشتمل علی صنوف المعارف و الأحوال و الإرشاد إلی الطریق،فما دام العبد مفتقرا إلی تهذیب الأخلاق و تحصیل المعارف،فالقرآن أولی به،فإن جاوز ذلک و استولی الذکر علی قلبه بحیث یرتجی له أن یفضی به ذلک إلی الاستغراق،فمداومه الذکر أولی به،فإن القرآن یجاذب خاطره،و یسرح به فی ریاض الجنه،و المرید الذاهب إلی اللّه تعالی،لا ینبغی أن یلتفت إلی الجنه و ریاضها،بل ینبغی أن یجعل همه همّا واحدا،و ذکره ذکرا واحدا، حتی یدرک درجه الفناء و الاستغراق،فلذلک قال اللّه عز و جل: وَ لَذِکْرُ اللّهِ أَکْبَرُ (۱) [العنکبوت:۴۵]،و کذلک من ینتهی إلی درجه الاستغراق و لا یدوم و لا یثبت علیه،فإذا ردّ الی نفسه فقد تنفعه تلاوه القرآن؛و هذه حاله نادره عزیزه،کالکبریت الأحمر، یتحدث به و لا یوجد.فتکون تلاوه القرآن أفضل مطلقا؛لأنه أفضل فی کل حال،إلا فی حال من شغله المتکلم عن الکلام،إذ لباب القرآن معرفه المتکلم بالقرآن،و معرفه جماله و الاستغراق به،و القرآن سائق إلیه و هاد نحوه،و من أشرف علی المقصد لم یلتفت الی الطریق.

فإن قلت:فأیّ الأذکار أفضل؟فاعلم أن الأفضل-کما ذکرناه-استیلاء المذکور علی القلب؛و هو شیء واحد لا کثره فیه،حتی یختار أفضله،و ذلک عین الجمع و التوحید،و إنما التفرقه و الکثره قبل ذلک،فذلک ما دمت فی مقام الذکر باللسان و القلب،و عند هذا قد ینقسم الذکر إلی الأفضل و غیر الأفضل،و فضله بحسب الصفات التی یعبّر عنها بالأذکار.

و الصفات و الأسماء الوارده فی حق اللّه سبحانه،تنقسم إلی ما هو حقیقه فی حق

۱- سوره ۲۹ - آیه ۴۵

العباد،و مؤوله فی حقه سبحانه،کالصبور و الشکور و الرحیم و المنتقم.و إلی ما هو حقیقه فی حقه سبحانه،و إذا استعمل فی حق غیره کان مجازا.

فمن أفضل الأذکار:«لا- إله إلاّ- اللّه الحیّ القیّوم»فإن فیه اسم اللّه الأعظم،إذ قال صلی اللّه علیه و سلم:«اسم اللّه الأعظم فی آیه الکرسی و أول آل عمران»و لا- یشترکان إلا فی هذا، و له سرّ یدقّ (۱)عن فهمک ذکره.و القدر الذی یمکن الرمز إلیه أن قولک:«لا إله إلا اللّه» یشعر بالتوحید،و معنی الوحدانیه فی الذات و الرّبّیه حقیقی فی حق اللّه عز و جل،غیر مؤوّل بل هو فی حق غیره مجاز و مؤوّل.و کذلک الحی فإن معنی الحی هو الذی یشعر بذاته و یعلم ذاته،و المیت هو الذی لا خبر له من ذاته،و هذا أیضا حقیقی للّه تعالی،غیر مؤوّل،و القیوم:یشعر بکونه قائما بذاته،و أن کل شیء قوامه به؛و هذا أیضا حقیقی للّه عز و جل غیر مؤوّل،و لا- یوجد لغیره.و ما عداها من الأسماء الداله علی الأفعال کالرحیم و المقسط و العدل و غیره،فهو دون ما یدل علی الصفات؛لأن مصادر الأفعال هی الصفات،و الصفات أصل،و الأفعال تبع.و ما عداها من الصفات التی تدل علی القدره و العلم و الإراده و الکلام و السمع و البصر،فذلک مما یظن أن الثابت منها للّه عز و جل مفهوم من ظواهرها.و هیهات،فإن المفهوم من ظواهرها أمور تناسب صفات الإنسان و کلامه و قدرته و علمه و سمعه و بصره،بل لها حقائق یستحیل ثبوتها للإنسان، فیستخرج من هذه الأسامی بنوع من التأویل.فهذا ینبهک علی ما یحتمله فهمک من اختصاص هذه الکلمات بکونها أعظم،و یقرب منه قولک:«سبحان اللّه و الحمد للّه،و لا إله إلا اللّه و اللّه أکبر»لأن«سبحان اللّه»للتقدیس،و هو حقیقی فی حقه؛فإن القدس الحقیقی لا یتصور إلاّ له تعالی.و قولک:«الحمد للّه»یشعر بإضافه النعم کلها إلیه،و هو حقیقی،إذ هو المنفرد بالأفعال کلها تفردا حقیقیا بلا تأویل،و هو-تبارک و تعالی- المستوجب الحمد وحده،إذ لا شرکه لأحد معه فی فعله أصلا،کما لا شرکه للقلم مع الکاتب فی استحقاق المحمده عند حسن الحظّ.

و اعلم أن کل من سواه ممن تری منه نعمه،فهو تعالی مسخر له کالقلم،فهذا مثال ینبهک علی تفرده باستحقاق الحمد.و قولک:«لا إله إلا اللّه»،فقد عرفت أنهی.

۱- یدق:یغمض،یخفی.

التوحيد الحقيقى.و قولك:«اللّه أكبر»،فليس المعنى به أنه أكبر من غيره،إذ ليس معه- سبحانه-غيره حتى يقال أكبر منه،بل كل ما سواه فهو نور من أنوار قدرته.و ليس لنور الشمس مع الشمس رتبه المعيّه،حتى يقال إنها أكبر منه؛بل رتبه التبعيه؛بل معناه أنه- عز و جل-أكبر من أن ينال بالحواس،أو يدرك جلاله بالعقل و القياس،بل أكبر من أن بدرك كنه جلاله غيره،بل أكبر من أن يعرفه غيره،فإنه لا يعرف اللّه-تبارك و تعالى-إلا اللّه،فإن منتهى معرفه عباده،أن يعرفوا أنه يستحيل منهم معرفته الحقيقه.و لا يعرف ذلك أيضا بكماله إلا نبى أو صدّيق،أما النبىّ،فيعبر عنه و يقول:«لا أحصى ثناء عليك،أنت كما أثنيت على نفسك»،و أما الصّديق فيقول:«العجز عن درك الإدراك إدراك».

فإن تشوّقت إلى زياده تحقيق فى هذا المعنى و استنكرت قولى:«لا يعرف اللّه إلا اللّه»فاطلب معرفه حقيقته بالبرهان من كتاب المقصد الأقصى فى معانى أسماء اللّه الحسنى،و يكفيك الآن هذا القدر من الرموز إلى أسرار الذكر،و فضل الأذكار منها.

الأصل السابع فى طلب الحلال:

اشاره

قال اللّه سبحانه و تعالى: كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً (۱) [المؤمنون:

۵۱].و الحرام خبيث و ليس بطيب،فقد قرن-عز و جل-أكل الطيبات بالعبادات، و قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:«طلب الحلال فريضه على كل مسلم بعد الفريضه»،أى بعد فريضه الإيمان و الصلاه.و قال صلى اللّه عليه و سلم:«من أكل الحلال أربعين يوما نوّر اللّه قلبه،و أجرى ينابيع الحكمه من قلبه على لسانه»،و فى روايه أخرى:«زهّده اللّه فى الدنيا».

و قال صلى اللّه عليه و سلم:«إن للّه ملكا على بيت المقدس،ينادى كل ليله:من أكل حراما لم يقبل منه صرف و لا عدل»؛فالصّرف النافله و العدل الفريضه.و قال صلى اللّه عليه و سلم:«من اشترى ثوبا بعشره دراهم،و فى ثمنه درهم حرام،لم يقبل اللّه صلاته ما دام عليه منه شىء».و قال عبد اللّه بن عمر-رضى اللّه عنه-:«لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا،و صمتم حتى تكونوا كالأوتار،لم يقبل اللّه ذلك منكم إلا بورع حاجز»و قيل:العباده مع أكل الحرام كالبنيان على السّرقين (۲).

۱- سوره ۲۳ - آيه ۵۱

۲- السرقين:بكسر السين و فتحها الزبل و الكلمه فارسيه.

فصل

اعلم أن طيب المطعم له خاصيه عظيمه فی تصفيه القلب

و تنويره و تأكيد استعداده لقبول أنوار المعرفه،و فيه سر لا يحتمل هذا الكتاب ذكره؛و لكن ينبغی أن تفهم أن درجات الورع أربع:

الدرجه الأولی:هی التی يجبّ (۱)الفسق باقتحامها،و تزول العداله بزوالها، و هی التی يحرمها فتوی الفقهاء.

الثانيه:ورع الصالحين؛و هو الحذر عما يتطرق إليه احتمال التحريم،و إن أفتی المفتی بحله بناء علی الظاهر،و هو الذی قال فيه رسول اللّه صلی اللّه عليه و سلم:«دع ما يريبك إلی ما لا يريبك».

الثالثه:ورع اليقين؛قال النبی صلی اللّه عليه و سلم:«لا يبلغ العبد درجه المتّقين حتی يترك ما لا بأس به حذارا و مخافه مما به بأس».و قال عمر-رضی اللّه عنه-:«كنا ندع تسعه أعشار الحلال مخافه الوقوع فی الحرام».و من هذا الأصل كان بعضهم إذا استحق مائه درهم اقتصر علی تسعه و تسعين،و يترك الواحد حاجزا بينه و بين النار لخوف الزياده،و كان بعضهم يأخذ ما يأخذ بنقصان حبه،و يعطی ما يعطی بزياده حبه؛و لذلك أخذ عمر بن عبد العزيز-رحمه اللّه عليه-أنفه حذرا من ريح المسك لبيت المال كان يوزن بين يديه،و قال:«هل ينتفع إلا بريحه؟»،و من ذلك أن يتورع عن الزينه و أكل الشهوات، خيفه من أن تغلب النفس فتدعوه إلی الشهوات المحظوره.و من ذلك ترك النظر إلی تجمل أهل الدنيا،فإنه يحرك دواعی الرغبه فی الدنيا؛و لذلك قال اللّه تعالی: وَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلی ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا (۲) [طه:۱۳۱].و لذلك قال عيسی ابن مريم-عليه السلام-:«لا تنظروا إلی أموال أهل الدنيا،فإن بريق أموالهم يذهب بحلاوه إيمانكم».و لذلك قال السلف:«من رقّ ثوبه رق دينه».فالحلال الطلق الطيب كل حلال انفكّ عن مثل هذه المخافه و لم يوجد فيها.

الرابعه:ورع الصدّيقين،و هو الحذر عن كل ما لا يراد بتناوله القوه علی طاعه اللّه تعالی إذا كان قد يتطرق إلی بعض أسبابها معصيه.فمن ذلك ما حكی أن ذا النون

۱- يجبّ:يقطع.

۲- سوره ۲۰ - آيه ۱۳۱

المصرى كان محبوسا جائعا،فبعثت إليه امرأه صالحه من طيّب مالها طعاما على يد السجان،فلم يأكل منه و اعتذر أنه جاءنى على طبق ظالم أى يد السجّان.و من ذلك أن بشر الحافى كان لا يشرب الماء من الأنهار التى حفرها السلاطين.و أطفأ بعضهم سراجا أشعله غلامه من بيت ظالم.و شرب بعضهم دواء فأشارت إليه امرأته بالمشى و التردد، فقال:هذه مشيه لا أعرف لها وجها،و أنا أحاسب نفسى على جميع حركاتى.و هذه رتبه أقوام وفوا بقوله تعالى: قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (۱) [الأنعام:۹۱]،فعدّوا كل ما لم يكن للّه تعالى حراما.و ليس هذا من عشّك (۲)و عش ناصحك،فادرج و اجتهد أن تفىء بورع العدول الذى تفتى به الفقهاء.

نعم ينبغى أن تضيف إليه شيئين:أحدهما أن تحذر عن مواقع غرورهم،و لا تلتفت إلى قولهم:«من وهب فى آخر السنه ماله زوجته،و استوهب منها مالها،سقطت الزكاه عنهما».فإنهم إن عنوا به أن السلطان لا يطالبهم بالزكاه،لأن مطمح نظره ظاهر الملك فهو صدق؛و درجه الفقهاء و فتواهم ذكر ما يتعلق بالظواهر فيحكمون بالبراءه عن الزكاه إذا سقط طلب الساعى،و يحكمون بصحه الصلاه إذا امتنع القتل على السلطان بجريان صوره الصلاه (۳)؛إذ ليس بأيديهم من القوانين إلا القانون الذى يستعمله السلطان فى السياسه لينتظم أمر المعيشه الدنيويه التى هى منزل من منازل الطريق كما سبق.

و أما أنت،إذا كنت تنظر فيما ينفعك غدا عند جبّار الجبابره،و سلطان السلاطين، فلا تلتفت إلى هذا،و اعلم أن مقصود الزكاه إزاله رذيله البخل فإنه مهلك كما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:«ثلاث مهلكات:شحّ مطاع،و هوى متّبع،و إعجاب المرء بنفسه».و هبه مال الزكاه لأجل درء الزّكاه،تجعل الشحّ مطاعا،فإنه يصير مطاعا بإجابته إلى ما يقتضيه.

و قبل هذا لم يكن مطاعا،فكيف يكون ذلك منجيا؟ و كذلك من يسىء معاشره زوجته حتى تنفكّ له من المهر،فلا يحل له المهر بينهه.

۱- سوره ۶ - آيه ۹۱

۲- العش:المطلب.

۳- العباره التى أولها«فإنهم ان عنوا الخ..صوره الصلاه»وردت هكذا فى النسخه التى بين أيدينا، و هى عباره-كما ترى-مهزوزه.

و بين اللّه-عز و جل-و إن كان الفقيه يفتى بسقوط المهر و صحه الإبراء؛لأن اللّه تعالى قال:«فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا»؛و ليس هذا طيبه النفس بل طيبه القلب.و الفقيه لا يميز بين الأمرين،لأن شغفه بقطع الخصومات الظاهره لا غير.

و الحجامه و شرب الدواء البشيع لا تطيب به النفس بل يطيب به القلب،و كذلك كلّ ما يأباه الطبع و يريده العقل لمصلحه البدن فى العاقبه.و هذا باب طويل،و أصله أن لا تستحلّ مال غيرك إلا برضاء مطلق صاف.

و ينبغى أن لا تأكل من السؤال،فإن سألت فاحذر أن تسأل على الملأ؛فربما يعطى بالحياء،و ذلك ليس مقرونا بالرضاء،فإن المستحى يؤثر ألم إزاله الملك على ألم الحياء.و لا فرق بين أن تأخذ ماله بضرب ظاهره بالسوط،و بين أن تأخذه بضرب باطنه بسوط الحياء،فالكل مصادره.و احذر أيضا أن يعطيك بالدّين،و ذلك بأن يعطيك لظنه أنك ورع تقىّ فتأكل بالدين؛و يكون من شرط حلّه،أن لا يكون فى باطنك ما لو اطلع عليه المعطى لامتنع من الإعطاء؛فلا فرق بين من يأخذ بالتصوّف و التقوى،و ليس هو متصفا به باطنا،و بين من يزعم أنه علوى ليعطى و هو كاذب.و كل ذلك حرام عند ذوى البصائر و إن أفتى الفقيه بالحل بناء على الظاهر.

الفن الثانى:أن تراجع قلبك،و إن أفتوك،فإن الإثم حزّاز القلوب،فالذى يضرك ما حاك فى قلبك،و لذلك قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:«استفت قلبك و إن أفتوك و أفتوك».و هذا السر طويل ذكره،و لكن اعلم على الجمله أن المحذور من الحرام إظلام القلب، و المطلوب من الحلال تنويره،و ذلك يتشعب من اعتقادك لا من نفس المعتقد.

فمن وطئ امرأه على أنها أجنبيه،فإذا هى منكوحته حصل إظلام القلب،و لو وطئ أجنبيه على ظن أنها زوجته لم يحصل.و كذلك فى النجاسات و الطهارات المؤثّره فى تنوير القلب وهمك و اعتقادك؛فما أمرت بأن تصلى و ثوبك طاهر،بل أن تصلى و أنت تعتقد أنه طاهر.فاستشعار الطهاره مؤثّر فى إشراق القلب،و إن لم يكن على وفق الحال؛و لذلك نقول:إن من صلى ثم تذكر أنه كان معه نجاسه،فليس عليه الإعاده على الأصح؛لأنه صلى اللّه عليه و سلم خلع نعليه فى أثناء صلاته لما أخبره جبريل-عليه السلام-بأن عليهما قذرا،و استمر فيها.و لذلك يشدد الأمر على الموسوس،فإنه ما لم يطمئن قلبه

باعتقاده الطهاره،فيجب عليه الاستقصاء و المعاوده،و أولئك قوم شددوا على أنفسهم فشدد اللّه عليهم،فهلكوا باستقصائهم كما قال عليه السلام:«هلك المتنطّعون» (۱).

فكذلك فى الحلال،أنت متعبد بما يطمئن إليه قلبك،لا بما يفتى به المفتى،فاستفت قلبك.

فصل

إياك أن تشدد على نفسك فتقول:أموال الدنيا كلها حرام

،و قد أخبثتها الأيدى العاديه (۲)،و المعاملات الفاسده،فأقنع بالحشيش مترهبا،أو أتناول من الجميع متوسعا،لا أفصل فيه بين حلال و حرام.بل اعلم قطعا،أن الحلال بيّن (۳)و الحرام بيّن، و بينهما أمور متشابهات.

كذلك كان فى عصر رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و كذلك يكون أبد الدهر.فاستمد من السر الذى ذكرناه،فإنك غير متعبّد بما هو فى نفسه حلال،بل بما هو فى اعتقادك حلال،لا تعرف سببا ظاهرا فى تحريمه؛فقد توضأ رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم من مزاده (۴)مشرك،و توضأ عمر-رضى اللّه عنه-من جره نصرانيه.و لو عطشوا لشربوا منه؛و شرب الماء النجس حرام،و لكن استصحبوا يقين الطهاره،و لم يتركوها لتوهم النجاسه.

و كذلك كل مال صادفته فى يد رجل مجهول عندك حاله،فلك أن تشترى منه و تأكل من ضيافته،تحسينا للظن بالمسلم؛فإن الأصل أن ما فى يده فهو حلال،و ما تصادفه فى يد رجل عرفته بالصلاح فهو أولى بأن تعتقده حلالا.نعم يجب الحذر مما تصادفه فى يد سلطان ظالم،أو رجل عرفته بالرّبا أو بيع الخمر.فيجب الحذر منه حتى تسأل و تستقصى،و تعرف من أين حصل له.فإن ظهر لك جهه حصوله و أنه حلال،فلك أخذه،و إلا فلا.فالاعتماد على العلامه الظاهره،و هى قرينه حاله.و هذا إذا كان أكثر أمواله كذلك،فإن كان أكثرها حلالا فلك أن تأكل منه؛و إن تركته فذلك ورع؛فقد

۱- المتنطعون:المتحذقون الذين يتشدقون فى كلامهم.

۲- العاديه:الظالمه.

۳- بين:ظاهر.

۴- مزاده:ما يوضع فيه الزاد.

كتب بعض و كلاء ابن المبارك من البصره إليه يسأله عن معامله رجل يعامل السلطان، فقال:«إن كان لا يعامل غير السلطان فلا تعامله،و إن كان يعامل غيره أيضا فعامله».

و بالجمله،الناس فى حقك سته أقسام:أحدهم أن يكون مجهولا،فكل من ماله و الحذر ليس بواجب،بل هو محض الورع.الثانى:أن تعرفه بالصلاح فكل منه و لا تتورّع،فالورع فيه وسوسه؛فإن أدى إلى الأذى و الإيحاش فهو معصيه و حرام،لما فيه من الإيذاء،و لما فيه من سوء الظن بالرجل الصالح.الثالث:أن تعرفه بالظلم و الربا حتى علمت أن كل ماله أو أكثره حرام كالسلاطين الظلمه و غيرهم،فمالهم حرام.

الرابع:أن تعرف أن أكثر أمواله حلال،و لكن لا يخلو من حرام،كرجل له تجاره و ميراث،و هو مع هذا فى عمل السلطان،فلك الأخذ بالأغلب،لكن الترك من الورع المهم.الخامس:أن يكون مجهولا عندك،لكن ترى عليه علامه الظلم،كالقباء و القلنسوه و هيئه الظلمه،فهذه علامه ظاهره توجب الحذر،فلا تأكل من ماله إلا بعد التفتيش.السادس:إن ترى عليه علامه الفسق لا علامه الظلم،كطول الشارب، و انقسام شعر الرأس قزعا (۱)،و رأيته يشتم غيره،أو ينظر إلى امرأه؛فإن علمت له مالا موروثا أو تجاره لم يحرّم ماله بذلك،و إن كان أمره مجهولا عندك فهذا فيه خطر،لأن علامه الفسق أضعف دلاله من علامه الظلم؛و لكن الأظهر عندى أنه لا يحرّم ماله لأن ظاهر اليد و الإسلام يدل على الملك دلاله أظهر من دلاله هذه العلامات على التحريم؛ و ليست هذه الدلاله أقوى من دلاله النصرانيه و المجوسيه على نجاسه الماء،و لم يلتفت إليهما رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم،و لا عمر- رضى اللّه عنه-.

أما علامه الظلم،فتضاهى (۲)ما إذا رأينا ظبيه تبول فى ماء،ثم وجدنا الماء متغيرا،فأمكن أن يكون من طول المكث،و أمكن أن يكون من البول،فإنه يجب اجتنابه إحاله على السبب الظاهر.ثم وراء ذلك كله،عليه أن يستفتى قلبه،فإذا وجد فى قلبه حزازه (۳)فليجتنبه،فالإثم حزازه القلوب و حكاكات الصدور.و لكن هاهنا دقيقه (۴)ه.

۱- قزعا:جمع قزعه،و هى القطعه أو الخصله من الشعر.

۲- تضاهى:تشبه.

۳- حزازه:بغض.

۴- يريد ناحيه دقيقه.

يغفل عنها أهل الورع،و هى أنه حيث يكون الترك من الورع أو من حزازه فى النفس، فلا يجوز الترك و السؤال بحيث يؤذى؛فالمجهول إذا قدم إليك طعاما،فإن سألته من أين؟استوحش و تأذّى؛و الايذاء حرام،و سوء الظن حرام.و إن سألته عن غيره بحيث يدرى زاد الإيذاء.و إن سألت بحيث لا يدرى فقد تجسست و أسأت الظن،و بعض الظن إثم،و تساهلت بالغيبه و التهمه،و كل ذلك حرام.و ترك الورع ليس بحرام،فليس لك إلا التلطف بالترك،فإن لم يكن إلا بإيذاء،فعليك أن تأكل،فإن طيبه قلب المسلم و صيانته عن الإيذاء أهم من الورع.فإياك أن تكون من القرّاء المغرورين الذين لا يدركون دقائق الورع.

و اعلم أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أكل من صدقه بريره و لم يسأل عن المتصدق.و كان رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم تحمل إليه الهدايا فيقبل و لا يسأل.نعم سأل فى أول قدومه إلى المدينه عما حمل إليه هل هو صدقه أو هديه؟لأن ذلك ليس فيه إيذاء،و لأن قرينه الحال كانت تقتضى الإمكان فى الصدقه و الهديه على وتيره واحده.و كان صلى اللّه عليه و سلم يدعى إلى الضيافات فيجيب و لا يسأل و لم ينقل السؤال إلا نادرا فى محل الريبه.فإن قلت:فإن وقع طعام حرام فى سوق فهل يشترى من ذلك السوق؟فأقول:إن تحققت أن الحرام هو الأكثر فلا تشتر إلا بعد التفتيش،و إن علمت أن الحرام كثير و ليس بالأكثر فلك الشراء.و التفتيش من الورع؛ و لقد كان رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و أصحابه-رضوان اللّه تعالى عليهم أجمعين-يشترون فى أسفارهم من الأسواق،مع علمهم بأن فيها أهل الربا و الغصب و أهل الغلول (۱)فى الغنيمه،و كانوا لا يتركون المعامله معهم.و هذا الباب يستدعى شرحا طويلا،فإن رغبت فيه فطالع كتاب الحلال و الحرام من كتب الإحياء لتشهد عند مطالعته بأنه لم يصنف فى فنه مثله فى التحقيق و التحصيل و الإحاطه بجميع التفاصيل.

الأصل الثامن فى القيام بحقوق المسلمين و حسن الصحبه معهم:

اشاره

و هو ركن من أركان الدين،إذ الدين معناه السفر إلى اللّه تعالى.و من أركان السفر

۱- الغلول:الغش.

حسن الصحبه فی منازل السفر مع المسافرین.و الخلق کلهم سفر،یسیر بهم العمر سیر السفینه برکّابها.و اعلم أن الانسان فی الدنیا إما أن یکون وحده،أو یکون مع خواصه من أهل و ولد و قریب و جار،أو یکون مع عموم الخلق؛فهذه ثلاثه أحوال.و علیه حسن الصحبه،و أداء الحقوق فی جمیع هذه الأحوال:

الحاله الأولی:أن یکون وحده.و لیعلم أنه بنفسه عالم و أن باطنه یشتمل علی أصناف من الخلق مختلفی الطباع و الأخلاق،فإن لم یحسن صحبتهم و لم یقم بحقوقهم هلک.و أصناف جنود الباطن کثیره، وَ ما یَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّکَ إِلاّ هُوَ (۱) [المدثر:۳۱].

و قد استقصینا بعض ذلک فی کتاب عجائب القلب.

و نذکر الآن أمراء الجنود و رءوسها،فنقول:فیک شهوه تجذب بها إلی نفسک النافع،و غضب تدفع به عن نفسک الضار،و عقل تدبر به الأمور و ترعی به الرعیه.

فأنت،باعتبار غضبک کلب،و باعتبار شهوتک بهیمه،کالفرس مثلا،و باعتبار عقلک ملک.و أنت مأمور بالعدل بینهم،و القیام بحقوقهم،و الاستعانه بهم،لتقتنص بمعونتهم سعاده الأبد،فإن رضت (۲)الفرس و أدبت الکلب و سخرتهما للملک تیسر لک الظفر بما طلبت،و إن سخرت العقل فی استنباط الحیل لتحصیل ما یتقاضاه الکلب بغضبه و لجاجه (۳)،و الفرس بحرصه و جشعه أوفیت علی العطب،فضلا عن إدراک مقصود الطلب،فصرت منکوسا فاجرا ظالما؛لأن الظلم وضع الشیء فی غیر موضعه.و لو رأیت شخصا جعل فی طاعته ملک و کلب و خنزیر،فلم یزل یضطر الملک إلی أن یسجد للخنزیر و الکلب،فهل تراه ظالما مستوجبا اللعنه؟و لو کوشفت بحالک عند منامک أو عند فنائک عن نفسک-کما وصفناه فی الاستغراق باللّه-لرأیت کل من أطاع شهوته و غضبه،ساجدا لکلب و خنزیر،إذ لم یکن الکلب کلبا لصورته بل لمعناه.و کذلک تری نفسک بعد الموت؛لأن المعانی فی عالم الآخره تستتبع الصور و لا تتبعها،فیتمثل کل شیء بصوره توازی معناه،فیحشر المتکبرون فی صغر الذر (۴)،یطؤهم من أقبل و أدبر.ل.

۱- سوره ۷۴ - آیه ۳۱

۲- من الریاضه یقال راض المهر إذا ذلّله.

۳- فی النسخه«لحاجه»بالحاء المهمله و هو تصحیف ظاهر.

۴- الذر:صغار النمل.

و المتواضعون أعزّاء،و أما هذا العالم،فعالم التلبيس (۱)،فقد يودع معنى الخنزير و الكلب فى صوره الإنسان،فلا تغتر به،فإن ذلك ينكشف يوم تبلى (۲)السرائر.فعليك أن تحسن صحبه رفقائك الثلاثه،فتكسر شره (۳)الشهوه بسطوه الغضب،و تقل من غلواء الغضب بخداع الشهوه،و تسلط أحدهما على الآخر؛فإن ذلك بليغ جدا فى تقويمهما، حتى ينقادا للعقل و الشرع،فيستعملهما العقل بحيث ينتفع بهما،كما يستعمل الصائد الفرس و الكلب عند الحاجه و يسكنهما عند الاستغناء،و شرح هذه الرياضه و الصيد طويل ذكرناه فى كتاب رياضه النفس.

الحاله الثانيه:صحبتك مع عموم الخلق.فأقل درجات حسن الصحبه كفّ الأذى عنهم؛قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:«المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده».و فوق ذلك أن تنفعهم و تحسن إليهم؛قال النبى صلى اللّه عليه و سلم:«الخلق كلهم عيال اللّه،و أحبهم إلى اللّه أنفعهم لعياله».و فوق ذلك أن تحتمل الأذى منهم و تحسن مع ذلك إليهم،و ذلك درجه الصّدّيقين؛قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم لعلىّ-رضى اللّه عنه-:«إن أردت تسبق الصّديقين فصل من قطعك،و أعط من حرمك و اعف عمن ظلمك».هذه جمله الأمر.

و تفصيل هذه الحقائق كثيره،و نقتصر من جملتها على عشرين وظيفه:

فمنها:أن لا تحبّ للناس إلا ما تحب لنفسك،قال عليه السلام:«من سرّه أن يزحزح عن النار،فليأته منيته و هو يشهد أن لا إله إلا اللّه،و أن محمدا رسول اللّه،و ليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه».

و منها:أن يتواضع لكل أحد و لا يفتخر عليه،فإن اللّه لا يحب كل مختال فخور، و إن تكبّر عليه غيره فليحتمل؛قال اللّه تعالى: خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ (۴) [الأعراف:۱۹۹].

و منها:أن يوقر المشايخ و يرحم الصبيان،قال عليه السلام:«ليس منّا من لم يرحم صغيرنا،و لم يوقّر كبيرنا»،و قال عليه السلام:«من إجلال اللّه تعالى إكرام ذيه.

۱- التلبيس:إخفاء الحقيقه.

۲- تبلى:تمتحن.

۳- الشّرّه(بكسر الشين المعجمه و فتح الراء مع تشديدها):الحده.

۴- سوره ۷ - آيه ۱۹۹

الشیبه المسلم»،و قال صلی اللّه علیه و سلم:«ما وقّر شابّ شیخ لسنّه إلّا قیّض اللّه له فی شیبته من یوقّره»؛ و هذا یبشره بطول الحیاه مع الأجر.

و منها:أن تکون مع کافه الخلق مستبشرا طلق الوجه؛و قال صلی اللّه علیه و سلم:«أ تدرون علی من حرّمت النار؟»قالوا:اللّه و رسوله أعلم؛قال:«علی الهین اللیّن السهل القریب»،و قال صلی اللّه علیه و سلم:«إن اللّه یحبّ السهل الطّلق».

و منها:إصلاح ذات البین بین المسلمین و لو بالمبالغه و الزیاده فی الکلام؛قال صلی اللّه علیه و سلم:«لیس بکذّاب من أصلح بین الاثنین فقال خیرا أو نما خیرا»،و قال صلی اللّه علیه و سلم:«ألا أخبرکم بأفضل من درجات القیام و الصلاه و الصدقه»؟قالوا:بلی یا رسول اللّه،قال:

«إصلاح ذات البین،و فساد ذات البین هی الحالقه».

و منها:أن لا تسمع بلاغات الناس بعضهم علی بعض،و لا یبلّغ بعضهم ما یسمع من بعض؛قال صلی اللّه علیه و سلم:«لا یدخل الجنه قتّات» (۱)؛و قیل:من نمّ إلیک نمّ علیک.

و منها:أن لا تزید فی الهجره عند الوحشه علی ثلاثه أیام؛قال صلی اللّه علیه و سلم:«لا یحل لمسلم أن یهجر أخاه فوق ثلاث»،و قال صلی اللّه علیه و سلم:«من أقال مسلما عثرته أقال اللّه تعالی عثرته یوم القیامه».

و منها:أن تحسن إلی کلّ أحد کان أهلا لذلک أو لم یکن؛قال صلی اللّه علیه و سلم:«اصنع المعروف إلی من هو أهله و إلی من لیس أهله،فإن لم یصب أهله فأنت من أهله».

و منها:أن تخالق (۲)کلّ صنف بأخلاقهم،و لا تلتمس من الجاهل و الغبی ما تلتمس من الورع العالم؛قال داود-علیه السلام-:«إلهی کیف لی أن یحبنی الناس و أسلم فیما بینی و بینک؟»فأوحی اللّه سبحانه إلیه:«خالق أهل الدنیا بأخلاق الدّنیا، و خالق أهل الآخره بأخلاق الآخره».

و منها:أن تنزل الناس منازلهم،فتزید فی إکرام ذی المنزله،و إن کانت منزلته فین.

۱- قتّات:نمام.

۲- تخالق:تعاشر،و الأغلب ان تکون معاشره بالخلق الحسن.

الدنيا،فإن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بسط رداءه لبعضهم،و قال:«إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه».

و منها:أن تستر عورات المسلمين؛قال صلى اللّه عليه و سلم:«لا يرى امرؤ من أخيه عوره فيسترها عليه إلا دخل الجنه»،و قال صلى اللّه عليه و سلم:«يا معشر من آمن بلسانه و لم يدخل الإيمان فى قلبه،لا تغتابوا المسلمين و لا تتبعوا عوراتهم،فإن من يتبع عوره أخيه المسلم يتبع اللّه عورته،و من يتبع اللّه عورته يفضحه و لو فى جوف بيته».

و منها:أن تتقى مواضع التهم،صيانه لقلوب الناس عن سوء الظن،و ألسنتهم عن الغيبه؛قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:«اتقوا مواضع التهم»؛و كلم رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم إحدى نسائه، فمرّ به رجل،فسلم عليه فلما مر دعاه،فقال:«يا فلان هذه زوجتى صفيه»،فقال:يا رسول اللّه من كنت أظن فيه فإنى لا أظنّ فيك،فقال:«إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم».

و منها:أن تسعى فى قضاء حوائج المسلمين و لو بشفاعه؛قال صلى اللّه عليه و سلم:«اشفعوا إلىّ تؤجروا،فإنى أريد الأمر فأؤخره كى تشفعوا إلىّ فتؤجروا»؛و قال صلى اللّه عليه و سلم:«من مشى فى حاجه أخيه ساعه من ليل أو نهار،قضاها أو لم يقضها،كان خيرا له من اعتكاف شهرين»؛و قال صلى اللّه عليه و سلم:«قيامك مع أخيك ساعه،خير من اعتكافك سنه».

و منها:أن تبادر بالسلام على كل مسلم و تصافحه ليكون لك فضل البدايه؛قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:«إذا التقى المسلمان فتصافحا،قسمت بينهما سبعون رحمه،تسع و ستون لأحسنهما برّا».

و منها:أن ينصر أخاه فى غيبته فيردّ عن عرضه و ماله؛قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:«ما من أحد ينصر مسلما فى موضع يهتك فيه من عرضه و تستحلّ حرمته إلا نصره اللّه فى موطن يحب فيه نصرته،و ما من أحد يخذل مسلما فى موضع تهتك فيه حرمته إلا خذله اللّه فى موضع يحبّ فيه نصرته».

و منها:أن تدارى أهل الشر لتسلم منهم؛قالت عائشه-رضى اللّه عنها-:استأذن رجل على رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم،فقال:«ايذنوا له فبئس رجل العشيره»؛فلما دخل ألان له القول حتى ظننت أن له عنده منزله؛فلما خرج راجعته فى ذلك فقال:«يا عائشه إن شرّ

الناس منزله عند اللّه يوم القيامه من يكرمه الناس اتقاء فحشه»؛و قال صلى اللّه عليه و سلم:«ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقه»؛و قال صلى اللّه عليه و سلم:«خالطوا الناس بأعمالهم،و زايلوهم (۱)بالقلوب».

و منها:أن تحذر مجالسه الأغنياء،و تكثر مجالسه المساكين؛قال صلى اللّه عليه و سلم:«إياكم و مجالسه الموتى»،قيل:و من هم؟قال:«الأغنياء»؛و قال صلى اللّه عليه و سلم:«اللهم أحينى مسكينا، و أمتنى مسكينا،و احشرنى فى زمره المساكين».و كان سليمان-عليه السلام-إذا رأى فى المسجد مسكينا جلس إليه و قال:«مسكين جالس مسكينا»و قال موسى-عليه السلام-:

«إلهى أين أطلبك؟قال:عند المنكسره قلوبهم من أجلى».

و منها:أن لا يجالس إلا من يفيده فى الدين فائده،أو من يستفيد منه،فأما أهل الغفله (۲)فيتحذر منهم؛قال صلى اللّه عليه و سلم:«الوحده خير من الجليس السوء،و الجليس الصالح خير من الوحده».فإذا أكثر من مجالسه أهل الغفله فينتقص من دينه بكل جلسه شىء، فليقدر أن كل واحد منهم لو كان يأخذ منه فى كل جلسه سلكا من ثوبه،أو شعره من شعر لحيته،أ ما كان يحذره خيفه أن يصير على القرب أمرد عاريا؟فالحذر لأجل الدين أولى.

و منها:أن يعود مرضاهم،و يشيّع جنائزهم و يزور قبورهم،و يدعو لهم فى الغيبه،و يشمّت (۳)العاطس،و ينصف الناس من نفسه،و ينصح إذا استنصح،إلى غير ذاك من حقوق كثرت فيها الأخبار،آثرنا فيها الاختصار،و جملتها:أن تعمل فى حقهم، ما تحب أن يعمل فى حقك من إحسان و اهتمام و كفّ أذى.

الحاله الثالثه:الصحبه مع من يدلى-سوى عموم الإسلام-بخاصيه،كجوار أو قرابه أو ملك،قال صلى اللّه عليه و سلم:«إذا رميت كلب جارك فقد آذيته».و قال صلى اللّه عليه و سلم:«أول خصمين يوم القيامه جاران»،و قيل له صلى اللّه عليه و سلم:«إن فلانه تصوم النهار و تصلى الليل و تؤذى الجيران فقال:«هى فى النار».و قال صلى اللّه عليه و سلم:«أ تدرون ما حقّ الجار؟إن استعان أعنته،و إن استقرضك أقرضته،و إن افتقر جدت عليه،و إن مرض عدته،و إن مات اتبعت جنازته، و إن أصابه خير هنأته،و إن أصابته مصيبه عزّيته،و لا تستطيل عليه بالبناء فتحجب عنه».

۱- زايلوهم:فارقوهم.

۲- أهل الغفله:الذين لا يرجى خيرهم و لا يخشى شرهم.

۳- يشمت العاطس:يدعو له بقوله:«يرحمك اللّه».

الریح إلا بإذنه،و إذا اشتریت فاکهه فأهد له،و إن لم تفعل فأدخلها سرّا،و لا یخرج بها ولدک لیغیظ بها ولده و لا تؤذه بقتار قدرک إلا أن تغرف له منها،أ تدرون ما حقّ الجار؟ و الذی نفسی بیده لا یبلغ حقّ الجار إلا من رحمه اللّه».(۱)

و أما القرابه،فقد قال صلی اللّه علیه و سلم:قال اللّه تبارک و تعالی:«أنا الرحمن،و هذه الرّحم شققت لها اسما من اسمی،فمن وصلها وصلته،و من قطعها بتّته» (۲)و قال صلی اللّه علیه و سلم:«صله الرحم تزید فی العمر»و قال صلی اللّه علیه و سلم:«توجد رائحه الجنه علی مسیره خمسمائه عام و لا یجد ریحها عاقّ و لا قاطع رحم»،و قال صلی اللّه علیه و سلم:«برّ الوالدین أفضل من الصلاه و الصیام و الحج و العمره و الجهاد فی سبیل اللّه عز و جل»،و قال صلی اللّه علیه و سلم:«بر الوالده علی الولد ضعفان»، و قال صلی اللّه علیه و سلم:«ساووا بین أولادکم بالعطیه».

أما المملوک،فقد قال فیهم صلی اللّه علیه و سلم:«اتقوا اللّه فیما ملکت أیمانکم،أطعموهم مما تأکلون،و اکسوهم مما تلبسون،و لا تکلّفوهم من العمل ما لا یطیقون،فإن اللّه ملّککم إیاهم،و لو شاء لملّکهم إیاکم»،قال صلی اللّه علیه و سلم:«إذا کفی أحدکم مملوکه طعاما فکفاه حره و علاجه،و قرّبه إلیه،فلیجلسه فلیأکل معه،أو لیأخذ لقمه فلیروّغها (۳)،و لیضعها فی یده،و لیقل کل هذه».و سئل صلی اللّه علیه و سلم:کم نعفو عن المملوک فی الیوم و اللیله؟قال:«سبعین مره».فجمله حق المملوک أن یشرکه فی طعمته و کسوته،و لا یکلفه فوق طاقته،و یعفو عن زلته،و لا ینظر إلیه بعین الکبر و الازدراء،و یعلّمه مهمات دینه.

و أما حقوق المنکوحه،فتزید علی هذا،إذ یجب لها مع القیام بواجباتها حسن العشره و المطایبه،قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم:«خیرکم خیرکم لأهله،و أنا خیرکم لأهلی».و کان صلی اللّه علیه و سلم من أفکه الناس مع نسائه،و الأخبار فی ذلک أکثر من أن تحصی.

فصل

من أصول الدین فی أمر الصحبه اتخاذ الإخوان فی اللّه عز و جل

،قال اللّه تعالی

۱- القتار:رائحه المطبوخ أو هو دخانه.

۲- بتته:قطعته.

۳- یقلبها فی الدسم و المرق حتی تمتلئ منه.

لبعض أنبيائه:«أما زهدك فى الدنيا فقد استعجلت الراحه،و أما انقطاعك إلىّ فقد تعززت بى،فهل واليت فىّ وليا،و هل عاديت فىّ عدوّا؟».و قال صلى اللّه عليه و سلم:يقول اللّه يوم القيامه:«أين المتحابون لجلالى،اليوم أظلهم فى ظلى و لا ظل إلا ظلى».و أوحى اللّه سبحانه إلى عيسى-عليه السلام-:«لو أنك عبدتنى بعباده أهل السّماوات و الأرض، و حب فى اللّه ليس (۱)،و بغض فى اللّه ليس،ما أغنى عنك ذلك شيئا».و قال صلى اللّه عليه و سلم:«إن حول العرش منابر من نور،عليها قوم لباسهم نور،و وجوههم نور،و ليسوا بأنبياء و لا شهداء،يغبطهم النبيون و الشهداء».فقالوا يا رسول اللّه حلّهم (۲)لنا من هم؟فقال:

«المتحابون فى اللّه،و المتجالسون فى اللّه،و المتزاورون فى اللّه عز و جل».

و اعلم أن كل حب لا يتصور دون الإيمان باللّه و اليوم الآخر،فهو حب فى اللّه، و لكنه على درجتين:إحداهما:أن تحبه لتنال منه فى الدنيا نصيبا يوصلك إلى الآخره، كحبك أستاذك و شيخك،بل تلميذك الذى ينمو علمك بتعليمه،بل خادمك الذى يفرغ قلبك عن كنس بيتك و غسل ثوبك،لتتفرغ بسببه لطاعه اللّه تعالى،بل المنفق عليك من ماله،إذا كان غرضك من ذلك إفراغ القلب لعباده اللّه تبارك و تعالى.الثانيه:و هى أعلى،أن تحبه لأنه محبوب عند اللّه عز و جل و يحب اللّه،و إن لم يتعلق غرض به لك فى الدنيا و الآخره،من علم أو معونه على دين أو غيره؛و هذا أكمل،لأن الحب إذا غلب تعدّى إلى كلّ من هو من المحبوب بسبب،حتى يحب الإنسان محب محبوبه،و محبوب محبوبه،بل يميز بين الكلب الذى هو فى سكه محبوبه،و بين سائر الكلاب.و إنما سرايه (۳)الحب بقدر غلبه الحب،و من أحب لقاء اللّه لم يمكنه أن لا يحبّ عباده الصالحين المرضيّين عنهم.إلا أن ذلك قد يقوى حتى يحمل على أن يسلك بهم مسلك نفسه،بل يؤثرهم على نفسه،و قد يقصّر عن ذلك،و فضلهم عنده ينقسم بقدر درجته و قوته.و كذلك يبغض لا محاله من يعصيه،و يخالف أمره،و يظهر أثر ذلك فى مجانبته و مهاجرته له،و تقطيبه الوجه عند مشاهدته،و لذلك قال صلى اللّه عليه و سلم:«لا تجعل لفاجر علىّ يدا فيحبه قلبى»حذرا من أن يقدح ذلك فى البغض فى اللّه.و بالجمله من لا يصادف منى.

۱- ليس:استعملت هنا بمعنى الاستثناء.

۲- حلهم:بيّنهم و اذكرهم.

۳- سرايه:مصدر سرى سريانا و سرايه أى دب و جرى.

نفسه الحب فی اللّه،و البغض فی اللّه بهذه الأسباب فهو ضعیف الإیمان،و هذا له تفصیل و تحقیق،فاطلبه من کتاب الصحبه و الأخوه فی اللّه تعالی.

الأصل التاسع فی الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر:

اشاره

قال اللّه تعالی: وَ لْتَکُنْ مِنْکُمْ أُمَّهٌ یَدْعُونَ إِلَی الْخَیْرِ وَ یَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ یَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْکَرِ وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱) [آل عمران:۱۰۴]الآیه.و قال تعالی:

وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ (۲) [التوبه:۷۱]الآیه.و قال تعالی:

کانُوا لا یَتَناهَوْنَ عَنْ مُنکَرٍ فَعَلُوهُ،لَبِئْسَ ما کانُوا یَفْعَلُونَ (۳) [المائده:۷۹].و قال أبو بکر الصدیق-رضی اللّه عنه-فی خطبته:«أیّها الناس إنکم تقرءون هذه الآیه و تتأوّلونها علی خلاف تأویلها: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا عَلَیْکُمْ أَنْفُسَکُمْ لا یَضُرُّکُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَیْتُمْ (۴) ،و إنی سمعت رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم یقول:«ما من قوم عملوا بالمعاصی و فیهم من یقدر أن ینکر علیهم فلم یفعل إلا أوشک أن یعمهم اللّه بعذاب من عنده».و قالت عائشه- رضی اللّه عنها-:قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم:«عذّب أهل قریه فیها ثمانیه عشر ألفا،أعمالهم أعمال الأنبیاء».قالوا:یا رسول اللّه کیف ذلک؟قال:«لم یکونوا یغضبون للّه عز و جل، و لا یأمرون بالمعروف،و لا ینهون عن المنکر».

فصل

کل من شاهد منکرا و لم ینکره و سکت عنه،فهو شریک فیه

؛فالمستمع شریک المغتاب.و یجری هذا فی جمیع المعاصی،حتی فی مجالسه من یلبس الدیباج، و یتختم بالذهب،و یجلس علی الحریر،و الجلوس فی دار أو فی حمّام علی حیطانها صور أو فیها أوان من ذهب أو فضه،أو الجلوس فی مسجد یسیء الناس الصلاه فیه،فلا یتمون الرکوع و السجود و الجلوس،أو فی مجلس وعظ یجری فیه ذکر البدعه،أو فی مجلس مناظره أو مجادله یجری فیها الإیذاء و الإیحاش بالسّفه و الشتم.و بالجمله،من خالط الناس کثرت معاصیه،و إن کان تقیّا فی نفسه،إلا أن یترک المداهنه و لا تأخذه فی اللّه لومه لائم،و یشتغل بالحسبه (۵)و المنع.و إنما یسقط عنه الوجوب بأمرین:أحدهما:

۱- سوره ۳ - آیه ۱۰۴

۲- سوره ۹ - آیه ۷۱

۳- سوره ۵ - آیه ۷۹

۴- سوره ۵ - آیه ۱۰۵

۵- الحسبه:منصب کان یتولاه فی الدول الإسلامیه رئیس یشرف علی الشئون العامه،من مراقبه الأسعار و رعایه الآداب.و

المقصود هنا الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

أن يعلم أنه إن أنكر لم يلتفت إليه و لم يترك المنكر و نظر إليه بعين الاستهزاء،و هذا هو الغالب فی منكرات ترتكبها الفقهاء؛و من يزعم أنه من أهل الدين فههنا يجوز السكوت، و لكن يستحب الزجر باللسان،إظهارا لشعار الدين،مهما لم يقدر على غير الزجر باللسان،و يجب ان يفارق ذلك الموضع،فليس يجوز مشاهده المعصيه بالاختيار؛ فمن جلس فی مجلس الشرب فهو فاسق و إن لم يشرب،و من جالس مغتابا أو لابس حرير أو آكل ربا أو حرام،فهو فاسق فليقم من موضعه.

و الثانی:أن يعلم أنه يقدر على المنع من المنكر بأن يرى زجاجه فيها خمر فيرميها فتكسر،أو يسلب آله الملاهی من يده و يضربها على الأرض.و لكن يعلم أنه يضرب أو يصاب بمكروه،فههنا يستحب الحسبه لقوله تعالى: وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ (۱) [لقمان:۱۷]و لا يجب إلا أن يكون المكروه الذی يصيبه له درجات كثيره يطول النظر فيها،ذكرناها فی كتاب الأمر بالمعروف من الإحياء.و على الجمله،فلا يسقط الوجوب إلا بمكروه فی بدنه بالضرب،أو فی ماله بالاستهلاك،أو فی جاهه بالاستخفاف به بوجه يقدح فی مروءته.فأما الخوف من استيحاش المنكر عليه،و خوف تعرضه له باللسان و عداوته له،أو توهم سعيه له فی المستقبل بما يسوؤه أو يحول بينه و بين زياده خير يتوقعها،فكلّ ذلك موهومات و أمور ضعيفه لا يسقط الوجوب بها.

فصل

عمده الحسبه شيئان:

أحدهما:الرفق و اللطف و البدايه بالوعظ على سبيل اللين لا على سبيل العنف، و الترفع و الإذلال بدالّه الصلاح،فإن ذلك يؤكد داعيه المعصيه،و يحمل العاصی على المناكره و على الإيذاء.ثم إذا أذاه و لم يكن حسن الخلق غضب لنفسه،و ترك الإنكار للّه تعالى،و اشتغل بشفاء غليله منه،فيصير عاصيا،بل ينبغی أن يكون كارها للحسبه،يودّ لو ترك المعصيه بقول غيره،فإنه إذا أحب أن يكون هو المتعرض،كان ذلك لما فی نفسه من داله الاحتساب و عزته.و قال عليه السلام:«لا يأمر بالمعروف و لا ينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به،رفيق فيما ينهى عنه،حليم فيما يأمر به،حليم فيما ينهى عنه،فقيه فيما يأمر به،فقيه فيما ينهى عنه».و وعظ المأمون-رحمه اللّه عليه-واعظ

۱- سوره ۳۱ - آيه ۱۷

بعنف فقال:«يا رجل ارفق فقد بعث اللّه تعالى من هو خير منك إلى من هو شرّ منى فأمره بالرفق.فقال اللّه تعالى: فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى (۱) [طه:۴۴]».

و روى أبو أمامه الباهلى-رضى اللّه عنه-أن غلاما شابّا أتى النبى صلى اللّه عليه و سلم،فقال:

أ تـأذن لى بالزنـا؟فصـاح النـاس بـه؛فقـال النـبى عليـه السـلام:«أقرّوه أقرّوه أدن منى»فـدنا منـه،فقـال عليـه السـلام:«أ تحبه لأمّك؟»فقـال:لا-جعلنى اللّه فـداك،قـال عليه السـلام:«كـذلك النـاس لا- يحبونه لأمهـاتهم»،ثم قـال:«أ تحبه لابنتـك؟»،قال:لا، قـال:«كـذلك النـاس لا- يحبونه لبناتهم»؛حتى ذكر له الأخت و العمه و الخاله و يقول عليه السـلام:«كـذلك الناس لا يحبونه»،ثم وضع يـده على صـدره و قـال:«اللهم طهر قلبه، و اغفر ذنبه،و حصّن فرجه»،فلم يكن بعـد ذلـك شـىء أبغض إليه من الزنـا.و قال بعضهم للفضيل:إن سفيان بن عيينه قبل جوائز السلطان،فقال:ما أخذ منهم إلا دون حقه.

ثم خلا به و عاتبه بالرفق.فقال:«يا أبا على،إن لم نكن من الصالحين فإنا نحب الصالحين».

العمـده الثانيه:أن يكون المحتسب قـد بدأ بنفسه فهذبها،و ترك ما ينهى عنه أولا، قال الحسن البصـرى:«إذا كنت تأمر بالمعروف فكن من آخذى الناس به و إلا هلكت» فهذا هو الأولى حتى ينفع كلامه و إلا اسـتهزئ به.و ليس هذا شـرطا،بل يجوز الاحتساب للعاصـى أيضـا؛قـال أنس:قلنـا يا رسول اللّه،ألا نأمر بالمعروف حتى نعمل به كله؟و لا ننهى عن المنكر حتى نجتنبه كله؟قال عليه السلام:«بلى مروا بالمعروف و إن لم تعملوا به كله،و انهوا عن المنكر و إن لم تجتنبوه كله».و قال الحسن البصرى:

يريـد أن لا يظفر الشـيطان منكم بهذه الخصـله،و هو أن لا تأمروا بالمعروف حتى تأتوا به كله،يعنى أن هذا يؤدى إلى حسم باب الحسبه.فمن ذا الذى يعصم عن المعاصى؟

الأصل العاشر فى اتّباع السنه:

اشاره

اعلـم أن مفتـاح السـعاده اتبـاع السـنه و الاقتـداء برسـول اللّه صـلى اللّه عليـه و سـلم فى جميـع مصـادره و مـوارده،و حركـاته و سكنـاته،حتى فى هيئه أكله و قيـامه و نومه و كلامه.لست أقول ذلـك فى آدابه فى العبـادات فقـط؛لأنـه لا- وجه لإهمال السـنن الوارده فيهـا،بـل ذلـك فى جميع أمور العادات.فبـذلك يحصل الاتباع المطلق؛قال اللّه سـبحانه: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللّهُ (۲) [آل عمران:۳۱].و قال تعالى: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما (۳)

۱- سوره ۲۰ - آیه ۴۴

۲- سوره ۳ - آیه ۳۱

۳- سوره ۵۹ - آیه ۷

نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (۱) [الحشر:۷].فعليك أن تلبس السراويل قاعدا،و تتعمم قائما، و تبتدئ باليمين فى تنعلك،و تأكل بيمينك،و تقلّم أظفارك و تبتدئ بمسبّحه (۲)اليد اليمنى و تختم بإبهامها،و فى الرجل تبتدئ بخنصر اليمنى و تختم بخنصر اليسرى، و كذلك فى جميع حركاتك و سكناتك؛فقد كان محمد بن أسلم لا يأكل البطيخ،لأنه لم ينقل إليه كيفيه أكل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم له،و سها بعضهم فابتدأ فى لبس الخف باليسرى، فكفّر عن ذلك بكرّ (۳)حنطه.فلا ينبغى أن تتساهل فى أمثال ذلك فتقول:هذا مما يتعلق بالعادات،فلا معنى للاتباع فيه؛لأن ذلك يغلق عليك بابا عظيما من أبواب السعاده.

[فصل السبب المرغّب فى الاتباع فى هذه الأفعال]

لعلك تشتهى الآن الوقوف على السبب المرغّب فى الاتباع فى هذه الأفعال، و تستبعد أن يكون تحت ذلك أمر مهم يقتضى هذا التشديد العظيم فى المخالفه.فاعلم أن ذكر السر فى آحاد تلك السّنن طويل لا يحتمل هذا الكتاب شرحه.لكن ينبغى أن تفهم أن ذلك ينحصر فى ثلاثه أنواع من الأسرار:

السرّ الأول:أنّا قد نبّهناك فى مواضع على العلاقه التى بين الملك و الملكوت، و بين الجوارح و القلب،و كيفيه تأثر القلب بعمل الجوارح،فإن القلب كالمرآه،و لا تتجلى فيه حقائق الأشياء إلا بتصقيله و تنويره و تعديله.أما تصقيله،فبإزاله خبث الشهوات و كدوره الأخلاق الذميمه.و أما تنويره فبأنوار الذكر و المعرفه،و يعين على ذلك العباده الخالصه إذا أدّيت على كمال الخدمه بمقتضى السّنّه.و أما تعديله،فبأن يجرى فى جميع حركات الجوارح على قانون العدل،إذ اليد لا تصل إلى القلب حتى تقصد بتعديله و تحدث فيه هيئه معتدله صحيحه لا اعوجاج فيها،و إنما التصرف فى القلب بواسطه تعديل الجوارح و تعديل حركاتها،و لهذا كانت الدنيا مزرعه الآخره.

و لهذا تعظم حسره من مات قبل التعديل،لانسداد طريق التعديل بالموت،إذ تنقطع علاقه القلب عن الجوارح؛فمهما كانت حركات الجوارح،بل حركات الخواطر أيضا موزونه بميزان العدل،حدث فى القلب هيئه عادله مستويه،تستعد لقبول الحقائق على

۱- سوره ۵۹ - آیه ۷

۲- المسبحه:السبّابه.

۳- الكرّ:نوع من المكاييل يساوى نحو أربعين اردبّا.

نعت الصحه و الاستقامه،كما تستعد المرآه المعتدله لمحاكاه الصور الصحيحه من غير اعوجاج.و معنى العدل:وضع الأشياء مواضعها،و مثاله أن الجهات مثلا أربعه،و قد خص منها جهه القبله بالتشريف؛فالعدل أن تستقبل فى أحوال الذكر و العباده و الوضوء، و أن تنحرف عنها عند قضاء الحاجه،و كشف العوره،إظهارا لفضل من ظهر فضله.

و لليمين زياده على اليسار-غالبا لفضل القوه-فالعدل أن تفضلها على اليسار، و تستعملها فى بعض الأعمال الشريفه،كأخذ المصاحف و الطعام،و تترك اليسار للاستنجاء و تناول القاذورات؛و تقليم الظفر مثلا،تطهيرا لليد،فهو إكرام.فينبغى أن تبتدئ بالأكرم و الأفضل؛و ربما لا يستقل عقلك بالتفطّن للترتيب فى ذلك و كيفيه البدايه،فاتبع فيه السنّه و ابتدئ بالمسبّحه من اليمنى؛لأن اليد أفضل من الرّجل، و اليمنى أفضل من اليسرى.و المسبّحه-التى بها الإشاره فى كلمه التوحيد-أفضل من سائر الأصابع.ثم بعد ذلك تدور من يمين المسبّحه.و للكفّ ظهر و وجه،فوجهه ما تقابله،فإذا جعلت الكفّ وجه اليد،كان يمين المسبّحه من جانب الوسطى،فقدّر اليدين متقابلتين بوجهيهما،و قدّر الأصابع كأنها أشخاص،فتدور بالمقراض من المسبّحه إلى أن تختم بإبهام اليمنى.كذلك فعل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم.

و الحكمه فى ذلك ما ذكرناه،فإذا أنت تعوّدت رعايه العدل فى دقائق الحركات، صارت العداله و الصحه هيئه راسخه فى قلبك،و استوت صورها،و بذلك تستعد لقبول صوره السعاده؛و لذلك قال اللّه تعالى: فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى (۱) [الحجر:

۲۹،ص:۷۲].فروح اللّه عزّ و جلّ مفتاح أبواب السعاده،و لم يكن نفخها إلا بعد التسويه.و معنى التسويه يرجع إلى التعديل؛و فى ذلك سر طويل يطول شرحه،و إنما نريد الرمز إلى أصله؛فإن كنت لا تقوى على فهم حقيقته،فالتجربه تنفعك.فانظر إلى من تعوّد الصدق كيف تصدق رؤياه غالبا؛لأن الصدق حصل فى قلبه هيئه صادقه، يتلقى لوائح الغيب فى النوم على الصحه.و انظر كيف تكذب رؤيا الكذاب،بل رؤيا الشاعر،لتعوّده التخيلات الكاذبه،فاعوجّ لذلك صوره قلبه.فإن كنت تريد أن تلمح جنات القدس،فاترك ظاهر الإثم و باطنه،و اترك الفواحش ما ظهر منها و ما بطن،و اترك الكذب حتى فى حديث النفس أيضا.

السرّ الثانى:أن تعلم أن الأشياء المؤثّره فى بدنك بعضها إنما يعقل تأثيرها بنوع من

۱- سوره ۱۵ - آيه ۲۹

المناسبه إلى الحراره و البروده و الرطوبه و اليبوسه،كقولك:إن العسل يضرّ المحرورين و ينفع البارد مزاجه.و منها ما لا يدرك بالقياس،و يعبّر عنه بالخواص،و تلك الخواص لم يوقف عليها بالقياس،بل مبدأ الوقوف عليها وحى أو إلهام؛فالمغناطيس يجذب الحديد،و السقمونيا (۱)تجذب خلط الصفراء من أعماق العروق،لا على القياس،بل بخاصيه وقف عليها إما بالإلهام أو بالتجربه.و أكثر الخواص عرفت بالإلهام،و أكثر التأثيرات فى الأدويه و غيرها من قبل الخواص.فلذلك،فاعلم أن تأثيرات الأعمال فى القلب،تنقسم إلى ما هو يفهم وجه مناسبته،كعلمك بأن اتباع الشهوه الدنيويه يؤكد علاقته مع هذا العالم،فيخرج من العالم منكوس الرأس موليا وجهه إلى هذا العالم إذ فيه محبوبه؛و كعلمك أن المداومه على ذكر اللّه تعالى تؤكد الأنس باللّه تعالى،و توجب الحب حتى تعظم اللذه به عند فراق الدنيا،و القدوم على اللّه سبحانه.إذ اللذه على قدر الحب،و الحب على قدر المعرفه و الذّكر.

و من الأعمال ما يؤثر فى الاستعداد لسعاده الآخره أو لشقاوتها بخاصيه ليست على القياس،لا يوقف عليها إلا بنور النبوه؛فإذا رأيت النبىّ صلى اللّه عليه و سلم قد عدل عن أحد المباحين إلى الآخر،و آثره عليه مع قدرته عليهما،فاعلم أنه اطلع بنور النبوه على خاصيه فيه، و كوشف به من عالم الملكوت،كما قال صلى اللّه عليه و سلم:«يا أيها الناس إن اللّه أمرنى أن أعلمكم مما علمنى،و أؤدبكم مما أدبنى،فلا يكثرنّ أحدكم الكلام عند المجامعه،فإنه يكون منه خرس الولد،و لا ينظرن أحدكم إلى فرج امرأته إذا هو جامعها،فإنه يكون منه العمى،و لا يقبلنّ أحدكم امرأته إذا هو جامعها فإنه يكون منه صمم الولد،و لا يديمنّ أحدكم النظر فى الماء فإنه يكون منه ذهاب العقل».و هذا مثال مما ذكرناه و أردنا تنبيهك على اطلاعه على خواص الأشياء،بالإضافه إلى أمور الدنيا لتقيس به اطلاعه صلى اللّه عليه و سلم على ما يؤثر بالخاصيه فى السعاده و الشقاوه فلا ترضى،فترضى لنفسك أن تصدق محمد بن زكريا الرازى المتطبب فيما يذكره من خواص الأشياء فى الحجامه و الأحجار و الأدويه، و لا تصدق سيد البشر محمد بن عبد اللّه الهاشمى المكّى المدنىّ-صلوات اللّه عليه و سلامه-فيما يخبر به عنها؛و أنت تعلم أنه صلى اللّه عليه و سلم مكاشف من العالم الأعلى بجميعد.

۱- السقمونيا:يبدو أنه تعبير طبى كان شائعا تلك الأيام،و قد استعمله ابن رشد.

الأسرار.و هذا ينبهك على الاتباع فيما لا يفهم وجه الحكمه فيه على ما ذكرناه فى السرّ الأول.

السر الثالث:أن سعاده الإنسان أن يتشبه بالملائكه فى النزوع عن الشهوات و كسر النفس الأمّاره بالسوء،و يبعد عن مشابهه البهيمه المهمله سدى،التى تسترسل فى اتباع الهوى بحسب ما يقتضيه طبعها من غير حاجز.و مهما تعوّد الإنسان فى جميع الأمور أن يفعل ما يشاء من غير حاجز،ألف اتباع مراده و هواه،و غلب على قلبه صفه البهيمه، فمصلحته أن يكون فى جميع حركاته ملجما يصدّه عن طريق إلى طريق؛كيلا تنسى نفسه العبوديه،و لزوم الصراط المستقيم،فيكون أثر العبوديه ظاهرا عليه فى كل حركه.

إذ لا- يفعل شيئا بحسب طبعه بل بحسب الأمر،فلا ينفك فى جميع أحواله عن مصادمات الزمان بإيثار بعض الأمور على بعض.و من ألقى زمامه إلى يد كلب مثلا- حتى لم يكن تصرفه و تردده بحكم طبعه بل بحكم غيره،فنفسه أقوم إلى قبول الرياضه الحقيقيه،و أقرب و أقوى ممن جعل زمامه فى يد هواه،يسترسل بها استرسال البهيمه.

و تحت هذا سرّ عظيم فى تزكيه النفس،و هذه فائده تحصل بوضع الشارع صلى اللّه عليه و سلم كيفما وضعه.و الفائده الحكميه و الخاصيه لا تتغير بالوضع،و هذا يتغير بالوضع،فإن المقصود أن لا يكون مخلّى مع اختياره،و ذلك المقصود يحصل بالمنع عن أحد الجانبين أىّ جانب كان،و فى مثل هذا يتصور أن تختلف الشرائع لأنه ثمره الوضع.

فيكفيك هذه التنبيهات الثلاث على فضل ملازمه الاتباع فى جميع الحركات و السكنات.

[فصل التحريض كله الذى ذكر إنما هو فى العادات]

هذا التحريض كله الذى ذكرته إنما هو فى العادات.و أما فى العبادات،فلا أعرف لترك السنه من غير عذر وجها إلا كفر خفىّ أو حمق جلىّ،بيانه أن النبى صلى اللّه عليه و سلم إذ قال:«تفضل صلاه الجماعه على صلاه الفذ (۱)بسبع و عشرين درجه».فكيف تسمح نفس المؤمنين بتركها من غير عذر؟نعم،يكون السبب فى ذلك إما حمق أو غفله بأن لا يتفكر فى هذا التفاوت العظيم.و من يستحمق غيره-إذا آثر واحدا على اثنين-كيف لا

۱- الفذ:الفرد.

يستحمق نفسه إذا آثر واحدا على سبع و عشرين!الا سيما فيما هو عماد الدين و مفتاح السعاده الأبديه.

و أما الكفر،فهو أن يخطر بباله أن هذا ليس كذلك،و إنما ذكره للترغيب فى الجماعه،و إلا فأىّ مناسبه بين الجماعه و بين هذا العدد المخصوص من بين سائر الأعداد؟و هذا كفر خفىّ قد ينطوى عليه الصدر،و صاحبه لا يشعر به،فما أعظم حماقه من يصدق المنجم و الطبيب فى أمور أبعد من ذلك،و لا يصدق النبى المكاشف بأسرار الملكوت!فإن المنجّم لو قال لك:إذا انقضى سبعه و عشرون يوما من أول تحويل طالعك،أصابتك نكبه فاحترز فى ذلك اليوم،و اجلس فى بيتك!فلا- تزال فى تلك المده تستشعر و تترك جميع أشغالك؛و لو سألت المنجم عن سببه لقال لك:إنما قلت ذلك لأن بين درجه الطالع و موضع زحل سبعا و عشرين درجه،فتتأخر النكبه فى كل درجه يوما أو شهرا،فإذا قيل لك هذا هوس،إذ لا مناسبه له فلا تصدقن به،فلا يخلو قلبك عن الاستشعار.

و تقول فى أفعال اللّه تعالى عجائب لا تعرف مناسبتها،و لعلها خواصّ لا تدرك؛ و قد عرف بالتجربه أن ذلك مما يؤثر،و إن لم تعرف مناسبته.ثم إذا آل الأمر إلى خبر النبوه عن الغيب،أنكرت مثل هذه الخواص و طلبت المناسبه الصريحه؛فهل لهذا سبب إلا شرك خفىّ،لا- بل كفر جلىّ؟إذ لا محمل له سواه.و سبب هذا التكاسل كله، أنك لا يهمك أمر آخرتك،فإن أمر دنياك لما كان يهمك،فتحتاط فيه بقول المنجم و الطبيب،و بالاختلاج (۱)و الفأل و الأمور البعيده عن المناسبه غايه البعد،و تنقاد إلى الاحتمالات البعيده؛لأن الشفيق بسوء الظن مولع،و لو تفكرت لعلمت أن هذا الاحتياط بالخطر الأبدى أليق.فإن قلت:ففى أى جنس من الأعمال ينبغى أن تتّبع السنّه؟فأقول:

فى كل ما وردت به السنّه؛و الأخبار فى ذلك كثيره،و ذلك لقوله صلى اللّه عليه و سلم:«من احتجم يوم السبت و الأربعاء فأصابه برص فلا يلومنّ إلا نفسه».و قد احتجم بعض المحدثين يوم السبت،و قال:هذا الحديث ضعيف،فبرص و عظم ذلك عليه،حتى رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى المنام فشكا إليه ذلك،فقال لم احتجمت يوم السبت؟فقال:لأن الراوى كانب.

۱- الاختلاج:التحرك و الاضطراب.

ضعيفا.قال:أ ليس كان قد نقل عنّى؟فقال:تبت يا رسول اللّه.فدعا له رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بالشفاء فأصبح و قد زال ما به.

و قال صلى اللّه عليه و سلم:«من احتجم يوم الثلاثاء لسبعه عشر كان دواء السّنه».

و قال صلى اللّه عليه و سلم:«من نام بعد العصر فاختلس عقله فلا يلومنّ إلا نفسه».

و قال صلى اللّه عليه و سلم:«إذا انقطع شسع نعل أحدكم فلا يمش فى نعل واحد حتى يصلح شسعه».

و قال صلى اللّه عليه و سلم:«و إذا ولدت امرأه فليكن أول ما تأكل الرطب،فإن لم يكن فتمر،فإنه لو كان شىء أفضل منه لأطعمه اللّه عزّ و جلّ مريم حين ولدت عيسى عليه السلام».

و قال صلى اللّه عليه و سلم:«إذا أتى أحدكم بالحلواء فليصب منه،و إذا أتى أحدكم بالطيب فليمسّ منه».و أمثال ذلك فى العادات كثيره،و لا يخلو شىء منها عن سرّ.

خاتمه فى ترتيب الأوراد و تنعطف على الأمور العشره:

اعلم أن هذه العبادات التى فصلناها،منها ما يمكن الجمع بينها،كالصوم و الصلاه و القراءه،و منها ما لا يمكن الجمع بينها،كالقراءه و الذكر و القيام بحقوق الناس و الصلاه (۱)؛فينبغى أن يكون من أهم أمورك توزيع أوقاتك على أصناف الخيرات من صباحك إلى مسائك؛و من مسائك إلى صباحك.و تعلّم أن مقصود العبادات تأكيد الأنس بذكر اللّه عز و جل،للإنابه إلى دار الخلود،و التجافى عن دار الغرور.و لن يسعد فى دار الخلود إلا من قدم على اللّه سبحانه محبّا له.و لا يكون محبّا له إلا من كان عارفا به،مكثرا لذكره.و لا يحصل المعرفه و الحب،إلا بالفكر و الذكر الدائم.و لن يدوم الذكر فى القلب،إلا بالمذكّرات،و هى العبادات المستغرقه للأوقات على التعاقب.

و لاختلاف أصنافها زياده تأثير فى التذكير،و منع الملال،و سقوط أثره عن القلب بالدوام الذى ينتهى إلى حد الاعتياد.

نعم،إن كنت والها باللّه عز و جل،مستغرقا به،لم تفتقر إلى ترتيب الأوراد،بل

۱- هكذا فى النسخه وردت كلمه الصلاه فيما يمكن الجمع بينها و فيما لا يمكن.

وردک واحد،و هو ملازمه الذکر.و ما أراک تکون کذلک،فإن ذلک من أعز الأمور.فإن لم تکن والها مستهترا،فعلیک أن ترتب أورادک،فأحد الأوراد هو من وقت انتباهک من النوم،إلی طلوع الشمس.و ینبغی أن تجمع فی هذا الوقت الشریف بعد الفراغ من الصلاه بین الذکر و الدعاء و القراءه و التفکیر،فإن لکل واحد أثرا آخر فی تنویر القلوب، و تعرف کیفیه ذلک و تفصیله من کتاب بدایه الهدایه و کتاب ترتیب الأوراد.و کذلک تفعل بین الطلوع و الزوال،و بین الزوال و الغروب و بین الغروب و العشاء،فإنها من أشرف الأوقات؛لأن النشاط إنما یتوفر بأن تمیّز ورد کلّ وقت،لتکون فی کل وقت عباده أخری تنتقل من بعضها إلی بعض.هذا إن کنت من العبّاد،فإن کنت معلّما أو متعلما أو والیا، فالاشتغال بذلک أولی فی بیاض النهار،و أفضل من العبادات البدنیه،لأن أصل الدین العلم الذی به یحصل التعظیم لأمر اللّه سبحانه،و النفع الذی یصدر عن الشفقه علی خلق اللّه تعالی.و کذلک إن کنت معیلا- محترفا،فالقیام بحق العیال بکسب الحلال أفضل من العبادات البدنیه.و لکن فی جمیع ذلک لا ینبغی أن تخلو و تنفکّ عن ذکر اللّه تعالی،بل تکون کالمستهتر بمعشوقه،المدفوع إلی شغل من الأشغال لضروره وقته، فهو یعمل ببدنه،و هو غائب عن عمله،حاضر بقلبه مع معشوقه.حکی عن أبی الحسن الجرجانی أنه کان یعمل بالمسحاه (۱)دائما و کان یقول:«أعطینا الید و اللّسان و القلب:

فالید للعمل،و اللسان للخلق،و القلب للحق».

و لنقتصر علی هذا القدر فی قسم الطاعات الظاهره،ففیه الکفایه إن شاء اللّه.ه.

۱- المسحاه:المجرفه.

القسم الثالث: فی تزکیه القلب عن الأخلاق المذمومه

اشاره

قال اللّه تعالی: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَکّی (۱) [الأعلی:۱۴]،و قال: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَکّاها (۲) [الشمس:۹].و التزکیه هی التطهیر.و قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم«الطهور شطر الإیمان».فافهم منه أن کمال الإیمان،بتزکیه القلب عما لا یحبه اللّه عز و جل،و تحلیته بما یحبه اللّه؛فالتزکیه شطر الإیمان.و کیف یشتغل بالطهاره من لا یعرف النجاسه.

فلنذکر الأخلاق المذمومه،و هی کثیره،و لکن نحتاج أن نردّ شعبها إلی عشره أصول:

الأصل الأول شره الطعام:

اشاره

و هو من الأمهات؛لأن المعده ینبوع الشهوات،إذ منها تتشعب شهوه الفرج.ثم إذا غلبت شهوه المأکول و المنکوح،یتشعب منها شره المال،إذ لا یتوصل إلی قضاء الشهوتین إلا به.و یتشعب من شهوه المال شهوه الجاه،إذ یعسر کسب المال دونه.ثم عند حصول المال و الجاه و طلبهما،تزدحم الآفات کلها،کالکبر و الریاء و الحسد و الحقد و العداوه و غیرها.و منبع جمیع ذلک البطن؛فلهذا عظّم رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم أمر الجوع،فقال علیه السلام:«ما من عمل أحبّ إلی اللّه تعالی من الجوع و العطش»، و قال:«لا یدخل ملکوت السماء من ملأ بطنه»،و قال علیه السلام:«سید الأعمال الجوع»،و قال علیه السلام:«الفکر نصف العباده،و قله الطعام هی العباده»،و قال علیه السلام:«أفضلکم عند اللّه تعالی أطولکم جوعا و تفکرا،و أبغضکم إلی اللّه تعالی کلّ أکول شروب نئوم (۳)»،و قال علیه السلام:«ما ملأ ابن آدم وعاء شرّا من بطنه،حسب

۱- سوره ۸۷ - آیه ۱۴

۲- سوره ۹۱ - آیه ۹

۳- نئوم:کثیر النوم.

ابن آدم لقيمات يقمن صلبه،و إن كان لا محاله فثلاث لطعامه و ثلاث لشرابه و ثلاث لنفسه»،و قال عليه السلام:«إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيّقوا مجارى الشيطان بالجوع و العطش»،و قال عليه السلام لعائشه-رضى اللّه عنها-:«أديموا قرع باب الجنه يفتح لكم»،قالت:كيف نديم؟قال عليه السلام:«بالجوع و الظمأ».و قال عليه السلام:«كلوا و اشربوا فى أنصاف البطون،فإنه جزء من النبوه».

[فصل السر فى تعظيم الجوع و مناسبته لطريق الآخره]

لعلك تشتهى أن تعلم السر فى تعظيم الجوع و مناسبته لطريق الآخره.فاعلم أن له فوائد كثيره،و لكن يرجع أصولها إلى سبع:

إحداها:صفاء القلب و نفاذ البصيره،فإن الشّبع يورث البلاده و يعمى القلب؛ قال صلى اللّه عليه و سلم:«من أجاع بطنه عظمت فكرته و فطن قلبه».و لا يخفى أن مفتاح السعاده المعرفه،و لا تنال إلا بصفاء القلب،فلذلك كان الجوع قرع باب الجنه.

الثانيه:رقه القلب؛حتى يدرك به لذه المناجاه،و يتأثر بالذكر و العباده؛و قال الجنيد:«يجعل أحدكم بينه و بين قلبه مخلاه من الطعام،و يريد أن يجد حلاوه المناجاه».و لا يخفى عليك أن أحوال القلب من الخشيه و الخوف و الرقه و المناجاه و الانكسار بالهيبه،من مفاتيح أبواب الجنه،و إن كان باب المعرفه فوقه،و الجوع قرع لهذا الباب.

الثالثه:ذل النفس و زوال البطر و الطغيان منها؛فلا تكسر النفس بشىء كالجوع.

و الطغيان داع إلى الغفله عن اللّه تعالى،و هو باب الجحيم و الشقاوه؛و الجوع إغلاق لهذا الباب.و فى إغلاق باب الشقاوه فتح باب السعاده؛و لذلك لمّا عرضت الدنيا عليه صلى اللّه عليه و سلم قال:«لا بل أجوع يوما و أشبع يوما،فإذا جعت صبرت و تضرعت،و إذا شبعت شكرت».

الرابعه:أن البلاء (۱)من أبواب الجنه،لأن فيه مشاهده طعم العذاب،و به يعظم الخوف من عذاب الآخره،و لا يقدر الإنسان على أن يعذّب نفسه بشىء كالجوع،فإنه لا

۱- البلاء:الاختبار،و يكون بالخير و الشر.

يحتاج فيه إلى تكلف،و ترتبط بها فوائد أخرى،فيكون مشاهدا بلاء اللّه تعالى على الدوام.

الخامسه:و هى من كبار الفوائد-كسر شهوات المعاصى،و الاستيلاء على النفس الأماره بالسوء،و كسر سائر الشهوات التى هى منابع المعاصى؛قال علىّ-رضى اللّه عنه-«ما شبعت قط إلا عصيت أو هممت بالمعصيه».و قالت عائشه-رضى اللّه عنها-«أول بدعه حدثت بعد رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم الشبع،إن القوم إذا شبعت بطونهم، جمحت بهم نفوسهم إلى الدنيا».

السادسه:خفه البدن للتهجد و العباده و زوال النوم المانع من العباده؛فإن رأس مال السعاده العمر،و النوم ينقص العمر إذ يمنع من العباده و أصله كثره الأكل.قال أبو سليمان الدارانىّ:«من شبع دخل عليه ست آفات:فقد حلاوه العباده،و تعذّر حفظ الحكمه،و حرمان الشفقه على الخلق؛لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباعا،و ثقل العباده،و زياده الشهوات،و أن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد و هو يدور حول المزابل».

السابعه:خفه المئونه،و إمكان القناعه بقليل من الدنيا،و إمكان إيثار الفقر، فإن من تخلص من شره بطنه لم يفتقر إلى مال كثير،فيسقط عنه هموم الدنيا؛فمهما أراد أن يستقرض لقضاء شهوه البطن،استقرض من نفسه،و ترك شهوته.كان إذا قيل لإبراهيم بن أدهم-رحمه اللّه عليه-فى شىء إنه غال،قال:«أرخصوه بالترك».

[فصل كيفيه ترك عاده الشبع و الإكثار]

لعلك تقول:قد صار الشبع و الإكثار فى الأكل عاده،فكيف أتركها؟فاعلم أن ذلك يسهل على من أراده بالتدريج؛و هو أن ينقص كل يوم من طعامه لقمه،حتى ينقص رغيفا فى مقدار شهر،فلا يظهر أثره،و يصير التقليل عادته.ثم إذا أذعنت بالتقليل، فلك النظر فى الوقت و القدر و الجنس؛أما القدر،فله ثلاث درجات:أعلاها-و هى درجه الصديقين-:الاقتصار على قدر القوام،و هو الذى يخاف النقصان منه على العقل أو الحياه،و هو اختيار سهل التسترىّ،و كان يرى أن الصلاه قاعدا لضعفه بالجوع، أفضل من الصلاه قائما مع قوه الأكل.الثانيه:أن تقنع بنصف مدّ كل يوم و هو ثلث

البطن،و على ذلك كانت عاده عمر-رضى اللّه عنه-و جماعه من الصحابه،إذ كان قوتهم فى الأسبوع صاعا من شعير.الثالثه:المدّ الواحد و ما جاوز ذلك،فهو مشاركه مع أهل العاده،و ميل عن طريق السالكين المسافرين إلى اللّه تعالى.

و قد يؤثّر فى المقادير اختلاف الأحوال و الأشخاص،و عند ذلك فالأصل فيه أن يمدّ اليد إذا صدق جوعه،و يكفّ و هو بعد صادق الاشتهاء.و علامه صدق الجوع أن تشتهى أىّ خبز كان من غير أدم (۱)،فإذا استثقل الأكل بغير أدم،فهو علامه الشبع.

و أما الوقت،ففيه أيضا ثلاث درجات:أعلاها أن يطوى ثلاثه أيام فما فوقها،فقد كان الصدّيق-رضى اللّه عنه-يطوى (۲)سته أيام،و إبراهيم بن أدهم و الثورى سبعا، و بعضهم انتهى إلى أربعين يوما.و قيل من طوى أربعين يوما ظهرت له لا محاله أشياء من عجائب الملكوت،و لا يمكن ذلك إلا بالتدريج.و أما الأوسط بأن يطوى يومين، و الأدنى بأن يأكل فى اليوم مره واحده،فمن أكل مرتين لم تكن له حاله جوع أصلا، فيكون قد ترك فضيله الجوع.

و أما الجنس،فأعلاه خبز البرّ (۳)مع الإدام،و أدناه خبز الشعير بلا إدام.و المداومه على الإدام مكروه جدا؛قال عمر-رضى اللّه عنه-لولده:كلّ مره خبزا و لحما،و مره خبزا و سمنا،و مره خبزا و لبنا،و مره خبزا و ملحا،و مره خبزا قفارا (۴).فهذا تنبيه على الأحسن فى أهل العاده.و أما السالكون الطريق،فقد بالغوا فى ترك الإدام،بل فى ترك الشهوات جمله،حتى كان بعضهم يشتهى الشهوه عشر سنين و عشرين سنه،و هو يخالف نفسه و يمنعها شهواتها.و قد قال النبى صلى اللّه عليه و سلم:«شرار أمتى الذين غذّوا بالنعيم و نبتت عليه أجسامهم،و إنما همتهم ألوان الطعام و أنواع اللباس و يتشدقون فى الكلام».و قد شرحنا طريق السلف فى ترك الشهوات فى كتاب كسر الشهوتين.م.

۱- أدم:ما يؤتدم به.

۲- يطوى:يجوع.

۳- خبز البر:خبز القمح.

۴- قفار:غير مأدوم.

الأصل الثانی شره الکلام:

اشاره

و ذلک لا- بد من قطعه،فإن الجوارح کلها تؤثر أعمالها فی القلب،و لکن اللسان أخص به،لأنه یؤدی عن القلب ما فیه من الصور،فتقتضی کل کلمه صوره فی القلب محاکیه لها،فلذلک إذا کان کاذبا حصل فی القلب صوره کاذبه،و اعوجّ به وجه القلب، و إذا کان فی شیء من الفضول مستغنی عنه،اسودّ به وجه القلب و أظلم،حتی تنتهی کثره الکلام إلی إماته القلب؛و لذلک عظم رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم أمر اللسان فقال:«من یتوکل لی بما بین لحییه (۱)و رجلیه أتوکل له بالجنه».و سئل عن أکثر ما یدخل النار،فقال علیه السلام:

«الأجوفان:الفم و الفرج».و قال علیه السلام:«و هل یکبّ الناس علی مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟».و قال:«من صمت نجا».و قال له معاذ:أی الأعمال أفضل؟فأخرج لسانه و وضع علیه یده،و قال:«إن أکثر خطایا ابن آدم فی لسانه».و قال علیه السلام:

«من کان یؤمن باللّه و الیوم الآخر فلیقل خیرا أو لیصمت».و قال علیه السلام:«من کثر کلامه کثر سقطه،و من کثر سقطه کثرت ذنوبه،و من کثرت ذنوبه فالنار أولی به».و لهذا کان الصدّیق-رضی اللّه عنه-یضع حجرا فی فیه لیمنع نفسه من الکلام.

[فصل أن للسان عشرین آفه]

اعلم أن للسان عشرین آفه شرحناها فی کتاب آفات اللسان.و یطول ذکرها، و یکفیک العمل بآیه واحده؛قال اللّه تعالی: لا خَیْرَ فِی کَثِیرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلاّ- مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَهٍ أَوْ مَعْرُوفٍ (۲) [النساء:۱۱۴]الآیه.و معناه أن لا- تتکلم فیما لا یعنیک،و تقتصر علی المهم،ففیه النجاه.قال أنس-رضی اللّه عنه:استشهد غلام منا یوم أحد فوجد علی بطنه صخره مربوطه من الجوع،فمسحت أمه التراب عن وجهه و قالت:هنیئا لک الجنه یا بنیّ،فقال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم:«و ما یدریک لعله کان یتکلم فیما لا یعنیه،و یمنع ما لا یضره».و حدّ ما لا یعنی هو الذی لو ترک لم یفت به ثواب،و لم تنتجز به ضروره.و من اقتصر من الکلام علی هذا قلّ کلامه،فلیحاسب العبد نفسه عند ذکره ما لا یعنیه؛إنه لو ذکر اللّه تعالی بدلا عن تلک الکلمه،لکان ذلک کنزا من کنوز السعاده،فکیف یسمح

۱- اللحیان:منبت اللحیه،أو عظم الحنک.

۲- سوره ۴ - آیه ۱۱۴

العقل بترک کنز مکنوز،و أخذ مدره (۱)؟هذا لو لم یکن فیه إثم،فإن کان إثم،فقد استبدل بترک کل کنز و أخذ شعله من النار.و من جمله ما لا یعنی حکایه الأسفار و أحوال أطعمه البلاد و عاداتهم،و أحوال الناس،و أحوال الصناعات و التجارات؛و هو من جمله ما تری الناس یخوضون فیه.

[فصل تفصیل هذه الآفات]

اشاره

لعلک تریذ أن تعرف تفصیل بعض هذه الآفات؛فاعلم أن الغالب علی الألسنه من جمله العشرین آفه خمسه:الکذب،و الغیبه،و المماراه،و المدح،و المزاح.

[الآفه] الأولی الکذب:

اشاره

و قد قال صلی اللّه علیه و سلم:«لا یزال العبد یکذب و یتحرّی الکذب حتی یکتب عند اللّه کذابا».و قال صلی اللّه علیه و سلم:«ویل للذی یحدّث فیکذب لیضحک منه الناس،ویل له ویل له».

و قیل:یا رسول اللّه،أ یزنی المؤمن؟أ یسرق المؤمن؟قال علیه السلام:«قد یکون ذلک»،فقیل له أ یکذب؟فقال:«لا،إنما یفتری الکذب الذین لا یؤمنون بآیات اللّه».

و قال علیه السلام:«ألا أنبئکم بأکبر الکبائر:الإشراک باللّه،و عقوق الوالدین»،و کان متکئا فقعد،و قال علیه السلام:«ألا و قول الزّور»،و قال علیه السلام:«کل خصله یطبع اللّه علیها المؤمن إلا الخیانه و الکذب».

فصل الکذب حرام فی کل شیء،إلا لضروره

اعلم أن الکذب حرام فی کل شیء،إلا لضروره،حتی قالت امرأه لولدها الصغیر تعال حتی أعطیک،فقال النبی صلی اللّه علیه و سلم:«و ما ذا کنت تعطینه لو جاء؟»قالت:تمره.

قال:«أما لو لم تفعلی کتبت علیک کذبه».فلیحذر الإنسان الکذب حتی فی التخیّل و حدیث النفس،فإن ذلک یثبت فی النفس صوره معوجّه حتی تکذب الرؤیا فلا تنکشف فی النوم أسرار الملکوت،و التجربه تشهد بذلک.نعم إنما یرخص فی الکذب إذا کان الصدق یفضی إلی محذور آخر أشد من الکذب،فیباح کما تباح المیته إذا أدی ترکها إلی محذور أشد من أکلها،و هو فوات الرّوح.قالت أم کلثوم-رضی اللّه عنها:«ما

۱- مدره:طین.

رخّص رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى شىء من الكذب إلا فى ثلاث:الرجل يقول القول يريد الإصلاح، و الرجل يقول القول فى الحرب،و الرجل يحدث امرأته».و هذا لأن أسرار الحرب لو وقف عليها العدوّ اجترأ،و أسرار الزوج لو وقفت عليها المرأه نشأ منها فساد أعظم من فساد الكذب،و كذلك المتخاصمان تدوم بينهما المعصيه و العداوه،فإذا أمكن الإصلاح بكذب،فذلك أولى.فهذا ما ورد فيه الخبر.و ما فى معناه:كذب الإنسان ليستر مال غيره عن ظالم،أو إنكاره لسر غيره،بل إنكاره لمعصيه نفسه عن غيره،فإن المجاهره بالفسق و إظهاره حرام،و إنكاره جنايه نفسه على غيره لتطيّب قلبه،و كذلك إنكاره مع زوجته أن تكون ضرّتها أحبّ إليه،و كل ذلك يرجع إلى دفع المضرّات.و لا يباح لجلب زياده مال و جاه،و فيه يكون كذب أكثر الناس.ثم إذا اضطر إلى الكذب فليعدل إلى المعاريض (۱)ما أمكن حتى لا يعتاد نفسه الكذب.

كان إبراهيم بن أدهم إذا طلب فى الدار قال لخادمته:قولى له اطلبه فى المسجد.

و كان الشعبى يخطّ دائره،و يقول لخادمته:«ضعى الإصبع فيها،و قولى:ليس هاهنا».

و كان بعضهم يعتذر عن الأمير و يقول:منذ فارقتك ما رفعت جنبى من الأرض إلا ما شاء اللّه تعالى.و كان بعضهم ينكر ما قال فيقول:إن اللّه ليعلم ما قلت من ذلك من شىء، فيوهم النفى بحرف«ما»و هو يريد غير ذلك (۲).و تباح المعاريض لغرض خفيف، لقوله صلى اللّه عليه و سلم:«لا تدخل الجنه عجوز،و نحملك على ولد البعير،و فى عينى زوجك بياض»لأن هذه الكلمات أوهمت خلاف ما أراد،فيباح مثل ذلك مع النساء و الصبيان لتطييب قلوبهم بالمزاح.و كذلك من يمتنع عن أكل الطعام فلا ينبغى أن يكذب و يقول:لا أشتهى إذا كان يشتهى،بل يعدل إلى المعاريض؛قال النبى عليه السلام لامرأه قالت ذلك:«لا تجمعى كذبا و جوعا».

الآفه الثانيه الغيبه:

اشاره

قال اللّه تعالى: أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ (۳) [الحجرات:۱۲].و قال عليه السلام:«الغيبه أشد من الزنا»،و أوحى اللّه تعالى إلى موسى-عليه السلام-:«من مات تائبا من الغيبه فهو آخر من يدخل الجنه،و من مات

۱- المعاريض:جمع معراض،و هو التوريه بالكلام يقول شيئا و يعنى شيئا آخر.

۲- يريد:إن اللّه ليعلم الذى قلت من ذلك.فتكون«ما»ضمير بمعنى«الذى».

۳- سوره ۴۹ - آيه ۱۲

مصـرّا عليهـا فهـو أول مـن يـدخل النـار».و قـال صـلى اللّه عليـه و سـلم:«مررت ليلـه أسـرى بى على قـوم يخمشـون وجـوههم بأظفارهم،فقيل لى:هؤلاء الذين كانوا يغتابون الناس».

و اعلم أن حـدّ الغيبه-كمـا بيّنه رسول اللّه صـلى اللّه عليه و سـلم-أن تـذكر أخـاك بمـا يكرهه لو بلغه، و إن كنت صادقـا،سواء ذكرت نقصانـا فى نفسه،أو عقله،أو ثـوبه،أو فعله،أو قوله،أو داره،أو نسـبه،أو دابته،أو شـيئا ممـا يتعلق به،حـتى قولـك إنه واسـع الكم،أو طويل الذّيل؛حتى ذكر عند رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم رجل فقيل:ما أعجزه،فقال عليه السلام:

«اغتبتموه».و أشارت عائشه-رضى اللّه عنها-بيدها إلى امرأه أنها قصيره،فقال عليه السلام:«اغتبتها».

فبهـذا يعلم أن الغيبه لا تقتصـر على اللسان،بل لا فرق بين أن يحصل التفهيم باليـد أو بالرمز أو بالإشاره أو بالحركه أو بالمحاكاه أو التّعريض المفهم،كقولك:إن بعض أقربائنا و بعض أصدقائنا كذا كذا.

و اعلم أن أخبث أنواع الغيبه غيبه القرّاء،يقولون مثلا:الحمـد للّه الـذى لم يبتلنا بالـدخول على السـلطان لطلب الدنيا؛أو:نعوذ باللّه من قله الحيـاء؛و هم يفهمون المقصود بـذلك،يقولون:ما أحسن أحوال فلان لو لا أنه بلى بمثل ما ابتلى به أمثالنا، و هو قله الصبر عن الدنيا،فنسأل اللّه تعالى أن يعافينا؛و غرضـهم بذلك الغيبه،فيجمعون بين الغيبه و الرياء،و إظهار التشبه بأهل الصّلاح فى الحذر من الغيبه.و هذه خبائث يغترّون بها و هم يظنون أنهم تركوا الغيبه.و كذلك قد يغتاب واحد فيغفل عنه الحاضـرون فيقول:سبحان اللّه ما أعجب هـذا،حتى ينتبه القوم إلى الإصـغاء،فيسـتعمل ذكر اللّه فى تحقيق خبثه،و يقول:قلبى مشـغول بفلان تاب اللّه علينا و عليه،و ليس غرضه الدعاء بل التعريف؛و لو قصد الدعاء لأخفاه،و لو اغتمّ قلبه لأجله لكتم عيبه و معصيته.

و كـذلك المسـتمع،قـد يظهر تعجبا من كلام المغتاب حتى يزيـد نشاطه فى الغيبه؛ و المسـتمع أحد المغتابين،كذلك قال رسول اللّه صـلى اللّه عليه و سـلم،فكيف إذا حرّك نشـاطه بـالتعجب! و كـذلك قـد يقول:دع غيبه فلان؛و هو بقلبه غير كاره لغيبته،إنما غرضه أن يعرف بـالتورع؛و ذلـك لا يخرجه عن إثم الغيبه مـا لم يكرههـا بقلبه و يورطه فى إثم الريـاء،بـل يخرج من الإـثم بأن يكرهه قلبه،و يكذب المغتاب و لا يصدّقه عليه،لأنه فاسق يستحق التكذيب.

و المسلم المذكور بالغيبه يستحق إحسان الظنّ به؛قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:«إن اللّه حرم من المسلم دمه و عرضه و ماله و أن يظنّ به ظنّ السوء».فالغيبه بالقلب حرام،كما أنه باللسان حرام إلا أن يضطرّ إلى معرفته بحيث لا يمكنه التجاهل.

[فصل يرخص فى الغيبه فى سته مواضع]

إنما يرخص فى الغيبه فى سته مواضع:

الأول منها:المتظلم يذكر ظلم الظالم عند سلطان ليدفع ظلمه؛فأما عند غير سلطان و عند غير من لا يقدر على الدفع فلا.اغتيب الحجاج عند بعض السلف،فقال:

إن اللّه لينتقم للحجاج ممن اغتابه،كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه.

الثانى:الذى يستعان به على تغيير المنكر يجوز أن يذكر له أيضا.

الثالث:المستفتى إذا افتقر إلى ذكر السؤال كما قالت هند:إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى ما يكفينى.و هذا كله شكايه،و لكن إنما يحل إذا كانت فيها فائده.

الرابع:تحذير المسلم من شر الغير إذا علم أنه لو لم يذكره لقبلت شهادته.كما يذكر المزكّى إذ يعامل و يناكح فيتضرر به فيذكر لمن يتوقع ضرره به فقط.

الخامس:أن يكون معروفا باسم فيه عيب كالأعمش و الأعرج،فالعدول إلى اسم آخر أولى.

السادس:أن يكون مجاهرا بذلك العيب لا يكرهه أن يذكر،كالمخنث و صاحب الماخور (۱).قال الحسن:ثلاثه لا غيبه لهم:صاحب الهواء،و الفاسق المعلن بالفسق،و الإمام الجائر.و هؤلاء يجمعهم أنهم مجاهرون لا يكرهون الذكر.

و الصحيح أن ذكر الفاسق بمعصيه يخفيها و يكره ذكرها لا يجوز من غير عذر.

فصل

علاج النفس فى كفّها عن الغيبه

أن يتفكر فى الوعيد الوارد فيها فى قوله صلى اللّه عليه و سلم:«إن

۱- الماخور:بيت الريبه و الدعاره.

الغیبه أسرع فی حسنات العبد من النار فی الیبس».و ورد أن حسنات المغتاب تنقل إلی دیوان المظلوم بالغیبه،فینظر فی قله حسناته و کثره غیبته،و أنه ینتهی إلی إفلاسه علی القرب،ثم یتفکر فی عیوب نفسه،فإن کان فیه عیب فیشتغل عن غیره،و إن کان قد ارتکب صغیره فیعلم أن ضرره من صغیره نفسه أکثر من ضرره من کبیره غیره،و إن لم یکن فیه عیب،فیعلم أن جهله بعیوب نفسه أعظم عیب.و متی یخلو الإنسان من عیب؟ ثم إن خلا منه فلیشکر اللّه تعالی بدلا من الغیبه،فإن ثلب الناس و أکل لحم المیته،من أعظم العیوب،فلیحذر منه.ثم مهما سبق لسانه إلی الغیبه،فینبغی أن یستغفر اللّه تعالی،و یذهب إلی المغتاب و یقول:ظلمتک فاعف عنی!فیستحله؛فإن لم یصادفه فلیکثر من الثناء علیه،و من الدعاء له،و من الحسنات،حتی إذا نقل بعضها إلی دیوان المظلوم،بقی له ما یکفیه؛فهی کفّاره الغیبه.

الآفه الثالثه المراء و المجادله:

قال صلی اللّه علیه و سلم:«من ترک المراء و هو محقّ بنی له بیت فی أعلی الجنه،و من ترکه و هو مبطل بنی له بیت فی ربض الجنه»و هذا لأن الترک علی المحق أشد.و قال علیه السلام:«لا یستکمل العبد حقیقه الإیمان حتی یدع المراء و هو محق».و حدّ المراء هو الاعتراض علی کلام الغیر بإظهار خلل فیه،إما فی اللفظ،و إما فی المعنی.و الباعث علیه تاره الترفع بإظهار الفضل،و سببه خبث الرعونه،و إما السّبعیه (۱)التی فی الطبع المتشوفه إلی تنقیص الغیر و قهره.فالمراء و المجادله تقویه لهذین الخبیثین المهلکین، بل الواجب أن یصدّق ما سمعه من الحق،و یسکت عما سمعه من الخطأ،إلا إذا کان فی ذکره فائده دینیه،و کان یسمع منه،فیذکره برفق لا بعنف.

الآفه الرابعه المزاح:

و الإفراط فیه یکثر الضحک،و یمیت القلب،و یورث الضغینه،و یسقط المهابه و الوقار؛قال صلی اللّه علیه و سلم:«إن الرجل لیتکلم بالکلمه یضحک بها جلساءه فیهوی بها أبعد من الثریا».و قال علیه السلام:«لا تمار أخاک و لا تمازحه».و اعلم أن الیسیر منه فی بعض الأوقات لا بأس به،لا سیما مع النساء و الصبیان تطییبا لقلوبهم،نقل ذلک عن رسول

۱- السبعیه:نسبه الی السّبع،و هی الطبیعه الحیوانیه.

اللّه صلى اللّه عليه و سلم لكنه قال:«إنى لأمزح و لا أقول إلا حقّا»،و يعسر على غيره ضبط ذلك.و قد روى أنه سابق عائشه- رضى اللّه عنه-بالعدو.و قال عليه السلام لعجوز:«لا يدخل الجنه عجوز»،أى لا يبقى عجوز فى الجنه (۱).و قال لصبىّ:«يا أبا عمير ما فعل النّغير؟»،و النغير ولد العصفور كان يلعب به الصبى.و قال صلى اللّه عليه و سلم لصهيب و هو يأكل التمر:«أ تأكل التمر و أنت رمد؟»،و قال:إنما آكل بالشق الآخر،فتبسم رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم.فهذا و أمثاله من المفاكهه لا بأس بها،بشرط أن لا يتخذها عاده.

الآفه الخامسه المدح:

كما جرت به عاده الناس عند المحتشمين (۲)من أبناء الدنيا،و كما جرت به عاده القصّاص و المذكرين،فإنهم يمدحون من يحضر مجالسهم من الأغنياء.و فى المدح ست آفات:أربع على المادح،و اثنتان على الممدوح.و أما المادح،فالآفه الأولى فيه أنه قد يفرّط فيه فيذكره بما ليس فيه فيكون كذّابا.الثانيه:أنه قد يظهر له من الحب ما لا يعتقده فيكون منافقا مرائيا.الثالثه:أنه يقول ما لا يتحققه،فيكون مجازفا،كقوله إنه عدل و إنه ورع و غير ذلك مما لا يتحقق فيه.مدح رجل بين يدى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم رجلا، فقال عليه السلام:«ويحك قطعت عنق صاحبك!إن كان لا بدّ من كون أحدكم مادحا أخاه فليقل:أحسب فلانا و لا أزكّى على اللّه أحدا،حسيبه اللّه إن كان يرى أنه كذلك».

الرابعه:أن يفرح الممدوح به،و ربما كان ظالما فيعصى بإدخال السرور على قلبه؛ و قال صلى اللّه عليه و سلم:«إن اللّه ليغضب إذا مدح الفاسق».و قال الحسن:«من دعا لفاسق بالبقاء فقد أحب أن يعصى اللّه».فالظالم الفاسق ينبغى أن يذم لتفتر رغبته فى الظلم و الفسق.

و أما الممدوح،فإحدى الآفتين أن يحدث فيه كبرا أو إعجابا و هما مهلكان؛ و لذلك قال عليه السلام:«قطعت عنق صاحبك».الثانيه:أن يفرح به فيفتر عن العمل و يرضى عن نفسه؛قال صلى اللّه عليه و سلم:«لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف،كان خيرا له من أن يثنى عليه فى وجهه».

و أما إذا سلم المدح من هذه الآفات فى المادح و الممدوح،فلا بأس به،و ربما

۱- المقصود أن العجوز المؤمن المستحق للجنه،يسترجع شبابه عند دخولها.

۲- أى الأكابر و السلاطين.

ینـدب إلیه؛قال صـلی اللّه علیه و سـلم:«لو وزن إیمان أبی بکر بإیمان العالمین لرجـح».و قال صـلی اللّه علیه و سـلم:«لو لم أبعث لبعثت یا عمر».و قد أثنی علی کثیر من الصحابه إذ علم أن ذلک یزید فی نشاطهم و لا یورثهم عجبا.

فصل

حق علی الممدوح أن یتأمل فی خطر الخاتمه

،و دقـائق الریـاء،و آفـات الأعمـال، و یتـذکر ما یعرفه من نفسه من القبائـح الباطنه،لا سـیما فی أفکاره و حـدیث نفسه،ما لو عرفه المادح لکفّ عن المدح.و ینبغی أن یظهر کراهه المدح و یکرهه بالقلب؛و إلیه الإشاره بقوله صلی اللّه علیه و سلم:«أحثوا التراب فی وجوه المدّاحین».و قال بعضهم لمّا أثنی علیه:

اللهم إن عبـدک هذا تقرّب إلیّ بمقتک،و أنا أشـهدک علی مقته.و قال علیّ-رضـی اللّه عنه-لمّا أثنی علیه:«اللهم اغفر لی ما لا یعلمون،و لا تؤاخذنی بما یقولون،و اجعلنی خیرا مما یظنون».

الأصل الثالث فی الغضب:

اشاره

اعلم أن الغضب شعله نار اقتبست من نار اللّه الموقده التی تطّلع علی الأفئده.

و من غلب علیه فقد نزع إلی عرق الشیطان فإنه مخلوق من النار.و کسر شدّه الغضب من المهمات فی الدین؛قال صلی اللّه علیه و سلم:«لیس الشدیـد بالصّرعه،إنما الشدیـد الـذی یملک نفسه عند الغضب».و قال علیه السـلام:«الغضب یفسد الإیمان کما یفسـد الصّبر العسل».

و قال علیه السـلام:«ما غضب أحـد قط إلا أشـفی علی جهنم».و قال رجل:یا رسول اللّه، أی شـیء أشـد؟قال:«غضب اللّه».قال:فما ینقـذنی من غضب اللّه؟قال:«أن لا تغضب».و قال رجل لرسول اللّه صـلی اللّه علیه و سـلم:مرنی بعمل و أقلّل!فقال علیه الصـلاه و السلام:

«لا تغضب»،فأعاد علیه رسول اللّه صـلی اللّه علیه و سلم مرارا و هو یقول:«لا تغضب».فکیف لا تعظم آفه الغضب،و هو یحمل فی الظاهر علی الضرب و الشتم و إطاله اللسان،و فی الباطن، علی الحقد و الحسد و إظهار السوء و الشماته و العزم علی إفشاء السرّ و هتک الستر، و الفرح بمصیبه المغضوب علیه و الغم بمسرته.و کل واحده من هذه الخبائث مهلک.

فصل

علیک فی صفه الغضب وظیفتان:

إحداهما:كسره بالرياضه؛و لست أعنى بكسره إماطته (۱)،فإنه لا يزول أصله و لا ينبغى أن يزول،بل إن زال وجب تحصيله،لأنه آله القتال مع الكفار،و المنع من المنكرات و كثير من الخيرات (۲).و هو ككلب الصائد،إنما رياضته فى تأديبه حتى ينقاد للعقل و الشرع فيهيج بإشاره العقل و الشرع،و يسكن بإشارتهما و لا يخالفهما،كما ينقاد الكلب للصياد.و هذا ممكن بالمجاهده،و هو اعتياد الحلم و الاحتمال مع التعرض للمغضبات.

الثانيه:ضبط الغضب عند الهيجان بالكظم.و يعين عليه علم و عمل؛أما العلم، فهو أن يعلم أنه لا سبب لغضبه إلا أنه أنكر أن يجرى الشىء على مراد اللّه لا على مراده، و هذا غايه الجهل.و الآخر أن يعلم أن غضب اللّه عليه أعظم من غضبه عليه،و أن فضل اللّه أكبر.و كم عصاه و خالف أمره!فلم يغضب عليه إن خالفه غيره؟فليس أمره عليه ألزم على عبده و أهله و رفقته من أمر اللّه عليه.و أما العمل،فهو أن يقول:«أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم»،إذ يعلم أن ذلك من الشيطان؛فإن لم يسكن،جلس إن كان قائما، و يضطجع إن كان قاعدا،و كذلك ورد الخبر باختلاف الحال أنه يؤثر فى التسكين،و إن لم يسكن فيتوضأ؛قال عليه الصلاه و السلام:«إن الشيطان خلق من النار،و إنما تطفأ النار بالماء،فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»،و قال عليه السلام:«ألا إن الغضب جمره فى قلب ابن آدم،ألا ترون إلى حمره عينيه،و انتفاخ أوداجه؟فمن وجد من ذلك شيئا فليضرب خدّه بالأرض».و هذه إشاره إلى تمكين أعز الأعضاء من أذلّ المواضع،لينكسر الكبر،فإنه السبب الأعظم فى الغضب،ليعلم أنه عبد ذليل فلا يليق به الكبر.

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:«إن الرجل ليدرك بالحلم درجه القائم و الصائم،و إنه ليكتب جبارا و ما يملك إلا أهل بيته»و قال صلى اللّه عليه و سلم:من كظم غيظا و لو شاء أن يمضيه أمضاه،ملأ اللّه تعالى قلبه يوم القيامه أمنا و إيمانا»،و قال عليه السلام:«ما من جرعه أحب إلى اللّه تعالى من جرعه غيظ يكظمها عبد،و ما كظمها عبد إلا ملأ اللّه جوفه إيمانا».ت.

۱- إماطته:كشفه.

۲- أى أن الغضب كما هو آله لمنع كثير من المنكرات،فهو أيضا آله لتحصيل كثير من الخيرات.

الأصل الرابع فی الحسد:

اشاره

قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم:«الحسد یأکل الحسنات کما تأکل النار الحطب»،و قال علیه السلام:«ثلاث لا ینجو منهن أحد:الظن،و الطیره،و الحسد،و سأحدثکم بالمخرج من ذلک،إذا ظننت فلا تحقّق،و إذا تطیّرت فامض،و إذا حسدت فلا تبغ».و قال علیه السلام:«دبّ إلیکم داء الأمم قبلکم:الحسد و البغضاء،و البغضه هی الحالقه (۱)».

و قال زکریا علیه السلام:قال اللّه تعالی:«الحاسد عدو لنعمی،مسخط لقضائی،غیر راض بقسمتی التی قسمت بین عبادی».

و اعلم أن الحسد حرام،و هو أن تحب زوال النعمه من غیرک،أو تحب نزول مصیبه به،و لا تحرّم المنافسه،و هی أن تغبط و تشتهی لنفسک مثله،و لا تحب زوالها منه.و یجوز أن تحب زوال النعمه ممن یستعین بها علی الظلم و المعصیه،لأنک لا نرید زوال النعمه،و إنما ترید زوال الظلم؛و علامته أنه لو ترک الظلم و المعصیه لم تحب زوال نعمته.و سبب الحسد إما الکبر،و إما العداوه،و إما خبث النفس،إذ یبخل بنعمه اللّه علی عباده من غیر غرض فیه له.

[فصل الحسد من الأمراض العظیمه للقلب]

اعلم أن الحسد من الأمراض العظیمه للقلب،و مرض القلب لا یداوی إلا بمعجون العلم و العمل:

فأما العلاج العلمی:فهو أن یعلم أن حسده یضره و لا یضر محسوده بل ینفعه؛أمّا أنه یضره،فهو أنه یبطل حسناته،و یعرضه لسخط اللّه تعالی،إذ یسخط قضاء اللّه و یشح بنعمته التی وسعها من خزائنه علی عباده،و هذا ضرر فی دینه.و أما ضرره فی دنیاه،فهو أنه لا یزال فی غم دائم و کمد لازم:و ذلک مراد عدوه منه،فإن أهم أغراض عدوه و أکمل النعمه علیه،حزن حاسده،فقد کان یرید المحنه لعدوه فحصلت له.و الحسود لا یخلو قط من الغم و المحنه؛إذ لا یزال أعداؤه أو واحد منهم فی نعمه.و أمّا أنّه ینفع عدوه و لا یضره؛لأن النعمه لا تزول بحسده،و أنه یضاعف حسناته؛إذ تنتقل حسنات الحاسد

۱- الحالقه:الممیته،و من معانیها السنه الشدیده التی تحلق کل شیء.

إليه.لا سيما إذا طوّل اللسان فيه،فإنه مظلوم من الحاسد،فقد طلب الحاسد زوال نعمه الدنيا منه،فأضاف إليه نعمه الآخره و حصل لنفسه مع عذاب الدنيا عذاب الآخره، فهو كمن رمى عدوه بحجر فلم يصب عدوه،و عاد إلى عينه فأعماها،و زادت عليه شماته عدوه إبليس،فإنه فاتته النعمه وفاته الرضاء بالقضاء،و لو رضى به لكان فيه ثواب،لا سيما إذا حسد على العلم و الورع،فإن محب العلم يعظم ثوابه.

و أما العلاج العملى:فهو أن يعرف حكم الحسد و ما يتقاضاه من قول و فعل، فيخالفه و يعمل بنقيضه،فيثنى على المحسود،و يظهر الفرج بنعمته،و يتواضع له؛ و بذلك يعود المحسود صديقا له،و يزايله الحسد،و يتخلص من إثمه و ألمه،قال اللّه تعالى: اِدْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِی بَیْنَکَ وَ بَیْنَهُ عَداوَهٌ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ (۱) [فصلت:۳۴].

فصل

لعلّ نفسک لا تطاوعک على التسويه بين عدوک و صديقک

،بل تكره مساءه الصديق دون العدوّ،و تحب نعمه الصديق دون العدوّ.و لست مكلفا بما لا تطيق،فإن لم تقدر على ذلک فتتخلص من الإثم بأمرين:أحدهما،أن لا تظهر الحسد بلسانک و جوارحک و أعمالک الاختياريه،بل تخالف موجبها.و الثانى،أن تكره من نفسک حبّها زوال نعمه اللّه تعالى عن عبد من عباده.فإذا اقترنت الكراهه عن باعث الدين بحب زوال النعمه التى اقتضاه الطبع،اندفع عنک الإثم.و ليس عليک تغيير الطبع،فإن ذلک لا تقدر عليه فى أكثر الأحوال.و علامه الكراهيه أن تكون بحيث لو قدرت على إزاله نعمته لم تقدم على الإزاله مع حبک لها،و لو قدرت على معونته فى دوام نعمته أو فى زيادتها فعلت مع كراهيتک لذلک.فإذا كنت كذلک،فلا إثم عليک فيما يتقاضاه طبعک،فإن الطبع إنما يصير مقهورا فى حق المستهتر باللّه،الذى انقطع نظره عن الدنيا و عن الخلق؛بل علم أنّ المنعم عليه إن كان فى النار فما تنفع هذه النعمه،و إن كان فى الجنه فأى نسبه لهذه النعمه إلى الجنه؛بل يرى كلّ الخلق عباد اللّه تعالى فيحبهم لأنهم عباد لمحبوبه.و يحب أن يظهر أثر نعمه محبوبه على عباده،و هذه حاله نادره لا تدخل تحت التكليف.

۱- سوره ۴۱ - آیه ۳۴

الأصل الخامس فی البخل و حب المال:

اشاره

و اعلم أن البخل من المهلکات العظیمه؛قال اللّه تعالی: وَ مَنْ یُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱) [الحشر:۹،التغابن:۱۶].و قال اللّه تعالی: وَ لا یَحْسَبَنَّ الَّذِینَ یَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ (۲) [آل عمران:۱۸۰]الآیه.و قال اللّه تعالی:

اَلَّذِینَ یَبْخَلُونَ وَ یَأْمُرُونَ النّاسَ بِالْبُخْلِ (۳) [النساء:۳۷،الحدید:۲۴]الآیه.

و قال صلی اللّه علیه و سلم:«إیاکم و البخل،فإنه أهلک من کان قبلکم».و قال صلی اللّه علیه و سلم:«السخاء شجره تنبت فی الجنه فلا یلج الجنه إلا سخیّ،و البخل شجره تنبت فی النار فلا یلج النار إلا بخیل».و قال علیه السلام«ثلاث مهلکات:شحّ مطاع،و هوی متّبع،و إعجاب المرء بنفسه».و قال علیه السلام:«شرّ ما فی الرّجل شحّ هالع و جبن خالع (۴)».و قال علیه السلام:«إن اللّه یمقت البخیل فی حیاته،و یحب السخی عند موته».و قال علیه السلام:«السخی الفاجر أحب إلی اللّه من العابد البخیل».و قال علیه السلام:«لا یجتمع اثنان فی مؤمن:البخل و سوء الخلق».

[فصل أصل البخل حب المال]

اعلم أن أصل البخل حب المال،و هو مذموم.و من لا مال له لا یظهر بخله بالإمساک،و لکن یظهر بحب المال،و ربّ رجل سخی لکنه یحب المال،فیسخی به لیذکر بالسخاء؛و ذلک أیضا مذموم،لأن حب المال یلهی عن ذکر اللّه عز و جل، و یصرف وجه القلب إلی الدنیا،و یحکم علاقته فیها،حتی یثقل علیه الموت الذی فیه لقاء اللّه تعالی؛قال اللّه عز و جل: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تُلْهِکُمْ أَمْوالُکُمْ وَ لا أَوْلادُکُمْ عَنْ ذِکْرِ اللّهِ (۵) [المنافقون:۹]و قال اللّه تعالی: إِنَّما أَمْوالُکُمْ وَ أَوْلادُکُمْ فِتْنَهٌ (۶) [التغابن:۱۵]و قال تعالی: أَلْهاکُمُ التَّکاثُرُ (۷) [التکاثر:۱].و قال صلی اللّه علیه و سلم:«لا تتخذوا الضیعه (۸)فتحبوا الدنیا».و قیل للنبی علیه الصلاه و السلام:أیّ أمتک أشرّ؟فقال علیه السلام:«الأغنیاء».و قال علیه السلام:«من أخذ من الدنیا فوق ما یکفیه،أخذ حتفه و هو لا یشعر».و قال رجل:یا رسول اللّه،إنی لا أحب الموت،قال علیه السلام:«هل

۱- سوره ۵۹ - آیه ۹

۲- سوره ۳ - آیه ۱۸۰

۳- سوره ۴ - آیه ۳۷

۴- هلع من باب تعب أی جزع،و قوله خالع الخلع نزع الشیء و إخراجه.

۵- سوره ۶۳ - آیه ۹

۶- سوره ۶۴ - آیه ۱۵

۷- سوره ۱۰۲ - آیه ۱

۸- الضیعه:العقار.

لک مال؟»قال:نعم،قال علیه السلام:«قدّم مالک،فإن قلب الرجل مع ماله،فإن قدمه أحب أن یلحقه،و إن أخره أحب أن یتخلف».و قال علیه الصلاه و السلام:«إذا مات العبد قالت الملائکه:ما قدّم؟و قال الناس:ما خلّف؟»،و قال علیه الصلاه و السلام:«تعس (۱)عبد الدرهم،تعس عبد الدینار،تعس و انتکس،و إذا شیک فلا انتقش» (۲).

[فصل أن المال لیس مذموما من کل وجه]

اعلم أن المال لیس مذموما من کل وجه،و قد قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم:«نعم المال الصالح للرجل الصالح»،و قال علیه الصلاه و السلام:«الدنیا مزرعه الآخره».و کیف یکون مذموما مطلقا و العبد مسافر إلی اللّه تعالی،و الدنیا منزل من منازل سفره،و بدنه مرکبه،و لا یمکنه السفر إلی اللّه إلا به،و لا یبقی البدن إلا بمطعم و ملبس،و لا وصول إلیهما إلا بالمال؟لکن من فهم فائده المال و علم أنه آله علف الدابه لسلوک الطریق،لم یعرّج علیه،و لم یأخذ منه إلا قدر الزاد،فإن اقتصر علی ذلک سعد به کما قال النبی علیه السلام لعائشه-رضی اللّه عنها-:«إذا أردت اللحاق بی فاقنعی من الدنیا بزاد الراکب، و لا تجددی و لا تخلعی قمیصا حتی ترقعیه»،و قال علیه الصلاه و السلام:«اللهم اجعل قوت آل محمد کفافا،و إن زاد علی قدر الکفایه هلک».کما قال علیه الصلاه و السلام:

«من أخذ من الدنیا فوق ما یکفیه،أخذ حتفه و هلک و هو لا یشعر».و کذلک المسافر،إذا أخذ ما یزید علی زاد الطریق مات تحت ثقله،و لم یبلغ مقصد سفره.فالزیاده علی قدر الکفایه مهلکه من ثلاثه أوجه:

أحدها:أن یدعو إلی المعاصی،فإنه یمکن منها و من العصمه أن لا تقدر،و فتنه السرّاء (۳)أعظم من فتنه الضراء (۴)،و الصبر مع القدره أشد.

۱- تعس بفتح العین أی سقط علی وجهه.و فی الدعاء تعسا له و تعس و انتکس؛فالتعس أن یخذل وجهه،و النکس أن لا یستقل بعد سقطته.

۲- أی إذا وصل شوک فی عضوه فلا انتقش علی بناء المبنی للمفعول،دعاء علیه بعدم إخراجه بالمنقاش،یعنی إذا وقع فی البلاء فلا یترحم علیه.و إنما خص انتقاش الشوک بالذکر لأن الانتقاش أسهل ما یتصور فی المعاونه لمن أصابه مکروه،و إذا نفی ذلک الاهون فما فوقه بالطریق الأولی.

۳- السراء:الرخاء.

۴- الضراء:الشده.

و الثانی:أن یدعو إلی التنعم بالمباحات،و هو أقل الدرجات،فینبت علی التنعم جسده،و لا یمکنه الصبر عنه.و ذلک لا یمکن استدامته إلا بالاستعانه بالخلق و الالتجاء إلی الظلمه،و ذلک یدعو إلی النفاق و الکذب و الریاء و العداوه و البغضاء،و یتشعب منه جمله المهلکات؛و لذلک قال صلی اللّه علیه و سلم:«حب الدنیا رأس کل خطیئه».

و الثالث:أن یلهی عن ذکر اللّه عز و جل الذی هو أساس السعاده الأخرویه،إذ یزدحم علی القلب خصومه الملاحین،و محاسبه الشرکاء و التفکر فی تدبیر الحذر منهم، و تدبیر استنماء المال و کیفیه تحصیله أولا،و حفظه ثانیا،و إخراجه ثالثا؛و کل ذلک مما یسوّد القلب،و یزیل صفاءه و یلهی عن الذکر،کما قال اللّه تعالی: أَلْهاکُمُ التَّکاثُرُ (۱) إلی آخر السوره.

[فصل فی معرفه مقدار الکفایه]

لعلک تشتهی أن تعرف مقدار الکفایه و تقول:ما من غنی إلا و یدّعی أن ما فی یده دون مقدار الکفایه.فاعلم أن الضروره إنما تدعو إلی المطعم و الملبس فقط،فإن ترکت التجمل فی الملبس،فیکفیک فی السنه دیناران لشتائک و صیفک،فتتخذ بهما ثوبا خشنا یدفع عنک الحرّ و البرد؛و إن ترکت التنعم فی مطعمک و الشبع من الطعام فی جمیع أحوالک،فیکفیک فی کل یوم مدّ،فیکون فی السنه خمسمائه رطل،و یکفیک لإدامک- إن لم توسّع فیه و اقتصرت علی الیسیر منه فی بعض الأوقات-ثلاثه دنانیر علی التقریب فی السنه،عند رخاء الأسعار.فإذا یبلغ کفایتک خمسه دنانیر و خمسمائه رطل،و هو القدر الذی نقدره إذا فرضنا نفقه العزب.فإن کنت معیلا فخذ لکل واحد منهم مثل ذلک؛فإذا کنت کسوبا و کسبت فی الیوم ما یکفیک لیومک،فانصرف و اشتغل بعبادتک، فإن طلبت الزیاده صرت من أهل الدنیا.و إن لم تکن کسوبا و کنت مشغولا بالعلم و العباده،و اقتنیت ضیعه یدخل منها هذا القدر دائما،فأرجو أن لا تصیر بذلک من أهل الدنیا،لا سیما فی هذه الأعصار (۲)،و قد تغیرت القلوب،و استولی علیها الشحّ، و انصرفت الهمم عن تفقد ذوی الحاجات.فاقتناء هذا القدر أولی من السؤال؛و هذا بشرط أن یکون بودّک أن تتخلص من التعرض إلی الجوع و البرد،لتطرح الضیعه و تترکها،

۱- سوره ۱۰۲ - آیه ۱

۲- الأعصار:جمع عصر،و هو الدهر و الزمان.

و لا تكون كارها للموت،و لا محبا للضيعه.و لتكن الضيعه-و هى مدخل طعامك- كالخلاء الذى هو موضع فراغك،فإنما تريده للضروره،و بودك لو تخلصت منه لتخرج عن النهى فى قوله صلى اللّه عليه و سلم:«لا تتخذوا الضيعه فتحبوا الدنيا»؛فإنك إذا قصدت الفراغه للاستعانه بها على الدين،كنت متزودا مسافرا لا معرجا على الضيعه.

و ربما لا يحتمل بعض الأشخاص القناعه بالقدر الذى ذكرته إلا بشده و مشقه.و لا حرج فى الدين فى ازدياد الضعف على هذا القدر؛إذ لا يصير من أبناء الدنيا و لا يخرج من حزب أبناء الآخره و المسافرين إلى اللّه تعالى ما دام يقصد بذلك دفع الألم الشاغل عن الذكر و العباده دون التلذذ و التنعم فى الدنيا.ثم ما فضل من الطعام صرفه إلى البائس و الأرامل،و لا يبقى بعد هذه الرخصه داعيه إلى الزياده إلا للتنعم أو للتصدق أو للاستظهار،لو أصاب المال آفه.أمّا التنعّم فإعراض عن اللّه تعالى،و اشتغال بالدنيا، و أما التصدق،فترك المال أفضل منه؛قال عيسى عليه السلام:«يا طالب الدنيا لتبرّ فتركك لها أبرّ و أبرّ».و أما الاستظهار،لخوف آفه،فذلك لا مرد له،و هو سوء الظن لا آخر له،بل ينبغى أن تدفع ذلك بحسن الظن بتدبير اللّه عز و جل،و هو أن تتصور أن تصيب المال آفه من حيث لا يتوقع فيتصور أن ينفتح للرزق أيضا باب لا يحتسب، وَ مَنْ يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ (۱) [الطلاق:۲،۳].و إن فرض على الندور خلافه،فلا ينبغى أن يعتقد العبد أن سلامته-طول عمره-عن البلاء محتوم،بل البلاء هو الذى يصقل القلب و يزكيه،و يخلصه من الخبائث كلها؛و لهذا كان موكلا بالأنبياء،ثم الأولياء،ثم الأمثل فالأمثل.فاتكل على فضل اللّه،و اعلم أنك لا يصيبك إلا ما فيه خيرك و خيرتك (۲)،فإن اللّه مدبّر الملك و الملكوت أعلم بمصالحك.

[فصل فى ان الذى ذكرت تقريب يمكن الزياده عليه و النقصان منه]

هذا الذى ذكرته تقريب يمكن الزياده عليه و النقصان منه بالاجتهاد فى بعض الأشخاص و فى بعض الأحوال.و لكن اعتقد قطعا أن المال كالدواء النافع منه قدر مخصوص،و الإفراط فيه قاتل،و القرب من الإفراط ممرض إن لم يقتل.فعليك بالتقليل

۱- سوره ۶۵ - آیه ۲

۲- الخيره(بكسر الخاء و تسكين الياء أو فتحها):الأفضل.

و الحذر من الإفراط و الرفاهيه،فذلک خطر عظيم.و ليس فی التقليل إلا مشقه قليله فی أيام قلائل؛و ذو الحزم لا يثقل عليه أن يجوع نفسه لوليمه الفردوس،لعلمه أن اللذه علی قدر الجوع.

[فصل فی معرفه حدّ البخل]

لعلک ترغب فی معرفه حدّ البخل،إذ الشخص الواحد قد تشک فی أنه بخيل أم لا،و يختلف الناس فيه.فاعلم أن حدّ البخل منع ما يوجبه الشرع أو المروءه.و لا تظن أن من سلّم إلی زوجته و قريبه ما فرضه القاضی،و ضايق وراء ذلک فی لقمه،فليس ببخيل،و أن من رد الخبز و اللحم إلی الخباز و القصاب لنقصان قدر منه يسير ليس ببخيل،و إن كان له ذلک فی الشرع،فإن معنی الشرع فی هذه الأمور قطع خصومه البخلاء بتقدير مقدار يطيقه البخيل؛و لذلک قال اللّه تعالی: إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا (۱) [محمد:۳۷].بل لا بدّ من مراعاه المروءه و دفع قبح الأحدوثه،و ذلک يختلف باختلاف الأشخاص و قدر المال.و من له مال و أمكنه أن يقطع هجو شاعر و ذمه عن نفسه بقدر يسير فلم يفعله،فهو بخيل،و إن لم يكن ذلک واجبا عليه،إذ قال صلی اللّه عليه و سلم:«ما وقی المرء به عرضه فهو له صدقه».و التحقيق فيه أن المال خلق لفائده لأجلها يمسک،و فی بذله أيضا فائده.فمهما ظهر له أن فائده البذل أعظم من فائده الإمساک،ثم شق عليه البذل فهو بخيل محب للمال.و المال لا ينبغی أن يحبّ لذاته بل لفائدته،فيصرف إلی أقوی فائده.و حفظ المروءه أفضل و أقوی من التنعم بالأكل الكثير مثلا.و قد يحمله البخل و حبّ المال علی أن يجهل أقوی الفائدتين و أولاهما و ذلک غايه البخل.فإن علم و عسر عليه البذل فهو بخيل أيضا،و إن بذل تكلّفا؛بل إنما يبرأ من البخل بأن لا يثقل عليه بذل المال فيما ينبغی أن يبذل فيه عقلا و شرعا.و أما درجه السخاء،فلا تنال إلا ببذل ما يزيد علی واجب الشرع و المروءه جميعا.

[فصل فی معرفه علاج البخل]

لعلک تريد أن تفهم علاج البخل.فاعلم أن دواءه معجون مركّب من العلم و العمل.أما العلم فهو أن تعلم ما فی البخل من الهلاک فی دار الآخره،و المذمه فی الدنيا،و تعلم أن المال لا يتبعه-إن بقی-إلی قبره؛و إنما المال للّه تعالی،مكّنه منه

۱- سوره ۴۷ - آيه ۳۷

لصرفه إلى أهمّ أموره.و تعلم أن إمساك المال،إن كان للتنعم فى الشهوات،فحسن الأحدوثه و ثواب الآخره أعظم و ألذّ منه.فقضاء الشهوه سجيه البهائم،و هذه سجيه العقلاء؛و إن كان يمسكه ليتركه لولده فكأنه يترك ولده بخير و يقدم على ربه بشرّ،و هذا عين الجهل،و كيف و ولده إن كان صالحا فاللّه تعالى يكفيه،و إن كان فاسقا فيستعين به (۱)على المعصيه،و يكون هو سبب تمكنه منها،فيتضرر هو و يتنعّم غيره!.و أما العمل،فهو أن يحمل نفسه على البذل تكلّفا،و لا يزال يفعل ذلك حتى يصير له عاده.

و من نوافذ حيله فيه أن يخدعه بحسن الاسم و توقع المكافأه حتى يرغب فى البذل،ثم بعد ذلك يتدرج أيضا إلى قمع هذه الصفات.

الأصل السادس الرعونه و حب الجاه:

اشاره

قال اللّه عز و جل: تِلْكَ الدّارُ الْآخِرَهُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَ لا فَساداً (۲) [القصص:۸۳]الآيه.و قال عليه السلام:«حب المال و الجاه ينبتان النفاق فى القلب،كما ينبت الماء البقل».و قال عليه الصلاه و السلام:«ما ذئبان ضاريان أرسلا فى زريبه غنم بأكثر فسادا فيها من حب المال و الجاه فى دين الرجل المسلم».و قال عليه الصلاه و السلام فى مدح الخمول:«رب أشعث أغبر ذى طمرين (۳)لا يؤبه له لو أقسم على اللّه لأبرّه».و قال عليه الصلاه و السلام:«إن أهل الجنه كل أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له،الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم،و إذ خطبوا النساء لم ينكحوا، و إذا قالوا لم ينصت لهم؛حوائج أحدهم تتجلجل فى صدره،لو قسم نوره يوم القيامه على الناس لوسعهم».

و قال سليمان بن حنظله:بينما نحن حول أبىّ بن كعب نمشى خلفه،إذ رآه عمر فعلاه بالدّرّه،فقال:انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع،فقال:إن هذا مذله للتابع و فتنه للمتبوع.و قال الحسن:إن خفق النعال خلف الرجل قلّ ما يثبت معه قلوب الحمقاء.

و قال أبو أيوب:و اللّه ما صدق اللّه عبد إلا سرّه أن لا يشعر بمكانه.

۱- أى بالمال الذى يخلفه له أبواه.

۲- سوره ۲۸ - آيه ۸۳

۳- الطمر:الثوب البالى.

فقد عرفت بهذا مذمه الشهره و الجاه إلا أن يشهر اللّه عبدا فی الدين من غير طلب منه كما يشهّر الأنبياء و الخلفاء الراشدين و العلماء و الأولياء.

[فصل حقيقه الجاه هی ملک القلوب لتتسخر لذی الجاه علی حسب مراده]

حقيقه الجاه هی ملک القلوب لتتسخر لذی الجاه علی حسب مراده،و تطلق اللسان بالثناء عليه،و تسعی فی حاجته.و كما أن معنی المال ملک الدراهم ليتوصل بها إلی الأغراض،كذلک معنی الجاه ملک القلوب،لكن الجاه أحب،لأن التوصل به إلی المال أيسر من التوصل بالمال إلی الجاه،و لأنه محفوظ من أن يسرق و يغصب أو تعرض له الآفه،و لأنه يسری و ينمو من غير تكلف؛فإن من ملک قلبه باعتقاد التعظيم،فلا يزال يثنی و يقتنص قلوب سائر الناس لصاحبه.و فيه سرّ آخر،و هو أن الجاه معناه العلوّ و الكبرياء و العز،و هی من الصفات الإلهيه،و الصفات الإلهيه محبوبه للإنسان بالطبع؛بل هی ألذّ الأشياء عنده؛و ذلک لسرّ خفی فی مناسبه الرّوح للأمور الإلهيه،و عنه العباره بقوله تعالی: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی (۱) [الإسراء:۸۵].فهو أمر ربانی شغفه من حيث الطبع للاستبداد و الانفراد بالوجود.و هو حقيقه الإلهيه؛إذ ليس مع اللّه موجود،بل الموجودات كلها كالظل من نور القدره،فلها رتبه التبعيه لا رتبه المعيّه.فليس فی الوجود مع اللّه غيره.و كان الإنسان يشتهی ذلک،بل فی كل نفس أن يقول أنا ربّكم الأعلی،لكن أظهره فرعون و أخفاه غيره.و لكن إن فاته الانفراد بالموجود،فيشتهی أن لا يفوته الاستعلاء و الاستيلاء علی الموجودات كلها،ليتصرف فيها علی حسب مراده و هو الإلهيه.لكن تعذر علی الإنسان ذلک فی السموات و الكواكب و البحار و الجبال، فاشتهی الاستيلاء علی جميعها بالعلم،لأن العلم نوع استيلاء أيضا،كما أن من عجز عن وضع الأشياء العجيبه،فيشتهی أن يعرف كيفيه الوضع.و كذلک يشتهی أن يعرف عجائب البحر و ما تحت الجبال،و يتصور أن يتسخر له الأعيان التی علی وجه الأرض من الحيوان و المعادن و النبات.فيحبّ أن يتملكها و يقوّلها و يتصور أن يتسخر له الإنسان،فيحب أن يتسخره بواسطه قلبه.و يملک قلبه بإلقاء التعظيم فيه.و يحصل التعظيم بأن يعتقد فيه كمال الخصال،فإن الإجلال يتبع اعتقاد الكمال،فلهذا يحب الإنسان أن يتسع جاهه و ينتشر صيته حتی إلی البلاد التی يعلم قطعا أنه لا يطؤها و لا يری أهلها،لأن كل ذلک يناسب صفات الربوبيه.و كلما صار أعقل،كانت هذه الصفه عليه أغلب،و شهواته البهيميه فيه أضعف.

۱- سوره ۱۷ - آيه ۸۵

[فصل لم كان طلب الرفعه مذموما]

لعلك تقول:فإذا كان كذلك،فلم كان طلب الرفعه مذموما و هو من نتائج العقل و خواص الروح المناسبه للأمور الربانيه؟.

فاعلم أن الرفعه الحقيقيه طلبها محمود غير مذموم،إذ مطلوب الكل هو القرب من اللّه تعالى،و ذلك هو الرفعه و الكمال إذ هو عزّ لا ذل فيه،و غنى لا فقر معه،و بقاء لا فناء بعده،و لذه لا كدوره لها؛و طلب ذلك محمود؛و إنما المذموم طلب الكمال الوهمى دون الحقيقى،و الكمال الحقيقى يرجع إلى العلم و الحريه و القدره؛و هو أن لا يكون مقيدا بغيره.و لا يتصور للعبد حقيقه القدره،فإن قدرته إنما تكون بالمال و الجاه،و ذلك كمال وهمىّ،فإنه أمر عارض لا بقاء له،و لا خير فيما لا بقاء له،بل قيل:

أشدّ الغمّ عندى فى سرور تيقّن عنه صاحبه انتقالا

كيف،و هذه القدره العارضه مع سرعه انقضائها بالموت و بآفاتها قبله،لا تصفو من الكدورات!فمن توهمها كمالا فقد زل،بل الكمال فى الباقيات الصالحات التى تنال بها القرب من اللّه سبحانه،و لا تزول بالموت،بل تتضاعف تضاعفا غير محدود.و ذلك هو المعرفه الحقيقيه بذات اللّه تعالى،و صفاته و أفعاله،و هو العلم بكل الموجودات؛إذ ليس فى الوجود إلا اللّه تعالى و أفعاله.لكن قد ينظر فيها الناظر لا من حيث إنها أفعال اللّه تعالى،كالذى ينظر فى التشريح لغرض الطب،أو ينظر فى هيئه العالم لمعرفه الاستدلال بأحكام النجوم،فهذا لا قدر له.و من الكمال الحقيقى الحريه،و هو انقطاع علاقتك عن جميع علائق الدنيا،بل عن كل ما يفارقك بالموت، و الاقتصار فى الالتفات إلى لازمك الذى لا بدّ لك منه،و هو اللّه تعالى.كما أوحى اللّه إلى داود:«يا داود!أنا بدّك (۱)اللازم فالزم بدّك».فالعلم و الحريه من الباقيات الصالحات، و هما كمالان حقيقيّان؛و المال و البنون زينه الحياه الدنيا،و هما كمالان وهميان.

و المنكوسون هم الذين عكسوا الحقيقه،فأعرضوا عن طلب الكمال الحقيقى،و اشتغلوا بطلب الكمال الوهمىّ،و هم الذين يحترقون عند الموت بنيران الحسره إذ يشاهدون

۱- بدّ بكسر الباء:المثيل و النظير،و بدّ بضمها:العوض أو النصيب.

أنهم خسروا الدنيا و الآخره:و أما الآخره،فلأنهم يطلبونها و لم يحصّلوا أسبابها من المعرفه و الحريه؛و أما الدنيا،فلأنها و دعتهم و انقلبت إلى أعدائهم و هم ورثتهم.و لا تظنن أن الإيمان و العلم يفارقانک بالموت،فالموت لا يهدم محل العلم أصلا،و ليس الموت عدما حتى تظن أنک إذا عدمت صفاتک؛بل معنى الموت قطع علاقه الروح من البدن إلى أن تعاد إليه؛و إذا تجرد عن البدن فهو على ما کان عليه قبل الموت من العلم و الجهل،و فهم هذا طويل،و تحته أسرار لا يحتمل هذا الکتاب کشفها.

[فصل فی ان طریق علاج حب الجاه هو قمع هذا الحب]

إذا عرفت حقيقه الجاه و ماهيته،و أنه کمال وهميّ،فقد عرفت أن طريق العلاج فی قمع حبه من القلب.إذا علمت أن أهل الأرض لو سجدوا لک مثلا،لما بقی-إلا مده قريبه-لا الساجد و لا المسجود له.کيف!و يشح الدهر عليک بأن يسلم لک الملک فی محلّتک فضلا عن قريتک أو بلدتک.فکيف ترضی أن تترک ملک الأبد و الجاه الطويل العريض عند اللّه تعالى و عند ملائکته،بجاهک الحقير المنغص عند جماعه من الحمقى لا ينفعونک و لا يضرونک و لا يملکون لک موتا و لا حياه و لا نشورا و لا رزقا و لا أجلا؟ نعم ملک القلوب کملک الأعيان (۱)،و أنت محتاج منه إلى قدر يسير لتحرس نفسک عن الظلم و العدوان،و عما يشوش عليک سلامتک و فراغک التی تستعين بها على دينک.فطلبک لهذا القدر مباح،بشرط القناعه بقدر الضروره کما فی المال،و بشرط أن لا تکتسبه بالمراءاه بالعبادات فذلک حرام کما سيأتی؛و أن لا تکتسبه بالتلبيس (۲)بأن تظهر من نفسک ما أنت خال منه،فلا فرق بين من يملک القلوب بالتلبيس،و بين من يملک الأموال.فإذا حصّلت الجاه بطريقه و اقتصرت على قدر التحرز من الآفات فترجی لک السلامه،إلا أنک فی خطر عظيم أکثر من خطر المال،لأن قليل الجاه يدعو إلى کثيره،فإنه ألذّ من المال،و لذلک لا يسلم الدين مجانا غالبا إلا لخامل مجهول لا يعرف،کما فهمت ذلک من الأخبار.

۱- الأعيان:جمع عين و هی هنا بمعنى الإنسان.و الأعيان الناس،أو الساده منهم.

۲- التلبيس:إخفاء الحقيقه و إظهارها بخلاف ما هی عليه.

[فصل من البواعث على طلب الجاه حب المدح]

من البواعث على طلب الجاه حب المدح،فإن الإنسان يتلذذ به من ثلاثه أوجه:

أحدها،انه يشعر صاحبه بكمال نفسه،و الشعور بالكمال لذيذ؛لأن الكمال من الصفات الإلهيه.و الثانى،أنه يشعر بملك قلب المادح و قيام الجاه عنده و كونه مسخرا له.الثالث،أنه يشعر صاحبه بأن المادح يصغى إلى مدحه فينتشر بسببه جاهه.فكذلك إذا صدر المدح من بصير بصفات الكمال واسع الجاه و القدره فى نفسه،و كان على ملأ من الناس،تضاعفت لذه المدح.و تزول اللذّه الأولى بأن يصدر عن غير أهل البصيره، فإنه لا يشعر بالكمال،و تزول الثانيه بأن يصدر عن خسيس لا قدره له،لأن ملك قلبه لا يعتدّ به.و تزول الثالثه بأن يمدح فى الخلوه لا فى الملأ،إلا من حيث يتوقع أنه أيضا ربما يمدح فى الملأ.

و أما الذم،فإنه مكروه لنقيض هذه الأسباب.و أكثر الخلق أهلكهم حب المدح و كراهيه الذم،و يحملهم ذلك على المراءاه و فنون المعصيه.و علاج ذلك أن يتفكر فى اللذه الأولى،فإن مدح بكثره المال و الجاه فيعلم أنه كمال وهميّ،و هو سبب فوات كمال حقيقى،فهو جدير بأن يحزن لأجله،لا أن يفرح به.و إن مدح بكمال العلم و الورع، فينبغى أن يكون فرحه بوجود تلك الصفات و يشكر اللّه تعالى عليها لا يشكر غيره،هذا إن كان متصفا به،و أما إن كان غير متصف به،ففرحه به حماقه كفرح من يثنى عليه غيره و يقول:ما أطيب العطر الذى فى أحشائك أو أمعائك،و هو يعلم ما فيها من الأقذار و الأنتان.و هذا حال من يفرح من المدح بالورع و الزهد و العلم و هو يعلم من باطن نفسه أنه خال عنه.

و أما اللذه الثانيه و الثالثه،و هو لذه الجاه عند المادح و غيره،فعلاجه ما ذكرناه فى حب الجاه.

الأصل السابع حب الدنيا:

اشاره

و اعلم ان حب الدنيا رأس كل خطيئه.و ليس الدنيا عباره عن المال و الجاه فقط، بل هما حظّان من حظوظ الدنيا،و شعبتان من شعبها؛و شعب الدنيا كثيره.و دنياك عباره عن حالتك قبل الموت،و آخرتك عباره عن حالتك بعد الموت.و كل ما لك فيه حظ قبل

الموت فهو من دنياک؛إلا العلم و المعرفه و الحريه.و ما يبقى معک بعد الموت فإنها أيضا لذيذه عند أهل البصائر،و لكنها ليست من الدنيا و إن كانت فى الدنيا.و لهذه الحظوظ الدنيويه تعاون و تعلق بما فيه الحظ،و تعلق بأعمالک المتعلقه بإصلاحها،فهى ترجع إلى أعيان موجوده،و إلى حظک فيها،و إلى شغلک فى إصلاحها.

أما الأعيان،فهى الأرض و ما عليها؛قال اللّه تعالى: إِنّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَهً لَها (۱) [الكهف:۷]الآيه،و مطلوب الآدمى من الأرض.أما عينها فللمسكن و المحرث.و أما نباتها فللتداوى و الاقتيات.و أما معادنها فللنقود و الأوانى و الآلات.و أما حيواناتها فللمركب و المأكل.و أما الآدميون منها فللمنكح و الاستحسان.و قد جمع اللّه سبحانه ذلک فى قوله: زُيِّنَ لِلنّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِينَ (۲) [آل عمران:۱۴]الآيه.و أما حظک منها،فقد عبر القرآن الكريم عنه بالهوى فقال اللّه تعالى: وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى (۳) [النازعات:۴۰]و قال تعالى تفصيلا له: أَنَّمَا الْحَياهُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَهٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكاثُرٌ فِى الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ (۴) [الحديد:۲۰]الآيه.و ذلک يندرج فيه جميع المهلكات الباطنه من الغلّ و الكبر و الحسد و الرياء و النفاق و التفاخر و التكاثر و حب الدنيا و حب الثناء،و هى الدنيا الباطنه.

و أما الأعيان،فهى الدنيا الظاهره،و أما شغلک فى إصلاحها،فهى جمله الحرف و الصناعات التى الخلق مشغولون بها،و قد نسوا فيها أنفسهم و مبدأهم و معادهم، لاستغراقهم بإشغالهم بها،و إنما شاغلهم العلاقتان:علاقه القلب بحب حظوظها، و علاقه البدن بشغل إصلاحها.

فهذه هى حقيقه الدنيا التى حبها رأس كل خطيئه.و إنما خلقت للتزود منها إلى الآخره؛و لكن كثره أشغالها و فنون شهواتها أنست الحمقى سفرهم و مقصدهم،فقصروا عليها همتهم،فكانوا كالحاج فى البدايه،يشتغل بتعهد الناقه و علفها و تسمينها،فيتخلف عن الرفقه حتى يفوته الحج،و تهلكه سباع الباديه.

[فصل فى ان هذه الدنيا المذمومه هى بعينها مزرعه الآخره]

هذه الدنيا المذمومه المهلكه،هى بعينها مزرعه الآخره فى حق من عرفها،إذ

۱- سوره ۱۸ - آيه ۷

۲- سوره ۳ - آيه ۱۴

۳- سوره ۷۹ - آيه ۴۰

۴- سوره ۵۷ - آيه ۲۰

يعرف أنها منزل من منازل السائرين إلى اللّه عز و جل،و هى كرباط (۱)بنى على قارعه الطريق،أعد فيها العلف و الزاد و أسباب السفر.فمن تزود منها لآخرته و اقتصر منها على قدر الضروره التى ذكرناها فى المطعم و الملبس و المنكح و سائر الضرورات،فقد حرث و بذر،و سيحصد فى الآخره ما زرع.و من عرج عليها و اشتغل بلذاتها هلك.و مثل الخلق فيها كمثل قوم ركبوا سفينه فانتهت بهم إلى جزيره،فأمرهم الملّاح بالخروج لقضاء الحاجه،و خوّفهم المقام و استعجال السفينه فتفرقوا فيها،فبادر بعضهم و قضى حاجته و رجع إلى السفينه فوجد مكانا خاليا واسعا،و وقف بعضهم فنظر فى أزهار الجزيره و أنوارها و ظرائف أحجارها و عجائب غياضها و نغمات طيورها،فرجع إلى السفينه فلم يجد إلا مكانا ضيقا حرجا،و أكبّ بعضهم على تلك الأصداف و الأحجار و أعجبه حسنها فلم تسمح نفسه إلا بأن يستصحب شيئا منها،فلم يجد فى السفينه إلا مكانا ضيقا.و زادته الحجاره ثقلا و ضيقا،فلم يقدر على رميها و لم يجد لها مكانا، فحملها على عنقه و هو ينوء بأعبائها.و تولج بعضهم الغياض و نسى المركب و اشتغل بالتفرج فى تلك الأزهار و التناول من تلك الثمار و هو فى تفرجه غير خال من خوف السباع و الحذر من السقطات و النكبات،فلما رجع إلى السفينه لم يصادفها فبقى على الساحل،فافترسته السباع و مزقته الهوامّ.فهذه صوره أهل الدنيا بالإضافه إلى الدنيا و الآخره،فتأملها و استخرج وجه الموازنه فيها إن كنت ذا بصيره.

[فصل فى ان من عرف نفسه،و عرف ربه عرف وجه عداوه الدنيا للآخره]

من عرف نفسه،و عرف ربه،و عرف زينه الدنيا و عرف الآخره،شاهد بنور البصيره وجه عداوه الدنيا للآخره،إذ ينكشف له قطعا أن لا سعاده فى الآخره إلا لمن قدم على اللّه سبحانه عارفا به محبّا له؛فإن المحبه لا تناله إلا بدوام الذّكر،و إن المعرفه لا تنال إلا بدوام الطلب و الفكر،و لا يتفرغ لهما إلا من أعرض عن أشغال الدنيا.و لا تستولى المعرفه و الحب على القلب ما لم يفرغ من حب غير اللّه تعالى؛ففراغ القلب عن غير اللّه ضروره اشتغاله بحب اللّه تعالى و معرفته.و لن يتصور ذلك إلا لمعرض عن الدنيا،قانع منها بقدر الزاد و الضروره.فإن كنت من أهل البصيره فقد صرت من أهل الذوق و المشاهده؛و إن لم تكن كذلك،فكن من أهل التقليد و الإيمان،و انظر إلى

۱- الرباط:المكان الذى تربط فيه الخيل،أو هو الحصن.

تحذیر اللّه سبحانه إیاک،و الکتاب و السنه،و قد قال عز و جل: مَنْ کانَ یُرِیدُ الْحَیاهَ الدُّنْیا وَ زِینَتَها نُوَفِّ إِلَیْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِیها (۱) [هود:۱۵]الآیه.و قال تعالی: ذلِکَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَیاهَ الدُّنْیا عَلَی الْآخِرَهِ (۲) [النحل:۱۰۷]الآیه.و قال عز اسمه: فَأَمّا مَنْ طَغی وَ آثَرَ الْحَیاهَ الدُّنْیا (۳) [النازعات:۳۸،۳۷]الآیه.

و لعل ثلث القرآن فی ذم الدنیا و ذم أهلها،و قد قال صلی اللّه علیه و سلم:«الدنیا ملعونه ملعون ما فیها،إلا ما کان للّه تعالی منها».و قال صلی اللّه علیه و سلم:«یا عجبا کلّ العجب للمصدق بدار الآخره،و هو یسعی لدار الغرور».و قال علیه السلام:«الدنیا حلوه خضره،و إن اللّه مستخلفکم فیها فناظر کیف تعملون».و قال علیه السلام:«إن اللّه عز و جل لم یخلق خلقا أبغض إلیه من الدنیا،و إنه لم ینظر إلیها منذ خلقها».و قال علیه السلام:«من أصبح و الدنیا أکبر همّه فلیس من اللّه فی شیء،و ألزم قلبه أربع خصال:همّا لا ینقطع عنه أبدا،و شغلا لا یتفرغ عنه أبدا،و فقرا لا یبلغ غناه أبدا،و أملا لا یبلغ منتهاه أبدا».

و قال أبو هریره:قال صلی اللّه علیه و سلم:«یا أبا هریره ألا أریک الدنیا جمیعها؟قلت:نعم.

فأخذ بیدی إلی مزبله فیها رءوس أناس و عذرات (۴)و خرق و عظام،فقال علیه السلام:

یا أبا هریره هذه الرءوس کانت تحرص کحرصکم و تأمل آمالکم،ثم هی الیوم عظام بلا جلد،ثم ستصیر رمادا.و هذه العذرات ألوان أطعمتهم اکتسبوها من حیث اکتسبوها،ثم قذفوها من بطونهم،فأصبحت و الناس یتحامونها.و هذه الخرق البالیه کانت ریاشهم و لباسهم فأصبحت و الریاح تصفّقها.و هذه العظام عظام دوابهم التی کانوا ینتجعون (۵)علیها أطراف البلاد،فمن کان باکیا علی الدنیا فلیبک».و قال صلی اللّه علیه و سلم:«لیجیئنّ أقوام یوم القیامه و أعمالهم کجبال تهامه،فیؤمر بهم إلی النار».قالوا:یا رسول اللّه:مصلین؟ قال:«نعم،کانوا یصلون و یصومون و یأخذون هنه (۶)من اللیل،فإذا عرض لهم شیء من الدنیا وثبوا علیه».ر.

۱- سوره ۱۱ - آیه ۱۵

۲- سوره ۱۶ - آیه ۱۰۷

۳- سوره ۷۹ - آیه ۳۷

۴- عذرات:جمع عذره،و معناها الغائط.

۵- أی یطلبون و یکتسبون.و انتجع:طلب الکلأ فی موضعه.

۶- الهنه:الوقت القصیر.

و قال عیسی علیه السلام:«لا یستقیم حب الدنیا و الآخره فی قلب مؤمن،کما لا یستقیم الماء و النار فی إناء واحد».

و قال نبینا صلی اللّه علیه و سلم:«احذروا الدنیا،فإنها أسحر من هاروت و ماروت».

و قال عیسی علیه السلام:«یا معشر الحواریین ارضوا بدنیّ الدنیا مع سلامه الدین،کما رضی أهل الدّنیا بدنیّ الدین مع سلامه الدنیا».و قال عیسی علیه السلام للحواریین:«لأکل خبز الشعیر بالملح الجریش (۱)و لبس المسوح و النوم علی المزابل کثیر مع عافیه الدنیا و الآخره».

و روی أن عیسی-علیه السلام-کوشف بالدنیا فرآها فی صوره عجوز شوهاء علیها من کل زینه،فقال لها:کم نکحت؟فقالت:إنی لا أحصیهم،فقال یطلقونک أو ماتوا عنک؟فقالت:بل قتلت کلهم.فقال عیسی-علیه السلام-:عجبا لأزواجک الباقین کیف لا یعتبرون بأزواجک الماضین.

[فصل فی أن من ظن أنه یلابس الدنیا ببدنه و یخلو عنها بقلبه فهو مغرور]

اعلم أن من ظن أنه یلابس الدنیا ببدنه و یخلو عنها بقلبه فهو مغرور.و قال النبی صلی اللّه علیه و سلم:«مثل صاحب الدنیا کمثل الماشی فی الماء،هل یستطیع الذی یمشی فی الماء ألا یبتلّ قدماه؟».و کتب علیّ-رضوان اللّه علیه-إلی سلمان الفارسی-رضی اللّه عنه-:«مثل الدنیا مثل الحیه،یلین مسها و یقتل سمها،فأعرض عما یعجبک منها لقله ما یصحبک منها،وضع عنک همومها،لما أیقنت من فراقها،و کن أسرّ ما تکون بها أحذر ما تکون منها،فإن صاحبها کلما اطمأنّ منها إلی سرور أشخصه (۲)عنه مکروه».

و قال عیسی-علیه السلام-:«مثل الدنیا مثل شارب ماء البحر،کلما ازداد شربا ازداد عطشا حتی یقتله»و اعلم أن من اطمأن إلی الدنیا و هو یتیقن أنه راحل عنها هو فی غایه الحماقه،بل مثل الدنیا مثل دار هیأها صاحبها،و زینها لضیافه الواردین و الصادرین، فدخل واحد داره فقدم إلیه طبقا من ذهب علیه بخور و ریحان لیشمها و یترکه لمن یلحقه لا لیتملکه،فجهل رسمه فظن أنه وهب ذلک له،فلما تعلق به قلبه استرجع منه،فضجر

۱- الجریش:ما طحن خشنا.

۲- أشخصه:أزعجه.

و توجع،و من كان عالما برسمه انتفع به و شكره و رده بطيبه قلبه و انشراح صدره،فكذلك سنّه اللّه فى الدنيا،فإنها دار ضيافته على المجتازين لا على المقيمين ليتزودوا منها ما ينتفعون به كما ينتفع بالعاريه (۱)،ثم يتركونها لمن يلحق بعدهم بطيبه نفس من غير تعلق القلب بها لا كمن يتعلّق القلب بها.

الأصل الثامن فى الكبر:

اشاره

قال اللّه سبحانه: كَذلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّارٍ (۲) [غافر:۳۵]، و قال تعالى: فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (۳) [الزمر، ۷۲،غافر:۷۶]،و قال صلى اللّه عليه و سلم:قال اللّه تعالى:«العظمه إزارى،و الكبرياء ردائى،فمن نازعنى فيهما قصمته».قال صلى اللّه عليه و سلم:

«لا يدخل الجنه من كان فى قلبه مثقال حبه من خردل من كبر».و قال-عليه السلام-:

«يحشر الجبارون و المتكبرون يوم القيامه فى صور الذرّ،يطؤهم الناس لهوانهم على اللّه عز و جل».و قال صلى اللّه عليه و سلم لبلال:«إن فى جهنم واديا يقال له:هبهب.حق على اللّه سبحانه أن يسكنه كل جبار،فإياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه».و قال-عليه السلام-:«اللهم إنى أعوذ بك من نفخه الكبر».و قال-عليه السلام-:«لا ينظر اللّه تعالى إلى من جرّ ثوبه خيلاء».و قال-عليه السلام-:«من تعظم فى نفسه و اختال فى مشيته،لقى اللّه و هو عليه غضبان».و قال-عليه السلام-:«من تعظم فى نفسه و اختال فى مشيته،لقى اللّه و هو عليه غضبان».و قال-عليه السلام-فى فضيله التواضع:«ما زاد اللّه عبدا بعفو إلا عزّا،و ما تواضع أحد للّه إلا رفعه اللّه».و قال-عليه السلام-:«طوبى لمن تواضع فى غير مسكنه».و أوحى اللّه تعالى إلى موسى-عليه السلام-:«إنما أقبل صلاه من تواضع لعظمتى و لم يتعظم على خلقى،و ألزم قلبه خوفى،و قطع النهار بذكرى، و كفّ نفسه عن الشهوات من أجلى».و قال نبينا صلى اللّه عليه و سلم:«إذا تواضع العبد للّه رفعه اللّه إلى السماء السابعه».و قال-عليه السلام-:«إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعه،فتواضعوا رحمكم اللّه»و قال-عليه السلام-:«إنه ليعجبنى أن يحمل الرجل الشىء فى يده فيكون مهنه لأهله يدفع به الكبر عن نفسه».

[فصل فى حقيقه الكبر أن يرى نفسه فوق غيره فى صفات الكمال]

حقيقه الكبر أن يرى نفسه فوق غيره فى صفات الكمال،فيحصل فيه نفخه و هزه

۱- العاريه:ما تملكه بالإعاره و ما يسترد منك فى أى وقت.

۲- سوره ۴۰ - آيه ۳۵

۳- سوره ۳۹ - آيه ۷۲

من هذه الرذيله و العقيده،و لذلك قال صلى اللّه عليه و سلم:«أعوذ بك من نفخه الكبر»،و لذلك استأذن بعضهم عمر-رضى اللّه عنه-ليعظ الناس بعد الصبح،فقال:لأخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا،ثم هذه النفخه يصدر منها أفعال على الظاهر،كالترفع فى المجالس، و التقدم فى الطريق،و النظر بعين التحقير و الغضب إذا لم يبدأ السلام و قصّر فى حوائجه و تعظيمه،و يحمله على أن يأنف إذا وعظ،و يعنّف إذا وعظ و علّم،و يجحد الحق إذا ناظر،و ينظر إلى العامه كأنه ينظر إلى الحمير.و إنما عظّم الكبر حتى لا يدخل الجنه من كان فى قلبه مثقال ذره منه،لأن تحته ثلاثه أنواع من الخبائث العظيمه:

أولها:أنه منازعه اللّه تعالى فى خصوص صفته،إذ الكبرياء رداؤه،كما قال اللّه؛ فإن العظمه لا تليق إلا به.و من أين تليق العظمه بالعبد الذليل الذى لا يملك من أمر نفسه شيئا،فضلا عن أمر غيره.

الثانيه:أن يحمله على جحد الحق و ازدراء الخلق.قال صلى اللّه عليه و سلم فى بيان الكبر:

«الكبر من سفه الحقّ،و غمص (۱)الناس،و الأنفه من الحق،تغلق باب السعاده،و كذا استحقار الخلق».و قال بعضهم:إن اللّه سبحانه خبأ ثلاثا فى ثلاث:خبأ رضاه فى طاعته،فلا تحقرن شيئا منها لعل رضاء اللّه فيه،و خبأ سخطه فى معصيته،فلا تحقرن شيئا منها صغيره،فلعل سخط اللّه تعالى فيها،و خبأ ولايته فى عباده،فلا تحقرن أحدا منهم فلعله ولىّ اللّه تعالى.

الثالثه:أنه يحول بينه و بين جميع الأخلاق المحموده،لأن المتكبر لا يقدر أن يحب للناس ما يحب لنفسه،و لا يقدر على التواضع،و على ترك الأنفه و الحسد و الغضب،و لا يقدر على كظم الغيظ،و على اللطف فى النصح،و على ترك الرياء.

و بالجمله فلا يبقى خلق مذموم إلا و يضطر المتكبر إلى ارتكابه،و لا خلق محمود إلا و يضطر إلى تركه.

[فصل فى ان العلاج الجملى لقمع رذيله الكبر أن يعرف الإنسان نفسه]

العلاج الجملى لقمع رذيله الكبر أن يعرف الإنسان نفسه،و أن أوله نطفه مذره (۲)

۱- الغمص:الاحتقار.

۲- مذره:فاسده.

و آخره جیفه قذره،و هو فیما بین ذلک یحمل العذره،و یفهم قوله تعالی: قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، مِنْ نُطْفَهٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ، ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ، ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ (۱) [عبس:۱۷-۲۱]،فلیعلم أنه خلق من کتم (۲)العدم،و أنه لم یک شیئا مذکورا؛فلا شیء أقل من العدم.ثم خلقه من تراب،ثم من نطفه،ثم من علقه،ثم من مضغه، لیس له سمع و لا بصر و لا حیاه و لا قوه.و خلق له ذلک کله و هو بعد غایه النقصان تستولی علیه الأمراض و العلل،و یتضاد فیه الطبائع،فیهدم بعضها بعضا،فیمرض کرها و یجوع کرها،و یعطش کرها،و یرید أن یعلم الشیء فیجهله،و یرید أن ینسی الشیء فیذکره، و یکره الشیء فینفعه،و یشتهی الشیء فیضره،لا یأمن فی لحظه من أن یختلس روحه أو عقله أو صحته أو عضو من أعضائه،ثم آخره الموت و التعرض للعقاب و الحساب.فإن کان من أهل النار فالخنزیر خیر منه،فمن أین یلیق به الکبر و هو عبد مملوک ذلیل لا یقدر علی شیء.قال الحسن البصری-رحمه اللّه علیه-لبعض من یتبختر فی مشیته:«ما هذه المشیه لمن فی بطنه خراء»،فکیف یلیق الکبر بمن یغسل العذره بیده مرتین فی کل یوم،و هو حامل لها علی الدوام؟

[فصل فی علاج الکبر علی التفصیل]

علاج الکبر علی التفصیل بالنظر إلی ما به التکبر،و هو أربع خصال:

الأولی العلم:

قال صلی اللّه علیه و سلم:«آفه العلم الخیلاء».و قال-علیه السلام-:«لا تکونوا من جبابره العلماء،فلا یفی علمکم بجهلکم».و قلّ ما یخلو العالم من آفه الکبر،فإنه یری نفسه فوق الناس بالعلم الذی هو أشرف فضیله عند اللّه عزّ و جل،فیتکبّر تاره بالدّین بأن یری نفسه عند اللّه عز و جل أفضل من غیره،و تاره فی الدنیا بأن یری حقّه واجبا علی الناس، و یتعجب منهم إن لم یتواضعوا له،و هذا لأن یسمّی جاهلا أولی،لأنّ العلم الحقیقیّ ما یعرف به ربه و نفسه و خطر خاتمته و حجه اللّه عز و جل علیه،و یلاحظ الخاتمه فلا یری جاهلا إلا و یقول:إنه عصی اللّه تعالی بجهل،و أنا عصیته بعلم،فحجه اللّه تعالی علی آکد.قال أبو الدرداء-رضی اللّه عنه-:من ازداد علما ازداد تواضعا.قال اللّه تعالی

۱- سوره ۸۰ - آیه ۱۷

۲- کتم:سرّ.

لنبیه صلی اللّه علیه و سلم: وَ اخْفِضْ جَناحَکَ لِمَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ (۱) [الشعراء:۲۱۵].و قال- علیه السلام-:«یکون قوم یقرءون القرآن فلا یجاوز حناجرهم،یقولون قد قرأنا القرآن،فمن أقرأ منا و من أعلم منا؟»،ثم التفت و قال:«أولئک منکم أیّها الأمه (۲)، أولئک هم وقود النار».و من هذا اشتد حذر السلف،حتی إنه صلی حذیفه مره-رحمه اللّه-بقوم،فلما سلم قال:«لتلتمسنّ إماما غیری أو لتصلّنّ وحدانا،إنی رأیت فی نفسی أنه لیس فی القوم أفضل منی».و ینبغی أن یتذکر الإنسان أنه کم من مسلم نظر إلی عمر- رضی اللّه عنه-قبل إسلامه و استحقره،ثم کانت خاتمه عمر کما کانت،و ذلک المسلم لعله ارتد بعده،فکان المتکبر من أهل النار و المتکبّر علیه من أهل الجنه.و ما من عالم إلا و یتصور أن یختم له بالسوء،و یختم للجاهل بالسعاده؛فکیف یکون الکبر مع معرفه ذلک،و قد قال صلی اللّه علیه و سلم:«یؤتی بالعالم یوم القیامه فیلقی فی النار،فتندلق أقتابه (۳)فتدور به کما یدور الحمار بالرحا،فیطیف به أهل النار فیقولون:ما لک!فیقول کنت آمر بالخیر و لا آتیه،و أنهی عن الشر و آتیه».فأیّ عالم یسلم من ذلک فلم لا یشغله خوفه عن التکبر؟ و قد قال اللّه تعالی فی بلعم بن باعورا و هو من أکابر العلماء: فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ الْکَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَیْهِ یَلْهَثْ أَوْ تَتْرُکْهُ یَلْهَثْ (۴) [الأعراف:۱۷۶]الآیه،لأنه أخلد إلی الشهوات.

و قال بعلماء الیهود: کَمَثَلِ الْحِمارِ یَحْمِلُ أَسْفاراً (۵) [الجمعه:۵].فلینظر فی الأخبار التی وردت فی علماء السوء حتی یغلب خوفه کبره؛و إنما یبقی الکبر مع هذا لمن اشتغل بعلوم غیر نافعه فی الدین،کالجدل و اللغه و غیرهما،أو لمن اشتغل بالعلم و هو خبیث الباطن فازداد خبثه بسببه.

السبب الثانی الورع و العباده:

و لا یخلو المتعبد فی باطنه عن کبر،و قد تنتهی الحماقه ببعضهم إلی أن یحمل مصائب الناس و مسراتهم علی کرامته.فمن آذاه و مات أو مرض یقول:قد رأیتم ما فعل اللّه سبحانه به.و ربما یقول عند الإیذاء:سترون ما یجری علیه.و لیس یدری الأحمق أن جماعه من الکفار ضربوا الأنبیاء و آذوهم،ثم متّعوا فی الدنیا فلم ینتقم منهم،بل ربما أسلم بعضهم فسعد فی الدنیا و الآخره،فکأنه یری نفسه أفضل من الأنبیاء و مؤذیه.

۱- سوره ۲۶ - آیه ۲۱۵

۲- هکذا فی الأصل و لعلها تصحیف«الأئمه».

۳- أی یخرج من بطنه أمعاؤه.

۴- سوره ۷ - آیه ۱۷۶

۵- سوره ۶۲ - آیه ۵

أخس من الكفار.و حقّ العابد إذا نظر إلى عالم أن يتواضع له لجهله،و إن نظر إلى فاسق أن يقول لعل فيه خلقا باطنا يستر معاصيه الظاهره،و لعل فى باطنى حسدا أو رياء أو خبثا خفيّا مقتنى اللّه سبحانه عليه فلا يقبل أعمالى الظاهره،و أن اللّه سبحانه ينظر إلى القلوب لا- إلى الصور.و من الخبث الباطن الكبر،إذ روى أن رجلا- من بنى إسرائيل يقال له خليع بنى إسرائيل لكثره فساده،جلس إلى عابد بنى إسرائيل و قال:لعل اللّه تعالى يرحمنى ببركته،فقال العابد فى نفسه كيف يجلس معى مثل هذا الفاسق؟و قال له:قم عنى!فأوحى اللّه سبحانه إلى نبىّ زمانه:مرهما ليستأنفا العمل،فقد غفرت للخليع و أحبطت عمل العابد.و روى أن رجلا وطئ رقبه عابد من بنى إسرائيل و هو ساجد، فقال له:ارفع،فو اللّه لا يغفر اللّه لك،فأوحى اللّه سبحانه إليه أيها المتألّى (۱)علىّ بل لا- يغفر اللّه لك.فالأكياس (۲)يحذرون من ذلك و يقولون ما كان يقول له عطاء السلمى مع شدّه ورعه؛كان إذا هبت ريح عاصف أو صاعقه يقول:ما يصيب الناس ذلك إلا بسببى،و لو مات عطاء لتخلصوا.و قال بعضهم فى عرفات:أنا أرجو الرحمه لجميعهم لو لا- كونى فيهم.فانظر كم بين من يخلص العمل و الورع ثم يخاف على نفسه،و بين من يتكلف أعمالا ظاهره لعلها لا تخلو عن الرياء و الافات ثم يمن على اللّه بعمله.

السبب الثالث الكبر بالنسب:

و علاجه أن ينظر فى نسبه،فإن أباه نطفه مذره،وجده التراب،و لا أقذر من النطفه و لا أذل من التراب.ثم المفتخر بالنسب يفتخر بخصال غيره،و لو نطق آباؤه لقالوا:من أنت فى نفسك!ما أنت إلا دوده من بول من له خصله حسنه؛و لذلك قيل:

لئن فخرت بآباء ذوى نسب لقد صدقت و لكن بئس ما ولدوا

و كيف يتكبر بنسب ذوى الدنيا و لعلهم صاروا حممه (۳)فى النار يودّون لو كانوا خنازير أو كلابا يتخلصون مما هم فيه.و كيف يتكبر بنسب أهل الدّين و هم فى أنفسهم ما كانوا يتكبرون،و كان شرفهم بالدّين،و من الدّين التواضع.و كان أحدهم يقول:ر.

۱- المتألى:الحالف.

۲- جمع كيس و هو ضد الحمق و يقال الغلبه بالكياسه.

۳- حممه:كل ما احترق بالنار.

ليتنى كنت تبنه و ليتنى كنت طائرا.كلهم قد شغلهم خوف العاقبه عن الكبر مع عظم علمهم و عملهم.فكيف يتكبرون بنسبهم إلى من هو عاطل عن خصالهم!

السبب الرابع الكبر بالمال و الجمال و الأتباع:

و الكبر بهم جهل،فإنها أمور خارجه عن الذات،أعنى المال و الأتباع.و كيف يتكبر بخصله تمتد إليها يد السارق و الغاصب!و كيف يفتخر بالجمال و حمّى شهر تفسده و الجدرىّ يزيله!و لو تفكر الجميل فى أقذار باطنه لأدهشه ذلك عن تزويق ظاهره،و لو لم يتعهد الجميل بدنه أسبوعا بالغسل و التنظيف لصار أقذر من الجيفه،من تغيّر النكهه و الصّنان (۱)و رائحه العذره،و كراهيه الوسخ و المخاط و الرّمص (۲).فمن أين للمزبله أن تفتخر بجمالها!و الإنسان بالحقيقه مزبله،فإنه منبع الأقذار و النجاسات.

الأصل التاسع العجب:

اشاره

قال اللّه تعالى: وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ (۳) [التوبه:۲۵]الآيه.و قال عز و جل: وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (۴) [الكهف:۱۰۴]،و قال: فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى (۵) [النجم:۳۲].و قال-عليه السلام-:«ثلاث مهلكات:

شحّ مطاع،و هوى متبع،و إعجاب المرء بنفسه».و قال ابن مسعود-رضى اللّه عنه-:

«الهلاك فى اثنين:القنوط و العجب».و إنما جمع بينهما لأن القانط لا يطلب السعاده لقنوطه،و المعجب لا يطلبها لظنه أنه قد ظفر بها.و قال صلى اللّه عليه و سلم:«لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أعظم من ذلك،العجب العجب».و قيل لعائشه-رضى اللّه عنها-:متى يكون الرجل مسيئا؟فقالت:«إذا ظن أنه محسن».

و نظر رجل إلى بشر بن منصور و هو يطيل الصلاه و يحسن العباده،فلما فرغ قال:«لا يغرّنك ما رأيت منى،فإن إبليس عبد اللّه تعالى و صلّى آلاف السنين،ثم صار إلى ما صار إليه».

۱- الصنان:الرائحه الكريهه مصدرها البدن.

۲- الرمص:الوسخ الأبيض يكون فى مجرى الدمع من العينين.

۳- سوره ۹ - آيه ۲۵

۴- سوره ۱۸ - آيه ۱۰۴

۵- سوره ۵۳ - آيه ۳۲

[فصل فی ان حقیقه العجب استعظام النفس و خصالها]

حقیقه العجب استعظام النفس و خصالها التی هی من النعم،و الرکون إلیها مع نسیان إضافتها إلی المنعم و الأمن من زوالها.فإن أضاف إلیه أن رأی لنفسه عند اللّه حقا و مکانا،سمی ذلک إدلالا؛و فی الخبر أن صلاه المدلّ لا ترتفع فوق رأسه،و علامه إدلاله أن یتعجب من رد دعائه،و یتعجب من استقامه حال من یؤذیه.و العجب هو سبب الکبر،و لکن الکبر یستدعی متکبرا علیه،و العجب مقصور علی الانفراد.أما من رأی نعمه اللّه علی نفسه بعمل أو علم أو غیره و هو خائف علی زواله،و فرح بنعمه اللّه تعالی علیه من حیث إنها من اللّه،فلیس بمعجب،بل العجب أن یأمن و ینسی الإضافه إلی المنعم.

[فصل العجب جهل محض،فعلاجه العلم المحض]

العجب جهل محض،فعلاجه العلم المحض،فإنه إن أعجب بقوه و جمال أو أمر مما لیس یتعلق باختیاره،فهو جهل أیضا،إذ لیس ذلک إلیه،فینبغی أن یعجب بمن أعطاه ذلک من غیر استحقاق،و ینبغی أن یتفکر فی زوال ذلک المخوف علی القرب بأدنی مرض و ضعف،و إن أعجب بعلمه و عمله و ما یدخل تحت اختیاره فینبغی أن یتفکر فی تلک الأعمال بما ذا تیسرت له،و أنها لا تتیسر إلا بعضو و قدره و إراده و معرفه،و أن جمیع ذلک من خلق اللّه عز و جل.و إذا خلق اللّه العضو و القدره و سلّط الدواعی و صرّف الصوارف،کان حصول الفعل ضروریّا،و لیس للمضطر أن یتعجب بما یحصل منه اضطرارا،و هو مضطر إلی اختیاره،فإنه لا یفعل إن شاء،و لکن إن یشأ اللّه،شاء أو لم یشأ،مهما خلقت فیه المشیئه،قال اللّه سبحانه و تعالی: وَ ما تَشاؤُنَ إِلاّ أَنْ یَشاءَ اللّهُ (۱) [الإنسان:۳۰،التکویر:۲۹]فمفتاح العمل انجزام المشیئه و انصراف الدواعی الصارفه مع کمال القدره و الأعضاء،و کل ذلک بید اللّه تعالی.أ رأیت لو کان بید ملک مفتاح خزانه فأعطاک إیاه فأخذت منها أموالا.أتعجب بجوده إذا أعطاک المفتاح بغیر استحقاق،أو بکمالک فی أخذه و أی کمال فی الأخذ بعد التمکّن؟

[فصل من العجائب أن یعجب العاقل بعلمه و عقله]

و من العجائب أن یعجب العاقل بعلمه و عقله،حتی یتعجب إن أفقره اللّه تعالی و أغنی بعض الجهال و یقول:کیف وسّع النعمه علی الجاهل و حرمنی؟فیقال له:کیف رزقک العلم و العقل و حرمهما الجاهل؟فهذه عطیه منه،أ فتجعلها سببا لاستحقاق عطیه

۱- سوره ۷۶ - آیه ۳۰

أخرى؟بل لو جمع لك بين العقل و الغنى و حرم الجاهل منهما جميعا كان ذلك أولى بالتعجب،و ما تعجب العاقل منه إلا كتعجب من أعطاه الملك فرسا و أعطى غيره غلاما، و يقول:كيف يعطى الغلام لفلان و لا فرس له،و يحرمنى و أنا صاحب الفرس؟و إنما صار صاحب الفرس بعطائه،فيجعل عطاءه سببا لاستحقاق عطاء آخر،و هو عين الجهل،بل العاقل يكون أبدا تعجبه من فضل اللّه تعالى وجوده من حيث أعطاه العلم و العقل،و وفقه للعباده من غير تقدم استحقاق منه،و حرم غيره ذلك و سلط عليه دواعى الفساد،و اضطره إليه بصرف دواعى الخير عنه،و ذلك بغير جريمه سابقه منه.و إذا شاهد ذلك تحقيقا غلب عليه الخوف،إذ قد يقول:قد أنعم اللّه علىّ فى الدنيا من غير وسيله،و خصّنى به دون غيرى،و من يفعل مثل هذا بغير سبب،فيوشك أن يعذب و يسلب النعم أيضا بغير جنايه و سبب؛فما ذا أصنع إن كان ما أفاضه علىّ من النعم مكرا أو استدراجا بما فتحه؟كما قال اللّه تعالى: فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً (۱) [الأنعام:۴۴]و كما قال تعالى: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (۲) [الأعراف:۱۸۲].

الأصل العاشر فى الرياء:

اشاره

قال اللّه تعالى: فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ اَلَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ اَلَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ (۳) [الماعون:۶،۵،۴]و قال تعالى: إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَ لا شُكُوراً (۴) [الإنسان:۹]،و قال تعالى: فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ (۵) [الكهف:۱۱۰]الآيه،أراد به الإخلاص.و قال صلى اللّه عليه و سلم:«إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشّرك الأصغر»،قيل:و ما هو؟قال-عليه السلام-:«الرياء،يقول اللّه عز و جل يوم القيامه،إذا جازى العباد بأعمالهم:اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء؟».

و قال صلى اللّه عليه و سلم:«استعيذوا باللّه من جبّ الحزن»،قيل:و ما هو؟قال-عليه السلام-:

«واد فى جهنم أعد للقرّاء المرائين».و قد قال تعالى:«من عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فهو له كله و أنا منه برىء،و أنا أغنى الأغنياء عن الشّرك».و قال-عليه السلام-:«لا يقبل اللّه عملا فيه مقدار ذره من الرياء».و قال عليه السلام:«إن أدنى الرياء الشرك».و قال عيسى-عليه السلام-:«إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه و لحيته و يمسح شفتيه

۱- سوره ۶ - آيه ۴۴

۲- سوره ۷ - آيه ۱۸۲

۳- سوره ۱۰۷ - آيه ۴

۴- سوره ۷۶ - آيه ۹

۵- سوره ۱۸ - آيه ۱۱۰

لکیلا یری الناس أنه صائم،و إذا أعطی بیمینه فلیخف عن شماله،و إذا صلی فلیرخ ستر بابه،فإن اللّه تعالی یقسم الثناء کما یقسم الرزق».و لهذا قال عمر-رضی اللّه عنه- لرجل طأطأ رقبته:«یا صاحب الرقبه ارفع رقبتک؛لیس الخشوع فی الرقاب،و إنما الخشوع فی القلوب».و قال نبینا صلی اللّه علیه و سلم:«إن المرائی ینادی یوم القیامه بأربعه أسماء:یا مرائی،یا غاوی،یا فاجر،یا خاسر،اذهب فخذ أجرک ممن عملت له،فلا أجر لک عندنا».و قال قتاده-رحمه اللّه علیه-:إذا راءی العبد یقول اللّه تعالی:«انظروا کیف یستهزئ بی».و قال الحسن-رحمه اللّه علیه-:«صحبت أقواما إن کان أحدهم لتعرض له الحکمه لو نطق بها نفعته و نفعت أصحابه،و ما یمنعه منها إلا الشهره».

فصل

حقیقه الریاء طلب المنزله فی قلوب الناس بالعبادات و أعمال الخیر.و ما یراءی به سته أصناف:

الأول:الریاء من جهه البدن:و هو إظهار النحول و الصغار لیظنّ به السهر و الصیام،و إظهار الحزن لیظن به أنه شدید الاهتمام بأمر الدین،و إظهار شعث الشعر لیظن به أنه لشده استغراقه بالدین لیس یتفرّغ لنفسه،و إظهار ذبول (۱)الشفتین لیستدل به علی صومه،و خفض الصوت لیستدل به علی ضعفه من شده المجاهده.

الثانی:الریاء بالهیئه:کحلق الشارب و إطراق الرأس فی المشی،و الهدوء فی الحرکه،و إبقاء أثر السجود علی الوجه،و تغمیض العینین لیظن به أنه فی الوجد و المکاشفه أو غائص فی الفکر.

الثالث:الریاء فی الثیاب:کلبس الصوف و الثوب الخشن و تقصیره إلی قریب من الساق،و تقصیر الکمین و ترک الثوب مخرّقا و وسخا،لیظنّ أنه مستغرق الوقت عن الفراغ له،و لبس المرقّعه و السجاده،لیظنّ أنه من الصوفیه مع إفلاسه عن حقائق التصوف،و لبس الدّراعه و الطیلسان (۲)،و توسیع الأکمام لیظن أنه عالم،و التقنّع فوق

۱- ذبل الشیء ذبولا ذهبت ندوته.و الذبلاء:الیابسه الشفه.

۲- الدراعه:القمیص.و الطیلسان،فارسی معرب:لباس العجم.

العمامه بإزار،و لبس الجوارب ليظنّ أنه متقشف لشده ورعه من غبار الطريق.ثم منهم من يطلب المنزله فى قلوب أهل الصلاح،فيلازم الثوب الخلق،و لو لبس ثوبا جديدا لكان عنده كالذبح،إذ يخاف أن يقول الناس قد بدا له من الزهد.و منهم من يطلب المنزله من السلاطين و التجار،و لو لبس خلقان الثياب لازدروه،و لو لبس فاخر الثياب لم يعتقدوا زهده،فيطلب المرقعه المصبوغه و الفوطه الرقيقه،و الأصواف الرفيعه،فتكون ثيابهم فى القيمه و النفاسه كثياب الأغنياء،و فى اللون و الهيئه كثياب الصلحاء،و لو كلّفوا أن يلبسوا الخلق لكان عندهم كالذبح خيفه عن السقوط من أعين الأغنياء،و لو كلّفوا لبس الخزّ و القصبىّ و الديبقى و ما يباح لبسه،قيمته دون قيمه ثيابهم،لاشتد عليهم خوفا عن سقوط منزلتهم عن القلوب الصلحاء،إذ يقولون:بدا له من الزهد.

الرابع:الرياء بالقول:كرياء أهل الوعظ و التذكير،و تحسين الألفاظ و تسجيعها، و النطق بالحكمه،و الأخبار،و كلام السلف،مع ترقيق الصوت و إظهار الحزن،مع الخلوّ عن حقيقه الصدق و الإخلاص فى الباطن،بل ليظنّ به ذلك،و كادّعاء حفظ الحديث و لقاء الشيوخ و المبادره إلى الحديث أنه صحيح أو سقيم،ليظن به غزاره العلم.و كتحريك الشفتين بالذّكر،و الأمر بالمعروف بمشهد الناس مع خلوّ القلب عن التفجع بالمعصيه.و كإظهار الغضب عن المنكرات و الأسف عن المعاصى مع خلوّ القلب عن التألم به.

الخامس:الرياء بالعمل:كتطويل القيام و تحسين الركوع و السجود،و إطراق الرأس،و قله الالتفات،و التصدّق،و الصوم،و الحج،و الإخبات (۱)فى المشى مع إرخاء الجفون،مع أن اللّه تعالى عالم أن باطنه لو كان خاليا لما فعل شيئا من ذلك،بل تساهل فى الصلاه و تسرّع فى المشى،و قد يفعل ذلك فى المشى (۲)،فإذا شعر باطلاع غيره عليه عاد إلى السكينه كى يظن به الخشوع.

السادس:الرياء بكثره التلامذه و الأصحاب و كثره ذكر الشيوخ:ليظن أنه لقى شيوخا كثيره،و كمن يحب أن يزوره العلماء و السلاطين ليقال إنه ممن يتبرّك به.ع.

۱- الإخبات:الإبطاء و التخشع،و هنا بمعنى التمكن.

۲- أى يتسرع.

فهذه مجامع ما يراءى به فى الدين؛و كل ذلك حرام،بل هو من الكبائر.و أما طلب المنزله فى قلوب الناس بأفعال ليست من العبادات و أعمال الدين فليست بحرام،ما لم يكن فيه تلبيس كما ذكرناه فى طلب الجاه.فأهل الدنيا قد يطلبون الجاه بكثره المال، و الغلمان،و حسن الثياب الفاخره،و حفظ الأشعار،و علم الطب،و الحساب،و النحو، و اللغه،و غير ذلك من الأعمال و الأحوال.و لم يحرم ذلك ما لم ينته إلى الإيذاء بالتكبر و إلى أخلاق أخرى مذمومه،و إنما استقصينا أقسام الرياء لأنه أغلب الأخلاق الذّميمه على النفوس،فمن لا يعرف الشرّ و مواقعه،لا يمكنه أن يتّقيه.

[فصل الرياء على درجات خبيثه]

الرياء على درجات خبيثه:

إحداها:أن لا يكون بالأمور الدينيه و العبادات،كالذى يلبس عند الخروج ثيابا حسنه خلاف ما يلبسه فى الخلوه،و كالذى ينفق فى الضيافات و على الأغنياء أموالا، ليعتقد أنه سخى،لا ليعتقد أنه ورع صالح،فذلك ليس بحرام؛فإنّ تملك القلوب كتملك الأموال.نعم،القليل منه صالح نافع،و الكثير منه يلهى عن ذكر اللّه،كالكثير من المال.و مهما انصرفت الهمه إلى سعه الجاه،فيجرّ ذلك إلى الغفله و المعاصى، فيكون محذورا بذلك لا لنفسه،و أما إظهار الشمائل التى ذكرناها ليعتقد الناس فيه الدين و الورع فحرام لشيئين:أحدهما،أنه تلبيس إذا أراد أن يعتقد الناس أنه مخلص مطيع للّه محبّ،و هو بهذه النيه فاسق ممقوت عند اللّه.و لو سلّم الرجل دراهم إلى جماعه يخيل إليهم أنه يجود عليهم بها،و إنما هى ديون لازمه،عصى لتلبيسه،و إن لم يطلب به أن يعتقد صلاحه لأن ملك القلوب بالتلبيس حرام.

الثانى:أنه إذا قصد بعباده اللّه خلق اللّه فهو مستهزئ،و من وقف بين يدى ملك فى معرض الخدمه و ليس غرضه ذلك بل غرضه ملاحظه عبد من عبيد الملك أو جاريه من جواريه.فانظر ما ذا يستحقه من النّكال لاستهزائه بالملك،فكأنه إذا قصد العباد بالعباده فقد اعتقد أن عباد اللّه أقدر على نفعه و ضره من اللّه تعالى،إذ عظمه العباد فى قلبه دعته إلى أن يتجمل عندهم بعباده اللّه،و لهذا سمى الرياء الشرك الأصغر،ثم يزداد الإثم بزياده فساد القصد و النيه.

و من المرائين من لا يطلب إلا مجرد الجاه.و منهم من يطلب أن يودع الودائع

و توقف عنده الأوقاف و مال الأيتام ليختزل منها،و ذلك أخبث لا محاله.و منهم من يرائى ليقصد إليه النساء و الصبيان،ليتمكن من الفجور،أو ليكثر عنده المال ليصرفه إلى الخمر و الملاهى،و هذا هو الأعظم،إذ جعل عباده اللّه تعالى وسيله إلى مخالفته، و العياذ باللّه.

[فصل يعظم بما به المراءاه و بقوه قصد الرياء]

كما يعظم الرياء و يتغلظ إثمه بسبب اختلاف الغرض الباعث عليه،فيعظم أيضا بما به المراءاه و بقوه قصد الرياء.أما ما به المراءاه فهى على ثلاث درجات:أغلظها أن يرائى بأصل الإيمان،كالمنافق يظهر أنه مسلم و ليس بمسلم بقلبه،و كالملحد و معتقد الإباحه يظهر أنه مستديم الإيمان و قد انسلّ منه باطنه.الثانيه:الرياء بأصل العبادات، كمن يصلى و يخرج الزكاه بين يدى الناس،و اللّه يعلم من باطنه أنه لو خلا بنفسه لم يفعل ذلك.الثالثه:و هى أدناها،أن لا يرائى بالفرائض و يرائى بالنوافل،كالذى يكثر النافله،و يحسن هيئه الفريضه،و يخرج الزكاه من أجود ماله،أو يتهجد أو يصوم يوم عرفه و عاشوراء،و اللّه يعلم من باطنه أنه لو خلا بنفسه لم يفعل شيئا من ذلك؛و هذا أيضا حرام،و إن كان لا ينتهى شده العقوبه فيه إلى حدّ الرياء بالأصول.

و أما تغليظه بدرجات القصد فهو أنه قد يتجرد قصد الرياء حتى يصلّى مثلا على غير طهاره لأجل الناس،أو يصوم و لو خلا بنفسه لأفطر،و قد يضاف إليه قصد العباده أيضا،و له ثلاث أحوال:إحداها:أن تكون نيه العباده باعثه مستقله لو خلا بنفسه، و لكن زاده رؤيه غيره و مشاهدته نشاطا،و خف عليه العمل بسببه،فأرجو أن لا يحبط ذلك القدر عمله بل تصح عبادته و يثاب عليها،و يعاقب على قصد الرياء أو ينقص من ثوابه.الثانيه:أن يكون قصد العباده ضعيفا بحيث لو انفرد عن الناس ما استقل بالحمل على العباده؛فهذا لا تصح عبادته،و القصد الضعيف لا ينفى عنه شده المقت.الثالثه:

أن يتساوى القصدان بحيث لا يستقلّ كلّ واحد بالحمل لو انفرد،أو لا ينبعث للفعل بأحدهما بل بمجموعهما.فهذا قد أصلح شيئا و أفسد مثله،فالغالب أنه لا يسلّم رأسا برأس،و يحتمل أن يقال إذا تساوى القصدان،فأحدهما كفّاره للآخر؛و قوله تعالى:

«أنا أغنى الأغنياء عن الشرك»يدل على أنه لا يقبله و لا يثيبه عليه.أما إنه يعاقبه عليه ففيه نظر،فالأغلب عندى-و العلم عند اللّه- أنه لا يخلو عن إثم و عقاب.

فصل

اعلم أن بعض الرياء جليّ،و بعضه أخفى من دبيب النمل.أما الجليّ،فما يبعث على العمل،حتى لولاه لم يرغب فى العمل،و أخفى منه أن لا يستقل بالحمل عليه، و لكن يخفف العمل و يزيد فى نشاطه،كالذى يتهجد كل ليله و إذا كان عنده ضيف زاد نشاطه؛و أخفى منه أن لا يزيد نشاطه،و لكن لو اطّلع غيره على تهجده قبل فراغه أو بعده فرح به و وجد فى نفسه هزّه،و ذلك يدل على أن الرياء كان مستكنّا فى باطن القلب استكنان النار تحت الرماد حتى ترشّح منه السرور عند الاطلاع،و قد كان غافلا عنه قبله،و أخفى منه أن لا يسر بالاطلاع،لكن يتوقع أن يبدأ بالسلام و يوقر،و يتعجب ممن يسيء إليه و لا يسامحه فى المعامله،و لا يحترمه،و ذلك يدل على أنه يمنّ على الناس بعمله،فكأنه يتوقع احترامهم و توقيرهم بعبادته مع إخفائه عنهم.و أمثال هذه الخفايا لا يخلو عنها إلا الصدّيقون،و جميع ذلك إثم،و يخاف منه إحباط العمل.نعم،لا بأس أن يفرح باطلاع غيره عليه إذا كان فرحه باللّه تعالى من حيث أظهر منه الجميل،و ستر منه القبيح،مع أنه قصد سترهما جميعا،فيفرح بلطف صنع اللّه تعالى؛و كذلك يفرح لأنه يبشره بأنه حيث أحسن صنعه به فى الدنيا،فكذلك يصنع به فى الآخره.أو يفرح ليقتدى به من يراه أو يطيع اللّه بحمده له عليه.و علامه هذا أن يفرح أيضا،إذا اطلع على غيره ممن يرتجى قدوته.

و من أجل خفاء أبواب الرياء و شده استيلائه على الباطن احترز أولو الحزم فأخفوا عبادتهم،و جاهدوا أنفسهم.و قد قال علىّ- رضى اللّه عنه-:إن اللّه عز و جل يقول للقراء يوم القيامه،«أ لم يكن يرخّص عليكم فى السعر،أو لم تكونوا تبدءون بالسلام، أ لم تكن تقضى لكم الحوائج؟لا أجر لكم فقد استوفيتم أجوركم».فاجتهد إن أردت الخلاص أن يكون الناس عندك كالبهائم و الصبيان.فلا تفرق فى عبادتك بين وجودهم و عدمهم،و علمهم بها أو غفلتهم عنها،و تقنع بعلم اللّه تعالى وحده،و تطلب الأجر منه، فإنه لا يقبل إلا الخالص كى لا تحرم من فائدته فى أحوج أوقاتك إليه.

[فصل ما أقدر على انفكاك الرياء الخفىّ]

لعلك تقول ما أقدر على انفكاك الرياء الخفىّ كما وصفته،و إن قدرت على الرياء الجلى،فهل تنعقد عبادتى مع ذلك؟

فاعلم أن وارد الرياء لا يخلو إما أن يرد مع أول العمل،أو فی دوامه،أو بعد الفراغ منه.أما ما يقارن الابتداء فيبطله و يمنع انعقاده إن صار باعثا مؤثرا فی الحمل علی العمل،بل أول العقد يجب أن يكون خالصا،و إنما يبطل بالرياء الباعث علی أصل العمل.و أما إذا لم يحمل إلا علی المبادره فی أول الوقت مثلا-فأظن-و العلم عند اللّه تعالی-أن أصل الصلاه يصح،و إنما تفوته فضيله المبادره،و يعصی بقصد المراءاه به،و لكن يقصد الفرض عنه.و أما ما يرد فی دوام الصلاه-إن أبطل باعث الصلاه-فتبطل الصلاه؛مثاله:أن يحضر فی أثناء الصلاه أوطاره.أو يتذكر نسيان شیء،و لو خلا لقطع الصلاه،لكنه أتمّ حياء من الناس،فهذا لا يسقط الفرض عنه،لأن النيه قد انقطعت و انقطع باعث العباده؛و أما إذا لم تنقطع نيته،لكن صار مغلوبا مغمورا كما لو حضر قوم فغلب علی قلبه الفرح باطلاعهم،و انغمر باعث العباده،فغالب الظن أنه إن انقضی ركن و لم يعاوده الباعث الأصلی فسدت صلاته؛لأنّا نستصحب نيه البدايه بشرط أن لا يطرأ ما لو قارن ابتداءها لمنع.و إن لم ينغمر باعث العباده،و لكن حصل مجرد سرور و لم يؤثر فی العمل،بل فی تحسين الصلاه فقط،فغالب الظن أن الصلاه لا تفسد و يتأدّی الفرض.و أما ما يطرأ بعد الصلاه من ذكر و سرور و مراءاه فلا ينعطف علی ما مضی و لكن يعصی به و يأثم،و يكون عقابه بقدر قصده و إظهاره.و مهما ظهرت له داعيه ذكر العباده إما بالتصريح و إما بالتعريض،فذلك يدل علی أن الرياء كان خفيّا فی باطنه.

[فصل فی دفع الأسباب الباعثه عليه و هی ثلاث:حب المدح،و خوف الذم،و الطمع]

إذا عرفت حقيقه الرياء،و كثره مداخلته،فعليك بالتشمّر فی معالجته.و علاجه فی دفع الأسباب الباعثه عليه و هی ثلاث:حب المدح،و خوف الذم،و الطمع.

أما حب المدح،فكمن يهجم علی صف القتال ليقال إنه شجاع،أو يظهر العبادات ليقال إنه ورع.و علاجه ما تقدم فی علاج حبّ الجاه،و هو أن تعلم أنه كمال وهميّ، لا حقيقه له.و علاجه فی الرياء خاصه،أن يقرر علی نفسه ما فيه من الضرر،فإن العسل -و إن كان لذيذا-فإذا علم أن فيه سمّا سهل تركه.فليقرّر علی نفسه أنه يقال له فی يوم فقره بسبب ريائه:يا فاجر يا غاوی استهزأت باللّه عز و جل و راقبت العباد و تحببت إليهم،و اشتريت حمدهم بذم اللّه تعالی،و طلبت رضاءهم بسخطه،أ ما كان أحد أهون عليك من اللّه تعالی؟فلو لم يكن إلا هذا الخزی و الخجله،لكان كافيا فی المنع عنه،

كيف و قد انضم إليه العقوبه و إحباط العباده،و أنه ربما يترجح به كفه السيئات بعد أن قارنت كفه الحسنات،فيكون سبب هلاكه!و ليقرر على نفسه أن رضى الناس غايه لا تدرك،و من طلب رضى الناس بسخط اللّه تعالى أسخط اللّه عليه.فكيف يترك رضى اللّه بما لا يطمع فى حصوله؟

و أما الباعث الثانى،و هو الخوف من ذمهم؛فيقرر على نفسه أن ذمهم لن يضره إن كان محمودا عند اللّه عز و جل،و لم يتعرض لذم اللّه و مقته خوفا من ذم الخلق،و يكفيه أن الناس لو علموا ما فى باطنه من قصد الرياء لمقتوه،و يأبى اللّه إلا أن يكشف سره حتى يعرف نفاقه فيمقته الناس أيضا بعد أن يمقته اللّه عز و جل.و لو أخلص و أعرض بقلبه عنهم و جرّد نظره إلى اللّه تعالى لكشف لهم إخلاصه له و أحبوه.

و أما باعث الطمع،فيدفعه بأن يعلم أن ذلك أمر موهوم،و فوات رضى اللّه تعالى ناجز،و يعلم أن اللّه تعالى هو المسخر للقلوب،و أن من طمع فى الخلق لم يخل عن الذل و المهانه و المنّه،و من أعرض عن الطمع فى الخلق كفاه اللّه تعالى و سخر له القلوب.فإذا أحضر فى قلبه نعيم الآخره و الدرجات الرفيعه،و علم أن ذلك يفوت بالرياء أعرض قلبه عن الخلق و اجتمع همه و فاضت عليه أنوار الإخلاص و أمده اللّه سبحانه بمعونته و توفيقه.

[فصل علاج الريا]

لعلك تقول إنى قرّرت هذا كله فى نفسى،و نفر عن الرياء قلبى،و لكن ربما هجم علىّ وارد الرياء بغته فى بعض العبادات عند اطّلاع الخلق،فما العلاج منه عند هجومه؟ فاعلم أن أصل هذا العلاج،أن تخفى عبادتك كما تخفى فواحشك،ففيه السلامه.روى أن بعض أصحاب أبى حفص الحداد ذمّ الدنيا و أهلها فقال له:أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه،لا تجالسنا بعد هذا.و إخفاء العباده،إنما يشق فى البدايه، فإذا صار عاده ألف الطبع لذه المناجاه فى الخلوه.و مهما هجم وارد الرياء فعلاجه أن تجدّد على قلبك ما رسخ فيه من قبل من المعرفه بالتعرض لمقت اللّه عز و جل،مع عجز الناس عن منفعتك و مضرّتك،حتى تنبعث منه كراهيه لداعيه الرياء.ثم الشهوه تدعو إلى إجابه الرياء بتحسين العمل و الفرح به،و الكراهيه تدعو إلى رده و الإعراض عنه، و تكون اليد للأقوى.فإن قويت الكراهيه حتى منعتك من الركون إليه،و استصحبت

حالتک التی کنت علیها،فلم تزد و لم تنقص و لم تتکلف إظهار الفعل و إیثاره،فقد اندفع عنک الإثم و لم تکلف أکثر من ذلک.و أما دفع الخواطر و دفع الطبع عن المیل إلی أقوال الناس،فلا یدخل تحت التکلیف،و إنما منتهی التکلیف الکراهیه و الإباء عن إجابه الداعیه.

[فصل یجوز إظهار الطاعات لأجل اقتداء الناس و ترغیبهم إذا صحت النیه]

یجوز إظهار الطاعات لأجل اقتداء الناس و ترغیبهم إذا صحت النیه،و لم یکن معه شهوه خفیه،و علامته أن یقدّر أن الناس لو اقتدوا بأحد أقرانه و کفی مئونه الترغیب، و أخبر بأن أجره فی الإسرار کأجره فی الإظهار فلا یرغب فی الإظهار؛فإن کان میله إلی أن یکون هو المقتدی به أکثر،ففیه داعیه الریاء،لأنه إن کان یطلب سعاده الناس و خلاصهم،فقد حصل ذلک بغیره و لم یفته إلا إظهار نفسه.و کذلک یجوز کتمان المعاصی و الذنوب،و لکن بشرط أن یکون غرضه أن لا یعتقد فیه الورع،بل لا یعتقد فیه الفسق،و لا بأس بفرحه باستتار معاصیه،و حزنه بانکشافها،إما فرحا بستر اللّه علیه، و إما فرحا بموافقه أمر اللّه تعالی،فإنه تعالی یحب کتمان المعاصی،و ینهی عن المجاهره بها.و إما لأنه یکره أن یذم فیتألم به،إذ التألم بذم الناس لیس بحرام بل یوجبه الطبع،و إنما الحرام الفرح بمدح الناس إیاه بالعباده؛فإن ذلک کأجر یأخذه علی العباده.و إما لأنه یستحی من ظهورها،و الحیاء غیر الریاء،و لکن قد یمتزج به.و أما ترک الطاعه خوفا من الریاء فلا وجه له.

قال الفضیل:الریاء ترک العمل خوفا من الریاء،أما العمل لأجل الناس فهو شرک، بل ینبغی أن یعمل و یخلص،إلا إذا کان العمل فیما یتعلق بالخلق کالقضاء و الإمامه و الوعظ.فإذا علم من نفسه أنه بعد الخوض فیه لا یملک نفسه،بل یمیل إلی دواعی الهوی،فیجب علیه الإعراض و الهرب،کذلک فعل جماعه من السلف.و أما الصلاه و الصدقه فلا یترکهما إلا إذا لم تحضره أصلانیه العباده.بل لو تجرّد نیه الریاء فلا یصح عمله فلیترکه (۱).أما من اعتاد فعله فحضر جماعه فیخاف علی نفسه من الریاء،فلا

۱- هکذا فی النسخه التی بین أیدینا و المعنی مهزوز.

ینبغی أن یترکه بل ینبغی أن یستمر علی عبادته و یجتهد فی دفع باعث الریاء.

خاتمه فی مجامع الأخلاق و مواقع الغرور فیها:

اعلم ان الأخلاق المذمومه کثیره،و لکن ترجع أصولها إلی ما ذکرناه.و لا یکفیک تزکیه النفس عن بعضها حتی تتزکی عن جمیعها.و لو ترکت واحدا منها غالبا علیک، فذلک یدعوک إلی البقیه،لأن بعض هذه یرتبط بالبعض،و یتقاضی بعض الأخلاق الذمیمه بعضا،و لا ینجو إلا من أتی اللّه بقلب سلیم،و السلامه المطلقه لا تنال بدفع بعض الأمراض،بل إنما تنال بالصحه المطلقه،کما أنّ الحسن لا یحصل بحسن بعض الأعضاء ما لم یحسن جمیع الأطراف،و النجاه فی حسن الخلق.قال النبی صلی اللّه علیه و سلم:«أثقل ما یوضع فی المیزان خلق حسن»،و قد قال النبی علیه السلام:«بعثت لأتمم مکارم الأخلاق».و قیل له:ما الدین؟قال علیه السلام:«الخلق الحسن»،و قال علیه السلام:

«حسن الخلق خلق اللّه تعالی».و قال علیه السلام:«أفضل المؤمنین إیمانا أحسنهم خلقا».و قد کثرت الأقاویل فی حقیقته و بیان حدّه؛و الأکثرون تعرضوا لبعض ثمراته، و لم یحیطوا بجمیع تفصیله؛و الذی یطلعک علی حقیقته،أن تعلم أن الخلق و الخلق عبارتان فیراد بالخلق الصوره الظاهره،و بالخلق الصوره الباطنه،و ذلک لأن الإنسان مرکّب من جسد یدرک بالبصر،و من روح و نفس یدرک بالبصیره لا بالبصر،و لکل واحد منهما هیئه،إما قبیحه و إما حسنه.و النفس المدرکه بالبصیره أعظم قدرا،و لذلک أضافه اللّه عز و جل إلی نفسه،و أضاف البدن إلی الطین،فقال: إِنِّی خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِینٍ، فَإِذا سَوَّیْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی (۱) [ص:۷۱،۷۲]،و وصف الروح بأنه أمر ربانی فقال:

قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی (۲) [الإسراء:۸۵]،و أعنی بالرّوح و النفس هاهنا معنی واحدا و هو الجوهر العارف المدرک من الإنسان بإلهام اللّه تعالی،کما قال: وَ نَفْسٍ وَ ما سَوّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَکّاها وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسّاها (۳) [الشمس:۷- ۱۰]،و کما أن للحسن الظاهر أرکانا کالعین و الأنف و الفم و الخد-و لا یوصف الظاهر بالحسن ما لم یحسن جمیعها-فکذلک الصوره الباطنه لها أرکان لا بدّ من حسن جمیعها حتی یحسن الخلق،و هی أربعه معان:قوه العلم،و قوه الغضب،و قوه الشهوه، و قوه العدل،بین هذه القوی الأربع؛فإذا استوت هذه الأرکان الأربعه،و اعتدلت، و تناسقت،حصل حسن الخلق.

۱- سوره ۳۸ - آیه ۷۱

۲- سوره ۱۷ - آیه ۸۵

۳- سوره ۹۱ - آیه ۷

أما قوّه العلم،فاعتدالها و حسنها أن تصير بحيث يدرک بها الفرق بين الصدق و الکذب فی الأقوال،و بين الحق و الباطل فی الاعتقادات،و بين الجميل و القبيح فی الأعمال.فإذا انحصلت هذه القوه کذلک،حصلت منها ثمره الحکمه،و هی رأس الفضائل؛قال اللّه عز و جل: وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِکْمَهَ فَقَدْ أُوتِیَ خَيْراً کَثِيراً،وَ ما يَذَّکَّرُ إِلاّ أُولُوا الْأَلْبابِ (۱) [البقره:۲۶۹].

و أما قوه الغضب فاعتدالها أن يحصل انقباضها و انبساطها علی موجب إشاره الحکمه و الشرع،و کذلک قوه الشهوه.

و أما قوه العدل فهی فی ضبط قوه الغضب.و قوه الشهوه تحت إشاره الدين و العقل، فالعقل منزلته منزله الناصح،و قوه العدل هی القدره،و منزلتها منزله المنفذ الممضی لإشاره العقل،و الغضب و الشهوه،و هما اللذان تنفّذ بهما الإشاره،و هما کالکلب و الفرس للصياد.فإن حسن بعض هذه دون بعض،کان کما لو حسن بعض أعضاء الوجه،فلا يطلق اسم الحسن له إلا إذا حسن الجميع و اعتدل،فإذا حسنت و اعتدلت انشعب منه جميع الأخلاق.و أما قوه الغضب،فيعبر عن اعتدالها بالشجاعه،و اللّه تعالی يحب الشجاعه،و إن مالت إلی طرف الزياده سميت تهوّرا،و إن مالت إلی النقصان تسمّی جبنا.و يتشعب من اعتدالها:خلق الکرم،و النجده،و الشهامه،و الحلم، و الثبات،و کظم الغيظ،و الوقار،و التّؤده.و أما إفراطها فيحصل منه:خلق التهوّر، و الصّلف،و البذخ،و الاستشاطه،و الکبر،و العجب.و أما تفريطها فيحصل منه:

الجبن،و المهانه،و الذله،و الخساسه،و عدم الغيره،و ضعف الحميه علی الأهل، و صغر النفس.و أما الشهوه،فيعبر عن اعتدالها بالعفه،و عن إفراطها بالشّره،و عن تفريطها و ضعفها بالخمود،فيصدر من العفه:السخاء،و الحياء،و الصبر،و السماحه، و القناعه،و الورع،و المساعده،و الظرف،و قله الطمع.و يصدر عن إفراطها:

الحرص،و الشره،و الوقاحه،و التبذير،و التقتير،و الرياء،و الهتکه،و المجانه، و الملق،و الحسد،و الشماته،و التذلل للأغنياء،و استحقار الفقراء،و غير ذلک.و أما قوه العقل،فيصدر من اعتدالها:حسن التدبير،و جوده الذهن،و ثقابه الرأی،و إصابه الظن،و التفطن لدقائق الأعمال و خفايا آفات النفس.و أما إفراطها فيحصل منه:

۱- سوره ۲ - آيه ۲۶۹

الجربزه (۱)،و الدهاء،و المكر،و الخداع.و يحصل من تفريطها و ضعفها:البله، و الحمق،و الغماره (۲)،و البلاده،و الانخداع.

فهذه هى روابط الأخلاق؛و إنما معنى حسن الخلق فى الجميع وسط بين الإفراط و التفريط،فخير الأمور أوسطها.و كلا طرفى قصد الأمور ذميم،و لذلك قال عز و جل:

وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ (۳) [الإسراء:۲۹]،و قال تعالى: وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً (۴) [الفرقان:

۶۷]،و قال تعالى: أَشِدّاءُ عَلَى الْكُفّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ (۵) [الفتح:۲۹].و مهما مال واحد من هذه الجمله إلى الإفراط و التفريط فبعد لم يكمل حسن الخلق.

[فصل طريق إصلاح هذه الأخلاق كلها المجاهده و الرياضه]

طريق إصلاح هذه الأخلاق كلها المجاهده و الرياضه.و معنى المجاهده أن يكلّف الصفه المفرطه الغالبه خلاف مقتضاها فتعمل بنقيض موجبها،فإن غلب البخل فلا تزال تتكلف البذل بالمجهود،و تداوم عليه مره بعد أخرى،حتى يسهل عليك البذل فى محله؛فإن غلب التبذير فلا تزال تتكلف الإمساك حتى يصير عاده فيسهل عليك الإمساك فى محله.و كذلك فى خلق الكبر و سائر الأخلاق،و قد ذكرناه فى كتاب رياضه النفوس على التفصيل.و ينبغى أن تعلم أن من يبذل تكلّفا فليس بسخىّ،و أن من يتواضع تكلفا فهو ثقيل على نفسه،و هو عاطل عن خلق التواضع،بل الخلق عباره عن هيئه للنفس يصدر عنها الفعل بسهوله من غير رويّه و تكلف.لكن التكلف هو طريق تحصيل الخلق،فإنه لا يزال يتكلف أوّلا حتى يصير طبعا و عاده.فيفهم من هذا أن البخيل قد يبذل و أن السخىّ قد يمسك.فلا تنظر إلى الفعل بل إلى الهيئه الراسخه التى تصدر منها الأفعال بيسر من غير تكلف.و اعلم أن تفاوت الناس فى الحسن الباطن،كتفاوتهم فى الحسن الظاهر،و لن يسلم الحسن المطلق إلا على الندور،و إنما سلم ذلك لرسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم حتى أثنى اللّه سبحانه عليه فقال: وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (۶) [القلم:۴].و ليست النجاه موقوفه على الكمال البالغ لكن على أن يكون الميل إلى الحسن أكثر،فإن القبيح

۱- الجربزه:الخبث.

۲- الغمر:الحقد وزنا و معنى،و رجل غمر لم يجرّب الأمور.

۳- سوره ۱۷ - آيه ۲۹

۴- سوره ۲۵ - آيه ۶۷

۵- سوره ۴۸ - آيه ۲۹

۶- سوره ۶۸ - آيه ۴

المطلق فی الظاهر ممقوت،و الحسن المطلق معشوق،و ما بینهما درجات،فالقریب من الحسن المطلق أسعد فی الدنیا من القریب إلی القبح المطلق.و کذلک تتفاوت سعاده الآخره بحسب تفاوت حسن الصوره الباطنه.

فصل

اعلم أنک قد تظن بنفسک حسن الخلق و أنت عاطل عنه،فإیاک أن تغتر،و ینبغی ان تحکّم فیه غیرک فتسأل عنه صدیقا بصیرا لا یداهنک.و بالجمله إذا نسبک غیرک إلی سوء الخلق أوشک أن تکون کذلک؛لأن أکثر الأخلاق یتعلق بالغیر فینبغی أن تظهر لهم.

و من مواقع الغرور فیه مثلا أن تغضب فتظن أنک تغضب اللّه تعالی،و تظهر العباده و تظن أنک تظهر للاقتداء،أو تکف عن الأکل أو طلب الدنیا أو تکظم الغیظ.و إنما یهون علیک ذلک أن تعرف به فیکون الریاء الباعث علی الجمیع.و کذلک یکثر مواقع الغرور فیه علی ما ذکرناه فی کتاب الغرور؛فإن هذا الکتاب لا یحتمل استقصاءه.

فصل

ینبغی أن تتفقد هذه الأخلاق فی قلبک،و تبدأ بالأهم فالأهم،فتقبل علی أغلب هذه الصفات فتکسرها علی التدریج.و أظن أن الأغلب علیک حبّ الدنیا،و سائر المعاصی و الأخلاق المذمومه تتبعها.و لا یمکنک الخلاص من حب الدنیا إلا بأن تطلب خلوه خالیه،و تتفکر فی سبب إقبالک علی الدنیا و إعراضک عن الآخره،فلا تجد له سببا إلا محض الجهل و الغفله،فإن أقصی عمرک فی الدنیا مائه سنه.فهب أن مملکه وجه الأرض تسلم لک من المشرق إلی المغرب فی مائه سنه،أ لیس یفوتک بها المملکه فی مده لا آخر لها و هی مملکه الآخره؟فإن کان لا یدخل فی خیالک طول الأبد،فقدّر الدنیا کلّها مملوءه ذره،فقدّر طائرا یأخذ فی کلّ ألف ألف سنه حبه واحده فتفنی الذره و لم ینقص من الأبد شیء،لأن الباقی أیضا لا نهایه له کما کان قبل ذلک.و أنت تری نفسک ترضی بتعب الأسفار إمّا فی تجاره أو طلب رئاسه،و هذا التعب الناجذ (۱)لأجل شیء موهوم ربما یدرکک الموت قبله،و ربما لا یصفو لک إن ظفرت به؛و إنما ترضی

۱- الناجذ:الشدید المستحکم.

بـذلک لأنـک تسـتحقر التعب سـنه مثلا- بالإضـافه إلی بقیه العمر،و جمله عمرک بالإضافه إلی الأبـد أقلّ من سـنه بالإضافه إلی عمرک،بـل لا- إضافه بینهما،فتفکر فیه لینکشف لک جهلک علی القرب.و لعلک تقول إنما أفعل ذلک علی توقع العفو،فإن اللّه تعـالی کریم رحیم.فـأقول:و لم لا- تترک الحراثه و التجاره و طلب المـال علی توقع العثور علی کنز فی خراب،فـإن اللّه کریم لا ینقص من ملکه شـیء لو عرّفـک فی منامـک کنزا من الکنوز حتی تأخـذه؟فإن قلت:ذلـک نادر و إن کان داخلا فی قـدره اللّه تعالی.فاعلم أن توقع العفو مع خراب الأعمال و الأخلاق کتوقع کنز فی خراب بل أبعـد منه و أنـدر؛و قد نبهک اللّه تعالی علیه و قال: وَ أَنْ لَیْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاّ ما سَعی (۱) [النجم:۳۹]،و قـال اللّه تعالی: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ کَالْمُفْسِدِینَ فِی الْأَرْضِ (۲) [ص:۲۸]الآیه.

و رغبک عن طلب المال فقال اللّه تعالی: وَ ما مِنْ دَابَّهٍ فِی الْأَرْضِ إِلاّ عَلَی اللّهِ رِزْقُها (۳) [هود:۶].

فما بالک تکذّب بکرمه فی الدنیا و لا تتکل علیه،ثم تخدع نفسک بالکرم فی الآخره و أنت تعلم أن رب الدنیا و الآخره واحد؟

فصل

لعلک تقول:عواقب أمور الـدنیا قـد انکشـفت لی بالعیان و اطمأن قلبی إلیها،و أما أمر الآخره فلم أشاهـده و لست أجـد تصـدیقه الحقیقی فی قلبی؛فلذلک فترت رغبتی فی ترک الدنیا نقدا بما هو موعود نسـیئه و لست أثق به.فأقول:لو کنت من أرباب البصائر لانـکشف لک أمر الآخره صـریحا کما انکشف أمر الـدنیا؛و إذا لم تکن من أهله فتفکر فی أقاویل أرباب البصائر،فإن الناس فی أمر الآخره أربعه أصناف:

صنف أثبتوا الجنه و النار کما ورد به القرآن،و قد سمعت أنواع نعیمها و أنکال جحیمها.

و صنف لم یثبتوا اللّذات و الآلام الحسیه بل أثبتوهما علی سبیل التخیل،کما فی المنام،حتی یکون کل واحد فی جنه أو نار یراها وحـده،و زعموا أن تـأثیر ذلـک فیه کتأثیر الحقیقه،لأن تألم النائم کتألم الیقظان،و إنما یخلص عنه بالتنبه،و ذلک فی الآخره دائم لا انقطاع له.

۱- سوره ۵۳ - آیه ۳۹

۲- سوره ۳۸ - آیه ۲۸

۳- سوره ۱۱ - آیه ۶

و صنف ثالث أثبتوا آلاما عقليه و لذات عقليه،و زعموا أن ذلک أعظم من الحسيه، و مثلوا ذلک باستشعار لذه الملک و استشعار زوالها؛فإن زوال الملک يؤرث (۱)آلاما كثيره بدنيه على ما يظفر به عدوه و يأخذ مملكته و يستسخره،مع أن ظفر العدوّ لا يؤلم البدن.

و هؤلاء هم أصناف النظّار،أعنى الأصناف الثلاثه،و هم الأنبياء و الأولياء و الحكماء،و كلّهم اتفقوا على إثبات سعاده مؤبده و شقاوه مؤبده.فإن السعاده لا تنال إلا بترک الدنيا و الإقبال على اللّه عزّ و جلّ،و لو مرضت و لم تكن من أهل البصيره فى طب و رأيت أفاضل الأطباء قد اتفقوا على شىء لم تتوقف فى اتباعهم.

و صنف رابع ليسوا من النظّار فى الأمور الإلهيه،بل من الأطباء و المنجمين اقتصر نظرهم على الطبائع الأربع و مزاجها،و رأوا قوام الروح موقوفا عليها،و لم يتفطنوا لحقيقه الرّوح الإلهىّ الحقيقى الذى هو العارف باللّه تعالى،بل لم يدركوا إلا الروح الجسمانى الذى هو بخار أنضجته حراره القلب،ينتشر فى العروق الضوارب إلى جميع البدن،فيقوم به الحس و الحركه،و هى الروح التى توجد للبهائم أيضا.

فأما الروح الخاص الإنسانى المنسوب إلى اللّه سبحانه،حيث قال: وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى (۲) [الحجر:۲۹،ص:۷۲]،فلم يتفطنوا لها،فظنوا أن الموت عدم، و أنه يرجع إلى فساد المزاج.و أنت فى حق هؤلاء بين أمرين:إما أن تجوّز غلطهم،أو تعلم قطعا صحه قولهم؛فإن جوّزت خطأهم لزمک الإعراض عن الدنيا بمجرد الاحتمال،فإنک لو كنت صادق الجوع و ظفرت بطعام و هممت بأكله،فأخبرک صبى أن فيه سمّا و أن حيه و لغت فيه،قاسيت الجوع و تركت الأكل،لأنک تقول:إن كان كاذبا فليس تفوتنى إلّا لذه الأكل،و إن كان صادقا ففيه الهلاک؛و بمثل هذا الاحتمال لا يمكن الهجوم عليه.فليت شعرى مع احتمال الخلود فى النار كيف يستجرئ العاقل الهجوم عليه،فكيف لا يكون كاليقين التام فى الحذر منه،حتى تنبه الشاعر عليه مع ركاكه عقله فقال:ر.

۱- كانت فى الأصل يؤثر و هو تصحيف ظاهر.

۲- سوره ۱۵ - آيه ۲۹

زعم المنجم و الطبيب كلاهما لا تحشر الأموات قلت إليكما

إن صحّ قولكما فلست بخاسر إن (۱)صحّ قولى فالخسار عليكما

فإن قلت:إنى أعلم ضروره صدق هؤلاء،فإن الموت عدم و أنه لا عقاب و لا ثواب،فإن الأنبياء و الأولياء مغرورون أو ملبّسون،و إنما الذى انكشفت له حقيقه الحق هو هذا الطبيب الجاهل،و زعمت أنى أعلم ذلك كما أعلم أن الاثنين أكثر من الواحد حتى لا يخالجنى فيه ريب،فيدل هذا على فساد المزاج و ركاكه العقل و البعد عن قبول العلاج.و لكن مع هذا يقال لك:إن كنت تطلب الراحه فى الدنيا فقد يتقاضاك عقلك أيضا مجاهده الشهوات و كسرها؛فإن الراحه فى الحريه،و الخلاص فى كسر الشهوات لا فى اتباعها،فإنها إذا سلطت على النفس فهى آلام ناجزه تحمل النفس على احتمال كل ذلّ و مشقه،و ما المستريح فى الدنيا إلا تاركها و الزاهد فيها،و أما طالبها فلا يزال منها فى عناء.فالمعطل أيضا-إن عقل قليلا-ترك الدنيا لكثره عنائها و سرعه فنائها و خسه شركائها.فإن لم تكن فى أمر الآخره على تخمين،و لا من مشاهده آفات الدنيا على يقين،فما أنت إلا من الحمقى المغرورين،و لتعلمنّ نبأه بعد حين،و لذلك قال اللّه تعالى: ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۲) [الحجر:۳].».

۱- فى روايه«أو».

۲- سوره ۱۵ - آيه ۳

القسم الرابع: فی الأخلاق المحموده و هی أیضا عشره أصول

الأصل الأول التوبه:

اشاره

فإنها مبدأ طریق السالکین،و مفتاح سعاده المریدین.قال اللّه تعالی: إِنَّ اللّهَ یُحِبُّ التَّوّابِینَ وَ یُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِینَ (۱) [البقره:۲۲۲].و قال اللّه تعالی: وَ تُوبُوا إِلَی اللّهِ جَمِیعاً (۲) [النور:۳۱]،و قال النبی علیه السلام:«التائب حبیب اللّه،و التائب من الذنب کمن لا ذنب له».و قال علیه السلام:«اللّه أفرح بتوبه عبده المؤمن من رجل نزل فی أرض فلاه دویه (۳)مهلکه،معه راحلته علیها طعامه و شرابه،فوضع رأسه فنام نومه، فاستیقظ و قد ذهبت راحلته فانفلتت،فطلبها حتی اشتد علیه الجوع و العطش أو ما شاء اللّه عز و جل؛قال أرجع إلی مکانی الذی کنت فیه فأنام حتی أموت،فوضع رأسه علی ساعده لیموت،فاستیقظ فإذا راحلته عنده،و علیها زاده و شرابه.فالله أشد فرحا بتوبه عبده المؤمن من هذا براحلته و زاده».

[فصل فی حقیقه التوبه]

حقیقه التوبه الرجوع عن طریق البعد إلی طریق القرب،و لکن لها رکن و مبدأ و کمال:أما مبدؤها فهو الإیمان،و معناه سطوع نور المعرفه علی القلب حتی یتّضح فیه أن الذنوب سموم مهلکه،فیشتعل منه نار الخوف و الندم،و ینبعث من هذه النار صدق الرغبه فی التلافی و الحذر.أما فی الحال فبترک الذنوب،و أما فی الاستقبال فبالعزم علی الترک،و أما فی الماضی فبالتلافی علی حسب الإمکان؛و بذلک یحصل الکمال.

۱- سوره ۲ - آیه ۲۲۲

۲- سوره ۲۴ - آیه ۳۱

۳- الدّوّیه و الداویه:الفلاه.

[فصل فی وجوب التوبه علی کل احد]

إذا عرفت حقیقه التوبه انکشف لک أنها واجبه علی کل أحد،و فی کل حال؛ و لذلک قال اللّه تعالی: وَ تُوبُوا إِلَی اللّهِ جَمِیعاً (۱) [النور:۳۱]،فخاطب الجمیع مطلقا.

أما وجوبها فلأن معناها معرفه کون الذنوب مهلکه،و الانبعاث لترکها،و هو جزء من الإیمان،أعنی هذه المعرفه،فکیف لا تجب؟و أما وجوبها علی کل واحد فهو أن الإنسان مرکب من صفات بهیمیه و سبعیّه و شیطانیه و ربوبیه،حتی یصدر من البهیمیه الشهوه و الشره و الفجور،و من السّبعیه الغضب و الحسد و العداوه و البغضاء،و من الشیطانیه المکر و الحیله و الخداع،و من الربوبیه الکبر و العز و حب المدح و الاستیلاء.

و أصول هذه الأخلاق هذه الأربع،و قد عجنت فی طینه الإنسان عجنا محکما لا یکاد یتخلص منها،و إنما ینجو من ظلماتها بنور الإیمان المستفاد من العقل و الشرع.فأول ما یخلق فی الآدمی البهیمیه فیغلب علیه الشّره و الشهوه فی الصبا،ثم یخلق فیه السّبعیه فیغلب علیه المعاداه و المنافسه،ثم یخلق فیه الشیطانیه فیغلب علیه المکر و الخداع،إذ تدعوه السبعیه و البهیمیه إلی أن یستعمل کیاسته فی حیل قضاء الشهوه و تنفیذ الغضب.

ثم یظهر فیه بعد ذلک صفات الربوبیه،و هو الکبر و الاستیلاء و طلب العلو.ثم بعد ذلک یخلق العقل الذی یظهر فیه نور الإیمان و هو من حزب اللّه و جنود الملائکه.و تلک الصفات من جنود الشیطان.و جنود العقل یکمل عند الأربعین،و یبدو أصله عند البلوغ.و أما سائر جنود الشیطان یکون قد سبق إلی القلب قبل البلوغ،و استولی علیه و ألفته النفس،و استرسلت فی الشهوات متابعه لها،إلی أن یرد نور العقل فیقوم القتال و التطارد بینهما فی معرکه القلب.فإن ضعف جند العقل و نور الإیمان لم یقو علی إزعاج جنود الشیطان فتبقی جنود الشیطان مستقره آخرا کما سبق إلی النزول أولا،و قد سلم للشیطان مملکه القلب.و هذا القتال ضروری فی فطره الآدمی،إذ لا یتّسع له خلقه الولد لما لا یتسع له خلقه الأب؛و إنما حکی لک حال آدم صلوات اللّه علیه لتتنبّه به أن ذلک کان مکتوبا علیه،و هو مکتوب علی جمیع أولاده فی القضاء الأزلی الذی لا یقبل التبدیل؛فإذا لا یستغنی أحد عن التوبه.

فصل

و أما وجوبها فی کل حال،فلأن الإنسان لا یخلو فی جمیع أحواله عن ذنب فی جوارحه أو فی قلبه،و لا یخلو عن خلق من الأخلاق الذمیمه مما یجب تزکیه القلب عنه،

۱- سوره ۲۴ - آیه ۳۱

فإنه مبعد عن اللّه،و الاشتغال بإماطته توبه،لأنه رجوع عن طريق البعد إلى طريق القرب.

فإن خلا- عن جميع ذلك فلا- يخلو عن غفله عن اللّه،و ذلك أيضا طريق البعد.و يلزمه الرجوع عنه بالذكر،و لذلك قال اللّه تعالى: وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ (۱) [الكهف:۲۴]، و إن كان حاضرا على الدوام؛و أنّى يتصور ذلك؟فلا يخلو عن ملازمه مقام نازل عن المقامات الرفيعه وراءه،و عليه أن يترقى منه إلى ما فوقه؛و مهما ترقى منه استغفر عن مقامه الذى خلّفه،لأنه تقصير بالإضافه إلى ما أدركه؛و ذلك لا نهايه له،فذلك قال عليه السلام:«و إنه ليغان (۲)على قلبى حتى أستغفر اللّه تعالى فى اليوم و الليله سبعين مره».

و كل ذلك كان توبه منه؛إلا أن توبه العوام عن الذنوب الظاهره،و توبه الصالحين عن الأخلاق الذميمه الباطنه،و توبه المتقين عن مواقع الريبه،و توبه المحبين عن الغفله المنسيه للذكر،و توبه العارفين عن الوقوف على مقام يتصور أن يكون وراءه مقام:

و المقامات فى القرب من اللّه لا نهايه لها،فتوبه العارف لا نهايه لها أيضا.

[فصل فى ان علاج التوبه حل عقده الاصرار]

التوبه إذا اجتمعت شرائطها،فهى مقبوله لا- محاله.و لا- يخفى عليك ذلك إن فهمت معنى القبول؛فمعنى القبول:أن يحصل فى قلبك استعداد القبول لتجلى أنوار المعرفه فى القلب،و إنما قلبك كالمرآه يحجبه عن التجلى كدورات الشهوه و الرغبه فيها،و يرتفع من كل ذنب ظلمه إليه،و من كل حسنه نور إليه،فالحسنات تصقل النفس،و لذلك قال النبى صلى اللّه عليه و سلم:«أتبع السيئه الحسنه تمحها».و نسبه التوبه إلى القلب نسبه الصابون إلى الثوب،و لا بد أن يزول منه الوسخ إذا استعمل فيه على وجهه.و من تاب فإنما يشك فى قبول التوبه لأنه ليس يستيقن تمام شروطها،كما أن من شرب المسهل لا يستيقن حصول الإسهال به لأنه لا يدرى وجود تمام الشرائط فى أدويتها،و لو تصور أن يعلم ذلك،لتصوّر أن يعلم القبول فى حق الشخص المعين.و لكن هذا الشك فى الأعيان لا يشكّكنا فى أنّ التوبه فى نفسها بطريق القبول لا محاله.

فصل

علاج التوبه حل عقده الإصرار،فإنه لا مانع منها سوى الإصرار،و لا حامل عليه

۱- سوره ۱۸ - آیه ۲۴

۲- یغان علی قلبی:تغشته الشهوه.

سوى الغفله و الشهوه؛و ذلک مرض فی القلب،و علاجه کعلاج أمراض البدن.لکن هذا المرض أکثر من مرض الأبدان لثلاثه أسباب:

أحدها:أنه من مرض لا- یعرف صاحبه أنه مریض،و هو کبرص علی وجه من لا- مرآه له،فإنه لا یعالجه لأنه لا یعرفه،و لو أخبره غیره ربما لم یصدقه.الثانی:أن عاقبه هذا المرض لم یشاهدها الإنسان و لم یجرّبها،فلذلک تراه یتکل علی عفو اللّه و یجتهد فی علاج مرض البدن غایه الجهد.الثالث:و هو الداء العضال فقد الأطباء؛فإن الطبیب هو العالم العامل.و قد مرض العلماء فی هذه الأعصار مرضا عسر علیهم علاج أنفسهم، لأن الداء المهلک هو حب الدنیا،و قد غلب ذلک علی العلماء،و اضطرّوا إلی الکف عن تحذیر الخلق من الدنیا کیلا- تنکشف فضیحتهم،فافتضحوا لمّا اصطلحوا علی الإقبال علی الدنیا و التجاذب لها و التکالب علیها.فبهذا السبب عم الداء و انقطع الدواء، و اشتغل الأطباء بفنون الإغواء،فلیتهم إذا لم یصلحوا لم یفسدوا،و لیتهم سکتوا و ما نطقوا،بل صار کل واحد کأنه صخره فی فم الوادی،لا هی تشرب و لا تترک الماء لیشر به غیرها.

و جمله القول فی علاجه أن تنظر فی سبب الإصرار و هو یرجع إلی خمسه أبواب:

أولها:أن العقاب الموعود لیس بنقد،و الطبع یستهین بما لا یوجد محققا فی الحال.و علاجه أن تتفکر لتعلم أن کلّ ما هو آت قریب،و أن البعید ما لیس بآت،و أن الموت أقرب إلی کل أحد من شراک نعله؛فما یدریه لعله فی آخر أیامه،أو فی آخر سنه من عمره،ثم یتفکر أنه کیف یتعب فی الأسفار فیرکب الأخطار خوفا من الفقر فی الاستقبال.

الثانی:أن اللّذات و الشهوات أخذت بمخنقه فی الحال،فلیس یقدر علی قلعها، و علاجه أن یتفکر أنه لو ذکر له طبیب نصرانیّ بأن شرب الماء البارد یضره و یسوقه إلی الموت،و هو ألذّ الأشیاء عنده،کیف یترکه!فلیعلم أن اللّه تعالی و رسوله صلی اللّه علیه و سلم أصدق من الطبیب النصرانی،و الخلود فی النار أشد من الموت بالمرض،و لیقرر علی نفسه أنه إذا کان یشق علیه ترک اللذات أیاما قلائل،فکیف لا یشق علیه ملابسه النار و الحرمان عن الفردوس و نعیمه أبد الدهر؟

الثالث:أنه یسوّف بالتوبه یوما فیوما؛و علاجه أن یتفکر و یعلم أن بناء خطر

السعاده و الشقاوه على ما ليس إليه جهل،فمن أين يعلم أنه يبقى إلى أن يتوب؟و إنّ أكثر صياح أهل النار من التسويف،لأنهم سوّفوا حتى فاجأهم مرض ساقهم إلى الموت، كيف،و إنما يسوّف لأنه يعجز عن قمع الشهوات فى الحال!فإن كان ينتظر يوما يسهل فيه قمع الشهوات،فهذا يوم لم يخلق أصلا،بل مثاله مثال امرئ يريد أن يقلع شجره عجز عنها لضعفه و قوه رسوخ الشجره،فيؤخر إلى السنه القابله و هو يعلم أن الشجره تزداد كلّ يوم رسوخا،و قوته تزداد كل يوم قصورا و نقصانا،و ذلك غايه الجهل.

الرابع:أن يعد نفسه بالكرم و العفو،و ذلك غايه الحمق أوردها الشيطان فى معرض الدّين؛قال النبى صلى اللّه عليه و سلم:«الكيّس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت،و الأحمق من أتبع نفسه هواها و تمنّى على اللّه تعالى».

الخامس:أن يكون-و العياذ باللّه-شاكّا فى أمر الآخره؛و قد ذكرنا علاجه فى خاتمه الأخلاق الذميمه.

فصل

التوبه من الذنوب كلها مهمه واجبه،و عن الكبائر أهم؛و الإصرار على الصغيره أيضا كبيره؛فلا صغيره مع إصرار و لا كبيره مع رجوع و استغفار،و تواتر الصغائر عظيم التأثير فى تسويد القلب،و هو كتواتر قطرات الماء على الحجر،فإنه يحدث فيه حفره لا محاله،مع لين الماء و صلابه الحجر.و تعظم الصغيره بأسباب:

إحداها:أن يستصغرها العبد و يستهين بها،فلا يغتم بسببها؛قال بعضهم:

الذنب الذى لا يغفر قول العبد ليت كل شىء عملته مثل هذا.الثانى:السرور بها، و التبجح بسببها،و اعتقاد التمكن منها نعمه،حتى أن المذنب ليفتخر فيقول:ما رأيتنى كيف شتمته،و كيف مزقت عرضه،و كيف خدعته فى المعامله؟و ذلك عظيم التأثير فى تسويد القلب.الثالث:أن يتهاون بستر اللّه عليه،و يظن أن ذلك لكرامه عند اللّه تعالى، و لا يدرى أنه ممقوت؛و قد أمهل ليزداد إثما فيكون فى الدرك الأسفل من النار.الرابع:

أن يجاهر بالذنب و يظهره،أو يذكره بعد فعله؛و فى الخبر:كل الناس معافى إلا المجاهرون.الخامس:أن يصدر الصغيره عن عالم يقتدى به،فذلك عظيم،لأنه يبقى بعد موته،فطوبى لمن مات و ماتت معه ذنوبه؛و من سنّ سنّه سيئه فعليه وزرها و وزر من عمل بها إلى يوم القيامه.و روى أن بعض علماء بنى إسرائيل تاب عن ذنوبه و بدعته،

فأوحى اللّه إلى نبيّ زمانه أن ذنبك لو كان فيما بيني و بينك لغفرته لك،و لكن كيف بمن أضللت من عبادى فأدخلتهم النار.و على الجمله،فلا باعث على التوبه إلا الخوف الصادر عن البصيره و المعرفه،فلنذكر فضيله الخوف.

الأصل الثانى فى الخوف:

اشاره

و قد جمع اللّه تعالى للخائفين الهدى و الرحمه و العلم و الرضوان،و ناهيك بذلك فضلا،فقال تعالى: هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (۱) [الأعراف:۱۵۴]، و قال: إِنَّما يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ (۲) [فاطر:۲۸]،و قال اللّه تعالى: رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ.ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (۳) [البيّنه:۸].و قال صلى اللّه عليه و سلم:«رأس الحكمه مخافه اللّه»،و قال عليه السلام:«من خاف اللّه تعالى خافه كل شىء،و من خاف غير اللّه تعالى خوّفه اللّه من كل شىء»،و قال عليه السلام:«قال اللّه تعالى:و عزتى و جلالى لا أجمع على عبدى خوفين،و لا أجمع له أمنين،فإذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامه، و إذا خافنى فى الدنيا أمّنته يوم القيامه».

[فصل فى حقيقه الخوف]

اعلم أن حقيقه الخوف هو تألم القلب و احتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال.

و قد يكون ذلك الخوف من جريان ذنوب،و قد يكون الخوف من اللّه تعالى بمعرفه صفاته التى توجب الخوف لا محاله،و هذا أكمل و أتم،لأن من عرف اللّه خافه بالضروره، و لذلك قال اللّه تعالى: إِنَّما يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ (۴) [فاطر:۲۸].و قد أوحى اللّه تعالى إلى داود عليه السلام:«خفنى كما تخاف السّبع الضّارى»؛و لذلك قال النبى صلى اللّه عليه و سلم:«أنا أخوفكم للّه تعالى».و اعلم أن الواقع فى مخالب السبع إنما لا يخافه إذا لم يعرف السّبع،فإنّ من علم أن من صفه السبع أنه يهلكه و لا يبالى،فإن تركه لم يكن لرقته عليه و شفقته،فإنه أحقر عنده من أن يشفق عليه،فلا بد من أن يخاف،و للّه المثل الأعلى و هو العزيز الحكيم،و لكن من عرف أنه لو أهلك الأولين و الآخرين لم يبال و لم ينقص شىء من ملكه قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (۵) [المائده:۱۷].و كم أهلك من عباده فى الدنيا، و عرّضهم لأنواع العذاب و لم تأخذه رقه و لا شفقه،فإن ذلك محال عليه،فلا بد و أن

۱- سوره ۷ - آيه ۱۵۴

۲- سوره ۳۵ - آيه ۲۸

۳- سوره ۹۸ - آيه ۸

۴- سوره ۳۵ - آيه ۲۸

۵- سوره ۵ - آيه ۱۷

يخاف.فمعرفه الجلال و العزه و الاستغناء،يورث الهيبه بالضروره،و هذا أكمل أنواع الخوف و أفضلها.

[فصل فى علاج الخوف و تحصيله]

علاج الخوف و تحصيله على رتبتين:إحداهما،معرفه اللّه تعالى،فإنها توجب الخوف بالضروره؛فإن الواقع فى مخالب السبع لا يحتاج إلى علاج ليخاف إن كان يعرف السبع.و من عرف جلال اللّه تعالى و استغناءه و أنه خلق الجنه و خلق لها أهلا، و خلق النار و خلق لها أهلا،و أنه تمت كلمته بالسعاده و الشقاوه فى حق كل أحد صدقا و عدلا،و أن ذلك لا يتصور تغييره و لا يصرفه عن تنفيذ قضائه الأزلىّ صارف،و هو لا يدرى ما الذى سبق به القضاء فى حقه،و لا يدرى ما الذى يختم له به،و احتمل عنده أن يكون مقضيّا له بشقاوه الأبد،فهذا لا يتصور أن لا يخاف.و أما من عجز عن حقيقه المعرفه فعلاجه النظر إلى الخائفين،و مشاهده أحوالهم أو سماع ذلك؛فإن أخوف خلق اللّه الأنبياء،و الأولياء،و العلماء،و أهل البصيره،و أعظم الخلق أمنا الغافلون الأغبياء، الذين لا يمتد نظرهم لا إلى السابقه،و لا إلى الخاتمه،و لا إلى معرفه جلال اللّه تعالى.

و هذا،كما أن الصبى لا يخاف الحيه ما لم ينظر إلى أبيه يخافها و يهرب منها و ترتعد فرائصه إذا رآها،فينظر إليه فيقلده،و يستشعر خوفه،و إن لم يعرف بالحقيقه صفه الحيه؛و قد قال صلى اللّه عليه و سلم:«ما جاءنى جبرائيل عليه السلام قط إلا و هو يرتعد فرائصه فرقا (۱)من النار»،و قيل لما ظهر على إبليس ما ظهر،طفق جبرائيل و ميكائيل يبكيان،فأوحى اللّه سبحانه إليهما:ما لكما تبكيان؟قالا:يا رب ما نأمن مكرك،فقال اللّه تعالى:هكذا كونا لا تأمنا مكرى! فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (۲) [الأعراف:۹۹].

و قيل لما خلق اللّه تعالى النار،طارت أفئده الملائكه عن أماكنها،فلما خلق بنى آدم عادت.و كان أزيز (۳)قلب إبراهيم-عليه السلام-يسمع فى الصلاه من مسيره ميل.

و بقى داود-عليه السلام-أربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتى نبت الرعى (۴)من

۱- فرق فرقا من باب تعب:خاف.

۲- سوره ۷ - آيه ۹۹

۳- أزّت القدر:اشتد غليانها.

۴- الرعى بالكسر الكلأ جمعه أرعاء.

دموعه.و قال أبو بكر الصديق-رضى اللّه عنه-لطائر:«ليتنى مثلك يا طائر و لم أخلق».و قال أبو ذر-رضى اللّه عنه-:«وددت لو أنى شجره تعضد» (۱).و قالت عائشه- رضى اللّه عنه:«وددت لو أنى نسيا منسيّا».و قد حكينا أحوال الخائفين فى كتاب الخوف فليتأمل القاصر عن ذروه المعرفه،أحوال الأنبياء و الأولياء و العارفين،ليعلم أنه أحقّ بالخوف منهم،و إذا تأمل ذلك بالحقيقه غلبه خوفه.

فصل

الخوف سوط يسوق العبد إلى السعاده.و لا ينبغى أن يفرط بحيث يورث القنوط، فذلك مذموم؛بل إذا غلب ينبغى أن يمزج الرجاء به.نعم،ينبغى أن يغلب الخوف الرجاء ما دام العبد مقارفا للذنوب،فأما المطيع المتجرد للّه تعالى،فينبغى أن يعتدل خوفه و رجاؤه،مثل عمر-رضى اللّه عنه-حيث قال:«لو نودى ليدخلن الجنه جميع الخلق إلا رجل واحد لخفت أن أكون أنا ذلك الرجل،و لو نودى ليدخلن النار جميع الخلق إلا رجل واحد لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل».و أما اذا قرب الموت فالرجاء و حسن الظن بربه أولى به،قال صلى اللّه عليه و سلم:«لا يموتن أحدكم إلا و هو يحسن الظن بربّه».

و الرجاء يخالف التمنّى،فإن من لا يتعاهد الأرض و لا يبث البذر،ثم ينتظر الزرع،فهو متمنّ مغرور فليس براج،إنما الرّاجى من تعهد الأرض و سقاها،و بث البذر و حصل كل سبب يتعلّق باختياره،ثم بقى يرجو أن يدفع اللّه الصواعق و القواطع، و أن يمكّنه من الحصاد بعد الإنبات،و لذلك قال عز و جل: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللّهِ أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَ اللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲) [البقره:

۲۱۸].و بالجمله فثمره الرجاء الترغيب فى الطلب،و ثمره الخوف الترغيب فى الهرب.

و من رجا شيئا طلبه،و من خاف شيئا هرب منه.و أقلّ درجات الخوف ما يحمل على ترك الذنوب،و على الإعراض عن الدنيا،و ما لا يحمل على ذلك فهو حديث نفس،و خواطر لا وزن لها،تشبه رقه النساء،و لا ثمره لها؛بل الخوف إذا تم أثمر الزهد فى الدنيا، فلنذكر الزهد و معناه:

۱- أى تقطع و عضده قطعه.

۲- سوره ۲ - آيه ۲۱۸

الأصل الثالث فی الزهد:

اشاره

قال اللّه تعالی: وَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ،وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقى (۱) [طه:۱۳۱]،و قال: مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ،وَ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها،وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (۲) [الشوری:۲۰].و قال اللّه تعالی فی حق قارون: فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ،قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ،إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ، وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً (۳) [القصص:

۷۹،۸۰].فبيّن أن الزهد من ثمرات العلم.و قال صلی اللّه علیه و سلم:«من أصبح و همّه الدّنيا شتّت اللّه علیه أمره،و فرّق علیه ضيعته،و جعل فقره بين عينيه،و لم يأته من الدنيا إلا ما كتب له.و من أصبح و همّه الآخره،جمع اللّه له همه،و حفظ علیه ضيعته،و جعل غناه فی قلبه،و أتته الدنيا و هی راغمه».

و لما سئل صلی اللّه علیه و سلم عن قوله تعالی: فَمَنْ يُرِدِ اللّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ، وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً (۴) [الأنعام:۱۲۵]،و عن معنی الشرح،قال علیه السلام:«إن النور إذا دخل القلب انشرح الصدر و انفسح،قيل:و هل لذلك من علامه؟قال:نعم التجافی عن دار الغرور و الإنابه إلى دار الخلود و الاستعداد للموت قبل نزوله».و قال علیه السلام:«استحيوا من اللّه حق الحياء».و قيل إنا نستحی،قال علیه السلام:«تبنون ما لا تسكنون،و تجمعون ما لا تأكلون».و قال علیه السلام:«من زهد فی الدنيا أدخل اللّه الحكمه قلبه،و أنطق بها لسانه،و عرّفه داء الدنيا و دواءها، و أخرجه منها سالما إلى دار السلام».و قال علیه السلام:«لا يستكمل العبد حقيقه الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف،و حتى يكون قله الشیء أحب إليه من كثرته».و قال علیه السلام:«إذا أراد اللّه بعبد خيرا،زهّده فی الدنيا،و رغّبه فی الآخره،و بصّره بعيوب نفسه»و قال علیه السلام:«ازهد فی الدنيا يحبك اللّه تعالى، و ازهد فيما فی أيدی الناس يحبك الناس».و قال علیه السلام:«من أراد أن يؤتيه اللّه علما بغير تعلم و هدی بغير هدايه فليزهد فی الدنيا».

[فصل فی ان للزهد فی الدنيا حقيقه و أصل و ثمره]

للزهد فی الدنيا حقيقه و أصل و ثمره؛أما حقيقته فهو عزوف النفس عن الدنيا

۱- سوره ۲۰ - آیه ۱۳۱

۲- سوره ۴۲ - آیه ۲۰

۳- سوره ۲۸ - آیه ۷۹

۴- سوره ۶ - آیه ۱۲۵

و انزواؤها عنها طوعا مع القدره عليها،و أصلها العلم و النور الذى يشرق فى القلب حتى ينشرح به الصدر،و يتضح به أنّ الآخره خير و أبقى،و أن نسبه الدنيا إلى الآخره أقلّ من نسبه خزفه إلى جوهره،و ثمرتها القناعه من الدنيا بقدر الضروره،و هو قدر زاد الراكب، فالأصل نور المعرفه،فيثمر حال الانزواء،و يظهر على الجوارح بالكفّ إلا عن قدر الضروره فى زاد الطريق.و الضروريّ من زاد الطريق مسكن و ملبس و مطعم و أثات.

أما المطعم،فله طول و عرض:أما طوله،فبالإضافه إلى الزمان،و أقصر درجاته الاقتصار على دفع الجوع فى الحال،فإذا دفعه غدوه لم يدخر شيئا لعشائه،و أوسطه أن يدّخر لشهر إلى أربعين يوما فقط؛و أدناه أن يدّخر لسنه؛فإن جاوز ذلك خرج عن جميع أبواب الزهد،إلا أن لا يكون له كسب و لا يأخذ من الأيدى،كداود الطائى،فإنه ملك عشرين دينارا،فأمسكها و قنع بها عشرين سنه؛فذلك لا يبطل مقام الزهد و درجته فى الآخره إلا عند من يشرط التوكل فى الزّهد.و أما عرضه فأقله نصف رطل،و أوسطه رطل،و أعلاه مدّ؛و الزياده عليه تبطل رتبه الزهد.و أما الجنس،فأقله ما يقوت و لو النخاله،و أوسطه خبز الشعير،و أعلاه خبز البرّ غير منخول،فإن نخل فهو تنعم لا زهد.

فأما الإدام فأقله الخل و البقل و الملح،و أوسطه الأدهان،و أعلاه اللّحم؛و ذلك فى الأسبوع مره أو مرتين،فإذا دام لم يكن صاحبه زاهدا.

قالت عائشه-رضى اللّه عنها-:«كان يأتى أربعون ليله و ما يوقد فى بيت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم مصباح و لا نار»،و قيل:ما شبع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم منذ قدم المدينه ثلاثه أيام من خبز البر.

و أما الملبس فأقله ما يستر العوره و يدفع الحرّ و البرد،و أعلاه قميص و سراويل و منديل من الجنس الخشن،و يكون بحيث لو غسل ثوبه لم يجد غيره؛فإن كان صاحب القميصين لم يكن زاهدا.قال أبو ذر:أخرجت عائشه-رضى اللّه عنها-كساء ملبدا و إزارا غليظا،فقالت:«قبض رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى هذين».و صلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى خميصه (۱)لها علم،فلما سلم قال:«شغلنى النظر إلى هذه،اذهبوا بها إلى أبى جهم..»الحديث.و كان شراك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد،فلما سلم عن صلاتهم.

۱- الخميصه هى ثوب خز أو صوف معلم.

قال:«أعيدوا الشراك الخلق،فإنی نظرت إليه فی الصلاه».و كان عليه السلام قد احتذی نعلين جديدين،فأعجبه حسنهما فخرّ ساجدا،فقال عليه السلام:«أعجبنی حسنهما فتواضعت لربی خشيه أن يمقتنی»،ثم خرج بهما فدفعهما إلی أول مسكين رآه.و قد عدّ علی قميص عمر-رضی اللّه عنه-اثنتا عشره رقعه بعضها من أدم.و اشتری علی- رضوان اللّه عليه-فی خلافته ثوبا بثلاثه دراهم،و قطع كميه من الرّسغين،و قال:الحمد للّه الذی هذا من رياشه.و قال بعضهم:قوّمت ثوب سفيان و نعله بدرهم و دانقين.و قال علی-رضوان اللّه عليه-:إن اللّه عز و جل أخذ علی أئمه الهدی أن يكونوا فی مثل أدنی أحوال الناس،ليقتدی بهم الغنی و لا يزری بالفقير فقره.

و أما المسكن،فأدناه أن تقنع بزاويه فی مسجد أو رباط،كأهل الصّفّه،و أعلاه أن يطلب لنفسه موضعا خاصّا و هی حجره إما بشراء أو إجاره،بشرط أن لا يزيد سعته علی قدر الحاجه.و لا يرفع بناؤه،و لا يهتم بتجصيصه،و فی الأثر:أن من يرفع بناءه فوق سته أذرع ناداه مناد إلی أين يا أفسق الفاسقين؟و مات رسول اللّه صلی اللّه عليه و سلم و لم يضع لبنه علی لبنه،و لا قصبه علی قصبه.و قال عبد اللّه بن عمر-رضی اللّه عنهما-:مرّ بنا رسول اللّه صلی اللّه عليه و سلم و نحن نعالج خصّا (۱)فقال:إن الأمر أعجل من ذلك.و اتخذ نوح-عليه السلام-بيتا من خص،فقيل له:لو شئت لاتخذته من الطين،فقال:هذا كثير لمن يموت.و قال صلی اللّه عليه و سلم:«من بنی فوق ما يكفيه كلّف أن يحمله يوم القيامه»،و قال عليه السلام:«كل بناء وبال علی صاحبه يوم القيامه إلا ما أكنّ (۲)من حرّ و برد».

و أما أثاث البيت ففيه أيضا درجات،و أدناها حال عيسی ابن مريم-عليه السلام-إذ لم يكن معه إلا مشط و كوز،فرأی إنسانا يمشط بأصابعه فرمی المشط، و رأی آخر يشرب بيده،فرمی الكوز.و أوسطه،أن يستعمل الجنس الخشن واحدا فی كلّ غرض،و يجتهد أن يستعمل واحدا فی أغراض.و قال عمر-رضی اللّه عنه- لعمير بن سعيد-و هو أمير حمص-:ما معك من الدنيا؟فقال:معی عصای أتوكأ عليها،و أقتل بها حيه إن لقيتها،و معی جرابی أحمل فيها طعامی،و معی قصعتی آكلی.

۱- الخص بالضم البيت من القصب.

۲- أكن:ستر أو حمی.

فیها و أغسل رأسی و ثوبی،و معی مطهرتی أحمل فیها شرابی و وضوئی،فما کان بعد هذا من الدنیا فهو تبع لما معی.فقال:صدقت.و قال الحسن:أدرکت سبعین من الأخیار ما لأحدهم إلا ثوبه،و ما وضع أحدهم بینه و بین الأرض ثوبا.و کان فراش رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم الذی ینام علیه و ساده من أدم حشوها لیف،و عباءه خشنه.فهذه سیره الزهّاد فی الدنیا، فمن حرم هذه الرتبه فلا أقل من أن یتحسّر علی فواتها،و یجتهد أن یکون قربه منهم أکثر من قربه من المتنعّمین فی الدنیا.

[فصل فی ان الزهد علی درجات]

الزهد علی درجات:إحداها:أن یزهد و نفسه مائله إلی الدنیا و لکن یجاهدها؛ و هذا متزهد،و لیس بزاهد؛و لکن بدایه الزهد التزهد.الثانیه:أن تفر نفسه عن الدنیا و لا تمیل إلیها،لعلمه أن الجمع بینها و بین نعیم الآخره غیر ممکن،فتسمح نفسه بترکها، کما تسمح نفس من یبذل درهما لیشتری جوهره،و إن کان الدرهم محبوبا عنده؛و هذا زهد.الثالثه:أن لا تمیل نفسه إلی الدنیا و لا تنفر عنها،بل یکون وجودها و عدمها عنده بمثابه واحده،و یکون المال عنده کالماء،و خزانه اللّه تعالی کالبحر،فلا یلتفت قلبه إلیه رغبه و نفورا،و هذا هو الأکمل؛لأن الذی یبغض شیئا فهو مشغول به،کالذی یحبه؛ و لذلک ذمّ الدنیا عند رابعه العدویه،فقالت:«لو لا قدرها فی قلوبکم ما ذممتموها».

و حمل إلی عائشه-رضی اللّه عنها-مائه ألف درهم فلم تنفر عنها،و لکن فرقتها فی یومها،فقالت خادمتها:لو اشتریت بدرهم لحما تفطرین علیه،فقالت:لو ذکرتنی لفعلت.فهذا هو الغنی،و هو أکمل من الزّهد؛و لکنه مظنّه غرور الحمقی،إذ کل مغرور یستشعر فی نفسه أن لا علاقه لقلبه مع الدنیا؛و علامه ذلک،أن لا یدرک الفرق بین أن یسرق جمیع ماله أو یسرق مال غیره،فما دام یدرک التفرقه فهو مشغول به.

فصل

کمال الزهد،هو الزهد فی الزهد،بأن لا یعتدّ به و لا یراه منصبا؛فإن من ترک الدنیا و ظن أنه ترک شیئا فقد عظّم الدنیا،إذ الدنیا عند ذوی البصائر لا شیء،و صاحبها کمن منعه عن دار الملک کلب علی بابه،فألقی إلیه لقمه خبز و شغله بها و دخل دار الملک و جلس علی سریر الملک؛فإن الشیطان کلب علی باب اللّه تعالی،و الدنیا کلها أقل من لقمه بالإضافه إلی الملک،إذ اللقمه لها نسبه إلی الملک إذ یفنی بأمثالها، و الآخره لا یتصور أن تفنی بأمثالها الدنیا لأنها لا نهایه لها.

فصل

الزهد باعتبار الباعث علیه علی ثلاث درجات:إحداها:أن یکون باعثه الخوف من النار و هذا زهد الخائفین.الثانیه:و هی أعلی منه أن یکون باعثه الرغبه فی نعیم الآخره،و هذا زهد الراجین.و العباده علی الرجاء أفضل منها علی الخوف،لأن الرجاء یقتضی المحبه.الثالثه:و هی أعلاها،أن یکون الباعث علیه الترفع عن الالتفات إلی ما سوی الحق،تنزیها للنفس عنه،و استحقارا لما سوی اللّه؛و هذا زهد العارفین،و هو الزهد المحقق،و ما قبله معامله،إذ ینزل صاحبها عن شیء عاجلا لیعتاض عنه أضعافه آجلا.

فصل

الزهد باعتبار ما فیه من الزهد علی درجات،و کماله الزهد فی کلّ ما سوی اللّه تعالی فی الدنیا و الآخره،و دونه الزهد فی الدنیا خاصه دون الآخره.ثم یدخل فیه کل ما فیه حظ و تمتع فی الدنیا،من مال و جاه و تنعم.و دون ذلک أن یزهد فی المال دون الجاه، أو فی بعض الأشیاء دون البعض،و ذلک ضعیف،لأن الجاه ألذّ و أشهی من المال، فالزهد فیه أهمّ.

فصل

الزهد أن تنزوی عن الدنیا طوعا مع القدره علیها،أما إن انزوت الدنیا عنک و أنت راغب فیها،فذلک فقر و لیس بزهد.و لکن للفقر أیضا فضل علی الغنی،لأنه منع عن التمتع بالدنیا،و هذا هو أفضل ممن مکّن من الدنیا و التمتع بها حتی ألفها و اطمأن إلیها، و لم یتجاف قلبه عنها،فیعظم الألم و الحسره عند الموت،و تکون الدنیا کأنها جنه الغنیّ،و تکون کأنها سجن الفقیر،إذ یشتهی الخلاص من آلامها.و الفقر من أسباب السعاده؛قال النبی صلی اللّه علیه و سلم:«إن اللّه تعالی یحمی عبده عن الدنیا و هو یحبه،کما یحمی أحدکم مریضه عن الطعام و الشّراب»،و قال علیه السلام:«یدخل فقراء أمتی الجنه قبل أغنیائها بخمسمائه عام»،و قال علیه السلام:«خیر هذه الأمه فقراؤها»،و قال علیه السلام:«إذا رأیت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصّالحین،و إذا رأیت الغنی مقبلا فقل ذنب عجّلت عقوبته»،و قال موسی-علیه السلام-:یا رب من أحباؤک من خلقک حتی أحبهم لأجلک؟فقال:کل فقیر.

و اعلم أن الفقير إن كان قانعا بما أعطى،غير شديد الحرص على الطلب، فدرجته قريب من درجه الزاهد.و قال صلى اللّه عليه و سلم:«طوبى لمن هدى للإسلام و كان عيشه كفافا و قنع به».و قال صلى اللّه عليه و سلم:«الفقراء الصبراء هم جلساء اللّه تبارك و تعالى».و قال عليه السلام:

«أحب العباد إلى اللّه تعالى الفقير القانع».و أوحى اللّه تعالى إلى إسماعيل-صلوات اللّه عليه و سلامه-اطلبنى عند المنكسره قلوبهم،قال:و من هم؟قال:الفقراء الصادقون.

و على الجمله،إنما يعظم ثواب الفقير عند القناعه و الصبر،و الرضى و الصبر على الفقر مبدأ الزهد،و لا تتم هذه المقامات إلا بالصبر فلنذكره:

الأصل الرابع فى الصبر:

اشاره

قال اللّه تعالى: وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللّهَ مَعَ الصّابِرِينَ (۱) [الأنفال:۴۶]،و جمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم،فقال عزّ من قائل: أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَهٌ،وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (۲) [البقره:۱۵۷].و قال تعالى: وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۳) [النحل:۹۶].و قال تعالى: وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّهً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمّا صَبَرُوا (۴) [السجده:۲۴].و قال تعالى: إِنَّما يُوَفَّى الصّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ (۵) [الزمر:۱۰].و ذكر اللّه سبحانه فى القرآن الصبر فى نيف و سبعين موضعا.و قال صلى اللّه عليه و سلم:«الصبر نصف الإيمان»،و قال عليه السلام:«من أقلّ ما أوتيتم، اليقين و عزيمه الصبر،و من أعطى حظّه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل و صيام النهار».و قال عليه السلام:«الصبر كنز من كنوز الجنّه».و سئل النبى-عليه السلام- مره عن الإيمان فقال:«هو الصبر».و قال عيسى-عليه السلام-:إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون.

[فصل فى حقيقه الصبر]

حقيقه الصبر ثبات باعث الدّين فى مقابله باعث الهوى،و هو من خاصيه الآدمىّ الذى هو كالمركّب من شعب ملكيّه و بهيميه،لأن البهيمه لم يسلّط عليها إلا دواعى الشهوه،و الملائكه لم يسلّط عليهم الشهوه بل جرّدوا للشوق إلى مطالعه جمال الحضره الربوبيه،و الابتهاج بدرجه القرب منها،فهم يسبّحون الليل و النهار لا يفترون؛فليس فيهم داعيه الشهوه.فلم يتصور الصبر لملك و لا بهيمه،بل الإنسان سلّط عليه جندان يتطاردان،أحدهما من حزب اللّه و ملائكته،و هو العقل و بواعثه،و الثانى من جنود

۱- سوره ۸ - آيه ۴۶

۲- سوره ۲ - آيه ۱۵۷

۳- سوره ۱۶ - آيه ۹۶

۴- سوره ۳۲ - آيه ۲۴

۵- سوره ۳۹ - آیه ۱۰

الشیطان و هی الشهوات و دواعیها بعد البلوغ یظهر بواعث الدین و العقل إذ یحمل علی النظر إلی العواقب،و تبتدئ بقتال جند الشیطان،فإن ثبت باعث الدین فی مقابله باعث الهوی حتی غلبه،فقد حصل مقام الصبر،إذ لا یتصور الصبر،إلا عند تعارض الباعثین علی التناقض،و ذلک کالصبر علی شرب الدواء البشیع،إذ یدعو إلیه داعی العقل،و یمنع منه داعی الشهوه.و کل من غلبته شهوته لم یعزم علیه،و من غلب عقله شهوته صبر علی مرارته لینال الشفاء.و شطر الإیمان إنما یتم بالصبر؛و لذلک قال النبی- علیه السلام-:«الصبر نصف الإیمان»،لأن الإیمان یطلق علی المعارف و الأعمال جمیعا،و سائر الأعمال فی طرفی الکف و الإقدام و التزکیه و التحلیه لا یتم إلا بالصبر؛لأن جمله أعمال الإیمان علی خلاف باعث الشهوه،فلا یتم إلا بثبات باعث الدین فی مقابلته؛و لذلک قال-علیه السلام-:«الصوم نصف الصبر»،لأن الصبر تاره فی مقابله داعی الشهوه،و تاره فی مقابله داعی الغضب؛و الصوم هو کسر لداعیه الشهوه.

[فصل فی درجات الصبر]

الصبر له ثلاث درجات بحسب ضعفه و قوته:

الدرجه العلیا:أن تقمع داعیه الهوی بالکلیه،حتی لا یبقی لها قوه للمنازعه.

و یتوصل إلیها بدوام الصبر و طول المجاهده؛و ذلک من الذین قیل لهم: إِنَّ الَّذِینَ قالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا (۱) [فصلت:۳۰،الأحقاف:۱۳]،و إیاهم ینادی المنادی:

یا أَیَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّهُ، اِرْجِعِی إِلی رَبِّکِ راضِیَهً مَرْضِیَّهً (۲) [الفجر:۲۷،۲۸].

الدرجه السفلی:أن تقوی داعیه الهوی و تسقط منازعه باعث الدین،و یغلب الهوی و یسلم القلب لجند الشیطان؛و ذلک من الذین قیل فیهم: وَ لکِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّی لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّاسِ أَجْمَعِینَ (۳) [السجده:۱۳].و علامته شیئان:

أحدهما،أن یقول:أنا أشتاق إلی التوبه و لکن تعذرت علیّ،فلست أطمع فیها؛فهذا هو القانط و هو الهالک.الثانی:أن لا یبقی فیه شوق إلی التوبه،و لکن یقول:اللّه کریم رحیم و هو مستغن عن توبتی فلا تضیق الجنه الواسعه و المغفره الشامله عنّی.و هذا المسکین قد صار عقله أسیر شهوته،و لا یستعمله إلا فی استنباط حیل قضاء الشهوه، فصار عقله کالمسلم الأسیر بین الکفّار،یستسخرونه فی رعایه الخنازیر،و حفظ الخمور،و حملها علی العنق و الظهر إلی بیوتهم.فانظر کیف یکون حال العبد إذا أخذ

۱- سوره ۴۱ - آیه ۳۰

۲- سوره ۸۹ - آیه ۲۷

۳- سوره ۳۲ - آیه ۱۳

أعز أولاد الملك و سلمه إلى أخس أعدائه حتى استرقه و استسخره،ففى مثل حاله يكون قدوم هذا الغافل المنهمك على اللّه تعالى.نعوذ باللّه منه.

الدرجه الوسطى:أن لا يفتر على المحاربه،و لكن يكون الحرب بينهما سجالا، تاره له اليد،و تاره عليه اليد؛و هذا من المجاهدين الذين خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً... (۱) [التوبه:۱۰۲]الآيه.و علامه هذا أن يترك من الشهوات ما هو أضعف، و يعجز عما هو أغلب؛و ربما يغلبها فى بعض الأوقات دون بعض،و هو فى جميع الأحوال متحسر على عجزه،و مستمر المعاوده إلى مجاهدته و قتاله،و ذلك هو الجهاد الأكبر.و مهما اتقى و صدّق بالحسنى فسنيسّره لليسرى.و بالجمله فقد قصر عن البهيمه إنسىّ لم يقاوم بقوه عقله شهوته و قد أيد بالعقل و حرم عنه البهيمه،و لذلك قال اللّه تعالى:

«أولئك كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا» (۲).

فصل

اعلم أن الحاجه إلى الصبر عامه فى جميع الأحوال،لأن جميع ما يلقى العبد فى هذه الحياه لا يخلو من نوعين:فإنه إمّا أن يوافق هواه أو يخالفه.فإن وافق هواه كالصحّه و السّلامه و الثروه و الجاه و كثره العشيره،فما أحوجه إلى الصبر معها،فإنه إن لم يضبط نفسه طغى و استرسل فى التنعم و اتباع الهوى،و نسى المبتدى و المنتهى؛و لذلك قالت الصحابه-رضوان اللّه عليهم أجمعين- بلينا بفتنه الضرّاء فصبرنا،و بلينا بفتنه السرّاء فلم نصبر؛و لذلك قيل:يصبر على البلاء كلّ مؤمن،و لا يصبر على العافيه إلا صدّيق.

و معنى الصبر فيها،أن لا يركن إليها،و يعلم أن كل ذلك وديعه عنده،و يسترجع على القرب،و أن لا ينهمك فى الغفله و التنعّم،و يؤدى حق شكر النعمه،و ذلك مما يطول شرحه.

النوع الثانى:ما يخالف الهوى،و ذلك أربعه أقسام:

القسم الأول الطاعات:و النفس تنفر عن بعضها بمجرّد الكسل كالصلاه،و عن بعضها بالبخل كالزكاه،و عن بعضها بهما جميعا كالحج و الجهاد،و الصبر على الطاعه

۱- سوره ۹ - آيه ۱۰۲

۲- نصّ الآيه ۱۷۹ من سوره الأعراف: أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ .و نص الآيه ۴۴ من سوره الفرقان: إِنْ هُمْ إِلّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا .

من الشدائد.و يحتاج المطيع إلى الصبر فى ثلاث أحوال:أحدها:أول العباده بتصحيح الإخلاص،و الصبر عن شوائب الرياء و مكايد الشيطان،و مكايد النفس و غرورها.

الثانيه:حاله العمل كيلا يتكاسل عن تحقيق أدائه بفروضه و سننه،و يوقع على شرط الأدب مع حضور القلب و نفى الوسواس.الثالثه:بعد الفراغ،و هو أن يصبر عن ذكره و إفشائه للتظاهر به رياء و سمعه.و كل ذلك من الصبر الشديد على النفس.

القسم الثانى المعاصى:و قد قال صلى اللّه عليه و سلم:«و المجاهد من جاهد هواه،و المهاجر من هجر السوء»،و الصبر عن المعاصى أشدّ،لا سيما عن معصيه صارت عاده مألوفه،إذ يتظاهر فيه على بواعث الدين جندان:جند الهوى،و جند العاده.فإن انضم إلى ذلك سهوله و خفه المئونه فيه،لم يصبر عنها إلا الصدّيق؛و ذلك كمعاصى اللسان،فإنها هيّنه سهله؛و ذلك كالغيبه و الكذب و المراء و الثناء على النفس.و يحتاج فى دفع ذلك إلى أشد أنواع الصبر.

القسم الثالث:ما لا يرتبط باختيار العبد،و لكن له اختيار فى دفعه و تداركه، كالأذى الذى يناله من غيره بيد أو لسان.فالصبر على ذلك بترك المكافاه تاره يجب، و تاره يستحب.قال بعض الصحابه:ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى.قال اللّه عز و جل: وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا،وَ عَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (۱) [إبراهيم:۱۲].و قال اللّه تعالى: وَ دَعْ أَذاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ (۲) [الأحزاب:۴۸].

و قال تعالى: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السّاجِدِينَ (۳) [الحجر:۹۷].

القسم الرابع:ما لا يدخل أوله و آخره تحت الاختيار،كالمصائب بموت الأعزّه، و هلاك الأموال،و المرض،و ذهاب بعض الأعضاء،و سائر أنواع البلاء،و الصبر عليه من أعلى المقامات.قال ابن عباس-رضى اللّه عنه-:الصبر فى القرآن على ثلاث مقامات:صبر على أداء الفرائض و له ثلاثمائه درجه،و صبر على محارم اللّه تعالى و له ستمائه درجه،و صبر على المصيبه عند الصدمه الأولى و له تسعمائه درجه.و قال صلى اللّه عليه و سلم:

قال اللّه تعالى:«إذا ابتليت عبدى ببلاء فصبر و لم يشتك إلى عوّاده أبدلته لحما خيرا من لحمه،و دما خيرا من دمه،فإن أبرأته أبدلته و لا ذنب له،و إن توفيته فإلى رحمتى».و قال النبى-عليه السلام-:«قال اللّه تعالى:إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبه فى بدنه أو

۱- سوره ۱۴ - آيه ۱۲

۲- سوره ۳۳ - آيه ۴۸

۳- سوره ۱۵ - آيه ۹۷

فی ماله أو ولده،ثم استقبل ذلک بصبر جمیل،استحییت منه یوم القیامه أن أنصب له میزانا،أو أنشر له دیوانا».و قال علیه السلام:«انتظار الفرج بالصبر عباده».و قال علیه السلام:«من إجلال اللّه تعالی و معرفه حقه أن لا تشکو وجعک،و لا تذکر مصیبتک».

فقد عرفت أنک لا تستغنی عن الصبر فی جمیع أوقاتک،و به یظهر أنه شطر الإیمان؛ و شطره الآخر فیما یتعلق بالأعمال و هو الشکر،فقد قال صلی اللّه علیه و سلم:«الإیمان نصفان:نصف صبر،و نصف شکر».و هذا باعتبار النظر إلی الأعمال و التعبیر بالإیمان عنها.

الأصل الخامس الشکر:

اشاره

و قد قال اللّه تعالی: وَ قَلِیلٌ مِنْ عِبادِیَ الشَّکُورُ (۱) [سبأ:۱۳]و قال: لَئِنْ شَکَرْتُمْ لَأَزِیدَنَّکُمْ (۲) [إبراهیم:۷]،و قال: وَ اشْکُرُوا لِی وَ لا تَکْفُرُونِ (۳) [البقره:۱۵۲]، و قال: وَ سَیَجْزِی اللّهُ الشّاکِرِینَ (۴) [آل عمران:۱۴۴]،و قال: ما یَفْعَلُ اللّهُ بِعَذابِکُمْ إِنْ شَکَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ (۵) [النساء:۱۴۷].و قال النبی صلی اللّه علیه و سلم:«للطاعم الشاکر منزله الصائم الصابر عند اللّه».و کان رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم یبکی فی تهجده،فقالت عائشه-رضی اللّه عنها- و ما یبکیک؟و قد غفر اللّه لک ما تقدّم من ذنبک و ما تأخر.فقال-علیه السلام-:«أ فلا أکون عبدا شکورا؟»،و قال:«ینادی یوم القیامه لیقم الحامدون،فیقوم زمره فینصب لهم لواء فیدخلون الجنّه»،فقیل و من الحامدون؟قال:«الذین یشکرون اللّه علی کل حال».و قال:«الحمد رداء الرحمن».

[فصل فی مقام الشکر]

اعلم أن الشکر من المقامات العالیه،و هو أعلی من الصبر و الخوف و الزهد و جمیع المقامات التی سبق ذکرها،لأنها لیست مقصوده فی أنفسها،و إنما تراد لغیرها.

فالصبر یراد منه قهر الهوی،و الخوف سوط یسوق الخائف إلی المقامات المقصوده المحموده،و الزهد هرب من العلائق الشاغله عن اللّه تعالی،و أما الشکر فمقصود فی نفسه و لذلک لا ینقطع فی الجنه،و لیس فیها توبه و لا خوف و لا صبر و لا زهد.و الشکر دائم فی الجنه،و لذلک قال اللّه تعالی: وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ (۶) [یونس:۱۰].و تعرف ذلک بأن تعرف حقیقه الشکر،و أنه ینتظم من علم و حال و عمل:

أما العلم،فالعلم بالنعمه و المنعم،بأن النّعم کلها من اللّه تعالی،و هو المنفرد بجمیعها.و الوسائط کلّهم مسخرون مقهورون.و هذه المعرفه وراء التقدیس و التوحید،

۱- سوره ۳۴ - آیه ۱۳

۲- سوره ۱۴ - آیه ۷

۳- سوره ۲ - آیه ۱۵۲

۴- سوره ۳ - آیه ۱۴۴

۵- سوره ۴ - آیه ۱۴۷

۶- سوره ۱۰ - آیه ۱۰

فإنهما داخلان فيه؛بل الرتبه الأولى فى معارف الإيمان التقديس،ثم إذا عرفت ذاتا مقدسه و عرفت أنه لا مقدس إلا واحد،فهو التوحيد.ثم إذا علمت أن كل ما فى العالم فهو موجود من ذلك الواحد،و الكل نعمه منه خاصه،فهو الحمد.و إلى هذا الترتيب الإشاره بقوله صلى اللّه عليه و سلم:«من قال سبحان اللّه،فله عشر حسنات،و من قال لا إله إلا اللّه،فله عشرون حسنه،و من قال الحمد للّه،فله ثلاثون حسنه».و هذا لأن التقديس و التوحيد داخلان فى الحمد و زياده،و هذه الدرجات بإزاء هذه المعارف.و أما حركه اللسان ففضلها بحسب صدورها عن المعرفه أو تجديدها للاعتقاد فى القلب،فإن الفم آله لإزاله الغفله لينمحى أثرها.

و اعلم أنك إذا اعتقدت أن لغير اللّه دخلا فى النعمه الواصله إليك لم يصح حمدك،و لم تتم معرفتك و شكرك،و كنت كمن يخلع عليه الملك و هو يرى أن لعنايه الوزير دخلا فى خلعه الملك أو فى إيصاله إليه.أو فى تيسيرها؛و كل ذلك اشتراك فى النعمه،و يتوزع فرحك فى النعمه عليهما.نعم،لو رأيت الخلعه الواصله إليك بتوقيع الملك بقلمه،فذلك لا يقصر من شكرك،لأنك تعلم أن القلم مسخر له،لا دخل له فى النعمه بنفسه؛و لذلك لا يلتفت قلبك إلى الفرح بالقلم و الشكر له؛و لذلك قد لا يلتفت إلى الخازن و الوكيل إذ يعلم أنهما مضطران إلى العطاء بعد الأمر،مسخران لا مدخل لهما بأنفسهما فى النّعمه.

فكذلك من انفتحت بصيرته علم أن الشمس و القمر و النجوم مسخرات بأمر اللّه تعالى،كالقلم و الكاغد (۱)و الحبر فى التّوقيع؛و أن قلوب الخلق خزائن اللّه تعالى، و مفاتيحها بيد اللّه عز و جل،فيفتحها بأن يسلط عليها دواعى جازمه حتى يعتقد أن خيرها فى البذل مثلا،و عند ذلك لا يستطيع ترك البذل،فيكون مضطرا إلى الاختيار لما سلط عليه من دواعى الاختيار،فإنه لا يعطيك أحد شيئا إلا لغرض نفسه ليستفيد به فى الآجل ثوابا،و فى العاجل ثناء و ذكرا،أو غير ذلك؛و ما لم يعلم أن منفعته فى منفعتك،فلا يعطيك؛فإذا ليس هو منعما عليك إذ يسعى لنفسه،إنما المنعم عليك من سخره و سلّط هذه الدواعى عليه،و قرر فى نفسه أن غرضه منوط بالأداء و الإنعام.فإن عرفت الأموره.

۱- الكاغد:الورق،أو القرطاس،و الكلمه فارسيه.

كذلك،كنت موحّدا و تصوّر منك الشكر،بل هذه المعرفه هى عين الشكر.قال موسى- عليه السلام-فى مناجاته:إلهى خلقت آدم بيدك و فعلت و فعلت،فكيف شكرك؟قال:

علم أن ذلك منّى فكان معرفه ذلك شكرا.

الركن الثانى:الحال المستثمره من المعرفه،و هى الفرح بالمنعم مع هيئه الخضوع و الإجلال.و من يرسل إليه بعض الملوك فرسا فيتصور أن يفرح به من ثلاثه أوجه:إحداها من حيث أنه ينتفع بالفرس،أو من حيث يستدل به على عنايه الملك بشأنه،و أنه سينعم عليه بما هو أعظم منه،أو من حيث أن الفرس يكون مركبا له حتى يسافر إلى حضره الملك و يخدمه.و الأول ليس من الشكر فى شىء،فإنه فرح بالنعمه لا بالمنعم.و الثانى،داخل فى الشكر شيئا،لكنه ضعيف بالإضافه إلى الثالث،فكمال الشكر أن يكون الفرح بما يفتح اللّه تعالى من نعمه،لا بالنعمه من حيث هى نعمه،بل بها من حيث إنها وسيله إليه،إذ بنعمته تتم الصالحات،و علامه هذا أن لا يفرح بكلّ نعمه تلهيه عن ذكر اللّه تعالى،بل يغتمّ بها و يفرح بما زوى (۱)اللّه تعالى عنه من شغل الدنيا و فضولها،و هذا أكمل الشكر.فمن لم يستطع فعليه بالثانى.و أما الأول،ففرح بالنّعمه لا بالمنعم،و ليس ذلك من الشكر فى شىء.

الركن الثالث:العمل؛و ذلك بأن يستعمل نعمه فى محابّه لا فى معاصيه،و هذا لا يقوم به إلا من يعرف حكمه اللّه تعالى فى جميع خلقه،و أنه لما ذا خلق كل شىء؛و شرح ذلك يطول.و قد ذكرنا منه طرفا فى الإحياء (۲)،و جملته أن يعلم مثلا أن عينه نعمه منه، فشكرها أن يستعملها فى مطالعه كتاب اللّه،و كتب العلم،و مطالعه السموات و الأرض، ليعتبر بهما و يعظم خالقها،و أن يستر كلّ عوره يراها من المسلمين،و يستعمل أذنه فى سماع الذكر،و ما ينفعه فى الآخره،و يعرض عن الإصغاء إلى الهجر و الفضول، و يستعمل اللسان فى ذكر اللّه تعالى و الحمد له،فى إظهار الشكر منه دون الشكوى؛و من سئل عن حاله فشكى فهو عاص،لأنه شكا ملك الملوك إلى عبد ذليل لا يقدر على شىء،فإن شكر فهو مطيع.و أما شكر القلب،فاستعماله فى الفكر و الذكر و المعرفهى.

۱- زوى:منع،و صرف.

۲- إحياء علوم الدين من أعظم مؤلفات الغزالى.

و إضمار الخير للخلق و حسن النيه،و كذلك فى اليد و الرجل و سائر الأعضاء و الأموال، و غير ذلك مما لا ينحصر.

فصل

اعلم أنه إنما يتمكن فى كمال الشكر،من شرح اللّه صدره للإسلام،فهو على نور من ربه،يرى فى كل شىء حكمته و سره و محبوب اللّه فيه.و من لم ينكشف له ذلك فعليه باتباع السنّه و حدود الشرع،فتحتها أسرار الشكر.و ليعلم أنه لو نظر إلى غير محرم مثلا- فقد كفر نعمه العين،و نعمه الشمس،و كل نعمه لا- يتم النظر إليها إلا- بها،فإن الإبصار إنما يتم بالعين و نور الشمس،و الشمس إنما تتم بالسماوات،فكأنه كفر أنعم اللّه تعالى فى السموات و الأرض.و قس على هذا كل معصيه،فإنها إنما تتمكن بأسباب تستدعى وجود جميعها خلق السموات و الأرض.و لهذا غور عميق أشرنا إليه فى كتاب الشكر من كتاب الإحياء؛و يكفيك هاهنا مثال واحد:و هو أن اللّه تعالى خلق الدراهم و الدنانير لتكون حاكمه فى الأحوال كلها،يقدّر بها القيم،و لولاها لتعذرت المعاملات،إذ لا- يدرى كيف يشترى الثياب بالزّعفران،و الدواب بالأطعمه،فإنها لا مناسبه بينهما،و إنما يشتركان فى روح الماليه.و معيار مقدار أرواحهما هو النّقدان،فمن كنزهما كان كمن حبس حاكما من حكام المسلمين حتى تعطلت الأحكام.و من اتخذ منهما آنيه،كان كمن استعمل حاكما من حكام المسلمين فى الحياكه و الفلاحه التى يقدر عليها كلّ أحد حتى يتعطل الحكم،و ذلك أشد من الحبس.و من أربى فيهما و جعلهما مقصد تجارته بالمصارفه بين جيّدهما و رديئهما كان كمن شغل الحاكم عن الحكم،فاتخذه سخره لنفسه ليحتطب له،و يكنس له،و يكتسب له القوت.و كل ذلك ظلم و تغيير لحكم اللّه عز و جل فى خلقه و عباده و معاداه للّه تعالى فى محابه.و من لا ينكشف له بنور البصيره هذه الأسرار،عرف على لسان الشرع صورته دون معناه،و قيل له: اَلَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّهَ وَ لا يُنْفِقُونَها فِى سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (۱) إلى قوله تعالى:

...يَكْنِزُونَ (۲) [التوبه:۳۴،۳۵].

و قيل:«من شرب فى إناء من ذهب أو فضه،فكأنما يجرجر فى بطنه نار جهنم».

و قيل: اَلَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاّ كَما يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ (۳) [البقره:

۲۷۵]الآيه.فالصالحون يقفون على الحدود و لا يعرفون أسرارها،و العارفون إذا

۱- سوره ۹ - آيه ۳۴

۲- سوره ۹ - آيه ۳۴

۳- سوره ۲ - آيه ۲۷۵

اطّلعوا على الأسرار بأنفسهم و شاهدوا شواهد الشرع ازدادوا نورا على نور،و العميان الجاهلون يحرمون الوقوف على الحدود،و العثور على الأسرار جميعا،فلا هم كعبيد أتقياء،و لا كأحرار كرام؛و هم الذين قال فيهم: وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى... (۱) (۲)الآيه.

و قال تعالى: أَ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى... (۳) [الرعد:

۱۹]الآيه.و قال: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى،فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً (۴) ،إلى قوله: فَنَسِيتَها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى (۵) [طه:۱۲۴-۱۲۶].و آيات اللّه حكمته فى خلقه.و قد ألقيت إلى الخلق على لسان الأنبياء-صلوات اللّه عليهم-كما فصلت فى جمله الشريعه من أولها إلى آخرها.و ما من حد من حدود الشرع إلا و فيه سر،و خاصيه،و حكمه،يعرفها من يعرفها،و ينكرها من يجهلها.و شرح ذلك طويل،فليطلب من كتاب الشكر.و لا يتصور تمام الشكر إلا ممن قام للّه تعالى وحده،مخلصا لا رغبه فيه لغيره؛فلنذكر الإخلاص و الصّدق:

الأصل السادس الإخلاص و الصدق:

اشاره

اعلم أن للإخلاص حقيقه و أصلا و كمالا،فهذه ثلاثه أركان.و أصله النيّه،إذ فيها الإخلاص.و حقيقته نفى الشّوب (۶)عن النيه،و كماله الصدق.

[اركان الاخلاص]

الركن الأول النيه:

اشاره

و قد قال اللّه تعالى: وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداهِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ (۷) [الأنعام:۵۲]و معنى النيه إراده وجهه.و قال صلى اللّه عليه و سلم:«إنما الأعمال بالنيات...»الحديث.و قال:«إن الملائكه ترفع صحيفه عمل العبد فيقول اللّه تعالى:ألقوها،فإنه لم يرد بها وجهى،و اكتبوا له كذا و كذا،فيقول الملائكه:إنه لم يعمل منها شيئا،فيقول اللّه عز و جل:إنه نواه إنه نواه».و قال صلى اللّه عليه و سلم:«الناس أربعه:رجل أتاه اللّه علما و مالا،فهو يعمل بعلمه فى ماله،فيقول رجل:لو آتانى اللّه ما آتاه لعملت كما يعمل،فهما فى الأجر سواء،و رجل آتاه اللّه مالا،و لم يؤته علما فهو يخبط بجهله فى ماله،فيقول رجل:لو آتانى اللّه تعالى ما آتاه لعملت كما يعمل فهما فى الوزر

۱- سوره ۳۲ - آيه ۱۳

۲- من الآيه ۱۳ من سوره السجده؛و تمامها: وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَ

النّاسِ أَجْمَعِينَ .

۳- سوره ۱۳ - آیه ۱۹

۴- سوره ۲۰ - آیه ۱۲۴

۵- سوره ۲۰ - آیه ۱۲۶

۶- الشوب:ما خلطته بغیره.

۷- سوره ۶ - آیه ۵۲

سواء»،و قال علیه السلام:«من غزی و لا- ینوی إلا- عقالا- فله ما نوی».و یقال إن رجلا فی بنی إسرائیل مرّ بکثبان رمل فی أیام قحط،فقال فی نفسه:لو کان لی هذا الرمل طعاما لقسمته بین الناس،فأوحی اللّه تعالی إلی نبیهم:«قل له إن اللّه تعالی قد قبل صدقتک، و شکر حسن نیتک،و أعطاک ثواب ما لو کان طعاما فتصدّقت به».و قال علیه السلام:«إذا التقی المسلمان بسیفیهما،فالقاتل و المقتول فی النار».فقیل:ما بال المقتول؟فقال:

«أراد قتل صاحبه».و قال علیه السلام:«من تزوج امرأه علی صداق و هو لا- ینوی أداءه فهو زان،و من أدان دینا و هو لا- ینوی قضاءه فهو سارق».

[فصل فی حقیقه النیه]

حقیقه النیه هی الإراده الباعثه للقدره المنبعثه عن المعرفه.و بیانه أن جمیع أعمالک لا تصح إلا بقدره و إراده و علم؛و العلم یهیج الإراده،و الإراده باعثه للقدره، و القدره خادمه الإراده بتحریک الأعضاء،مثاله:أنه خلق فیک شهوه الطّعام إلا أنها قد تکون فیک راکده کأنها نائمه.و إذا وقع بصرک علی طعام حصلت المعرفه بالطعام، فانتهضت الشهوه للطعام،فامتدت إلیه الید،و إنما امتدت الید بالقوه التی فیها،المطیعه لإشاره الشهوه،و انتهضت الشهوه بحصول المعرفه المستفاده من طلیعه الحسّ.و کما خلق فیک شهوه إلی الأشیاء الحاضره،خلق فیک أیضا میل إلی اللذّات الآجله ینتهض ذلک المیل بإشاره المعرفه الحاصله من العقل،و القدره أیضا تخدم هذا المیل بتحریک الأعضاء،فالنیه عباره عن المیل الجازم الباعث للقدره،و الذی یغزو قد یکون الباعث له میلا إلی المال فذلک نیته،و قد یکون الباعث میلا إلی ثواب الآخره فذلک نیته؛فإذا النیه عباره عن الإراده الباعثه،و معنی إخلاصها تصفیه الباعث عن الشّوب.

[فصل النیه و العمل بهما تمام العباده]

إذا حصل العمل بباعث النیه،فالنیه و العمل بهما تمام العباده.فالنیه أحد جزئی العباده،لکنها خیر الجزءین،لأن الأعمال بالجوارح لیست مراده إلا- لتأثیرها فی القلب، لیمیل إلی الخیر،و ینفر عن الشر،فیتفرغ للفکر و الذکر الموصلین له إلی الأنس و المعرفه،اللذین هما سبب سعادته فی الآخره.فلیس المقصود من وضع الجبهه علی الأرض،وضع الجبهه علی الأرض،بل خضوع القلب؛و لکن القلب یتأثر بأعمال الجوارح.و لیس المقصود من الزکاه إزاله الملک،بل إزاله رذیله البخل،و هو قطع

علاقه القلب من المال.و ليس المقصود من الضحيه لحومها و لا دماؤها،و لكن استشعار القلب للتقوى بتعظيم شعائر اللّه تعالى.و النيه عباره عن نفس ميل القلب إلى الخير،فهو متمكّن من حدقه المقصود،فهو خير من عمل الجوارح الذى إنما يراد منه سرايه أثره إلى محل المقصود و هو القلب؛و لذلك يورث جميع أعمال القلب دون الجوارح فيه أثرا ما.

و عمل الجارحه دون حضور القلب هباء و لا أثر له.و مهما قصد فمعالجه المعده بما يصل من الأدويه بالشّرب إليها أنفع لا محاله مما يطلى به ظاهر المعده ليسرى إليها أثره.

و كذلك إذا لم يسر أثر الطلاء إلى المعده كان باطلا.و بهذا التحقيق يعرف سر قوله صلى اللّه عليه و سلم:

«نيّه المؤمن خير من عمله».

[فصل فى فضل النيه]

فى فضل النيه و أنها تحل حدقه المقصود فيؤثّر فيها،فاجتهد أن تستكثر من النيه فى جميع أعمالك،حتى تنوى بعمل واحد نيات كثيره؛و لو صدقت رغبتك هديت لطريقه.و يكفيك مثال واحد،و هو أن الدخول فى المسجد و القعود فيه عباده.و يمكن أن تنوى فيه ثمانيه أمور:

أولها:أن تعتقد أنه بيت اللّه عز و جل،و أن داخله زائر اللّه تعالى فتنوى ذلك؛قال عليه السلام:«من قعد فى المسجد فقد زار اللّه تعالى».و حقّ على المزور إكرام زائره، و ثانيها:نيه المرابطه،لقول اللّه تعالى: وَ صابِرُوا وَ رابِطُوا (۱) [آل عمران ۲۰۰].و قيل معناه انتظار الصلاه بعد الصلاه.و ثالثها:الاعتكاف،و معناه كفّ السمع و البصر و الأعضاء عن الحركات المعتاده،فإنه نوع صوم؛قال صلى اللّه عليه و سلم:«رهبانيه أمّتى القعود فى المساجد».و رابعها:الخلوه،و رفع الشواغل للزوم السرّ للفكر فى الآخره،و كيفيه الاستعداد لها.و خامسها:التجرّد للذكر و سماعه أو إسماعه،لقوله صلى اللّه عليه و سلم:«من غدا إلى المسجد يذكر اللّه تعالى أو يذكر به،كان كالمجاهد فى سبيل اللّه تعالى:».و سادسها:

أن يقصد إفاده علم و تنبيه من يسىء الصلاه و نهيا عن منكر و أمرا بمعروف،حتى يتيسر بسببه خيرات و يكون شريكا فيها.و سابعها:أن تترك الذنوب حياء من اللّه عز و جل بأن يحسن نيته فى نفسه،و قوله و عمله،حتى يستحى منه من رآه أن يقارف (۲)ذنبا.و ثامنها:

أن تستفيد أخا فى اللّه،فإن ذلك غنيمه و ذخيره لدار الآخره.

۱- سوره ۳ - آيه ۲۰۰

۲- يقارف:يرتكب ذنبا.

و المسجد يعشّش أهل الدين المحبين للّه و فى اللّه.و قس على هذا سائر الأعمال، فباجتماع هذه النيات،تزكو الأعمال،و تلتحق بأعمال المقرّبين،كما أنه بنقيضها يلتحق بأعمال الشياطين،كمن يقصد من القعود فى المسجد التحدّث بالباطل،و التفكه بأعراض الناس،و مجالسه أخدان (۱)اللهو و اللّعب،و ملاحظه من يجتاز به من النّسوان و الصبيان،و مناظره من ينازعه من الأقران على سبيل المباهاه و المراءاه،باقتناص قلوب المستمعين لكلامه و ما يجرى مجراه.و كذلك لا ينبغى أن يغفل فى المباحات عن حسن النيه،ففى الخبر:أن العبد يسأل يوم القيامه عن كلّ شىء حتى عن كحل عينيه،و عن فتات الطين بإصبعيه،و عن لمسه ثوب أخيه.و مثال النيه فى المباحات أن من يتطيب يوم الجمعه يمكنه أن يقصد التنعم بلذته و التفاخر بإظهار ثروته،أو التزويق للنساء و أخدان الفساد،و يتصور أن ينوى اتّباع السنّه و تعظيم بيت اللّه تعالى،و احترام يوم الجمعه، و دفع الأذى عن غيره بدفع الرائحه الكريهه،و إيصال الراحه إليهم بالرائحه الطيبه،و حسم باب الغيبه،إذا شموا منه رائحه كريهه.و إلى الفريقين الإشاره بقوله صلى اللّه عليه و سلم:«من تطيب فى اللّه جاء يوم القيامه و ريحه أطيب من ريح المسك،و من تطيب لغير اللّه جاء يوم القيامه و ريحه أنتن من الجيفه».

[فصل فى أن النيه لا تدخل تحت الاختيار]

اعلم أن النيه لا تدخل تحت الاختيار،فلا ينبغى أن تغتر فتقول بلسانك و قلبك:

نويت من القعود فى المسجد كذا و كذا؛و تظن أنك قد نويت،إذ عرفت من قبل أن النيه هى الباعث المتحرك الذى لولاه لم يتصور وجود العمل.و النيه المتكلّفه كقول القائل:

نويت أن أحب فلانا و أعشقه و أعظّمه؛أو نويت أن أعطش أو أجوع أو أشبع.فإن لكل هذه دواعى و صوارف،و تحقّقها أسبابها،إذ لا يتصور حصولها دون أسبابها.و قول القائل:نويتها قبل تحققها،حديث نفس لا نيّه.فمن وطئ لغلبه شهوه الوقاع من أين ينفعه قوله نويت الوطء لحراثه الولد و تكثير عدد من به المباهاه،بل لا تظفر بانبعاث هذه النيات من قلبك إلا إذا قوى إيمانك و تمّت معرفتك بحقاره الحظوظ العاجله،و عظم ثواب الآخره،حتى إذا غلب ذلك عليك انبعث منك الرغبه ضروره فى كل ما هو وسيله

۱- أخدان:جمع خدن،و هو الصاحب.

إلی ثواب الآخره،و إن لم ینبعث فلا نیّه لک.و لمثل هذا توقف السّلف فی جمله من الخیرات،حتی روی أن محمد بن سیرین لم یصلّ علی جنازه الحسن البصری،و قال لیس تحضرنی النیّه.و قیل لطاوس:ادع لنا!فقال:حتی أجد له نیّه.و قال بعضهم:أنا فی طلب نیه لعیاده رجل منذ شهر،فما صحّت لی نیه بعد.

و من عرف حقیقه النیه و علم أنها روح العمل،فلا یتعب نفسه بعمل لا روح له، و یحقق ذلک أن المباح قد یصیر أفضل من العباده إذا حضرت فیه نیه.فمن له نیه فی الأکل و الشرب لیقوی علی العباده،و لیس تنبعث له نیه الصوم فی الحال،فالأکل أولی له.و من ملّ العباده و علم أنه لو نام لعاد نشاطه،فالنوم أفضل له.بل لو علم مثلا أن الترفه بدعابه و حدیث مزاح فی ساعه یرد نشاطه،فذلک أفضل له من الصلاه مع الملال.

قال صلی اللّه علیه و سلم:«إن اللّه لا یملّ حتی تملوا».و قال أبو الدرداء:إنی لأستجمّ نفسی بشیء من اللّهو فیکون ذلک عونا لی علی الحق.و قال علی-رضی اللّه عنه-:«روّحوا النفوس،فإنها إذا أکرهت عییت».و هذه دقائق یستثقلها الظاهریون من الفقهاء،کما یستثقل الطبیب الضعیف من الأطباء معالجه المحرور باللّحم؛و الحاذق منهم قد یأمر به لیعود قوه المریض حتی یحتمل الدواء النافع بعده.

الرکن الثانی فی إخلاص النیه:

اشاره

و قد قال اللّه تعالی: وَ ما أُمِرُوا إِلاّ لِیَعْبُدُوا اللّهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ حُنَفاءَ (۱) [البینه:۵]،و قال اللّه تعالی: أَلا لِلّهِ الدِّینُ الْخالِصُ (۲) [الزمر:۳]،و قال: إِلاَّ الَّذِینَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللّهِ وَ أَخْلَصُوا دِینَهُمْ لِلّهِ (۳) [النساء:۱۴۶].و قال النبی صلی اللّه علیه و سلم:قال اللّه تعالی:«الإخلاص سرّ من سرّی استودعته قلب من أحببت من عبادی».و قال-علیه السلام-لمعاذ:«أخلص العمل،یجزک القلیل منه».و قال-علیه السلام:«ما من عبد یخلص العمل أربعین یوما إلا ظهرت ینابیع الحکمه من قلبه علی لسانه».

[فصل فی حقیقه الإخلاص]

حقیقه الإخلاص تجرد الباعث الواحد،و یضادّه الإشراک،و هو أن یشترک الباعثان،و هو کل ما یتطور أن یمازجه غیره؛فإن صفا من کل شوب منه یسمّی خالصا.

و قد عرفت أن النیه هی الباعث،فمن لا یعمل إلا للریاء فهو مخلص،و من لا یعمل إلا

۱- سوره ۹۸ - آیه ۵

۲- سوره ۳۹ - آیه ۳

۳- سوره ۴ - آیه ۱۴۶

للّه فهو مخلص،و لكن خصص الاسم بأحد الجانبين بالعاده،كالإلحاد،فإنه ميل، و لكن خصص بالميل إلى الباطل.و زوال الإخلاص بشوائب الرياء قد ذكرناه،و لكن قد يزول أيضا بأغراض أخر؛فإن الصائم قد يقصد من العباده أن ينتفع بالحميه الصالحه الحاصله بالصوم،و قد يقصد المعتق أن يتخلّص بالعتق من مئونه العبد و سوء خلقه، و الحاجّ يحجّ ليصحّ مزاجه بحركه السفر،أو يهرب من مشقه تعهد العيال،أو من إيذاء الأعداء،أو من التبرم (۱)بالمقام مع الأهل،و المتعلم يتعلم العلم ليسهل عليه طلب المعاش،أو يكون محروسا بعز العلم عن الظلم،أو يكتب مصحفا ليجوّد خطّه،أو يحج ماشيا ليخفف مئونه الكراء،أو يتوضأ ليتنظف أو يتبرّد،أو يغتسل لتطيب رائحته، أو يعتكف ليخفف عليه كراء المسكن،أو يصوم ليخفف عن نفسه تعب الطّبخ و شراء الطعام،أو يتصدق ليدفع عن نفسه إبرام السائل،أو يعود مريضا ليعاد إذا مرض.فهذه الأغراض قد يتجرد منها و قد يشوب قصد العباده شوبا خفيّا،فإذا خطر شيء من هذه الأغراض فى الفعل،فقد ذهب الإخلاص،و ذلك عسير جدا،و لذلك قال بعضهم:فى إخلاص ساعه،نجاه الأبد،و لكن ذلك عزيز.و قال أبو سليمان الدارانى:طوبى لمن صحت له خطوه واحده لا يريد بها إلا اللّه عز و جل.و كان معروف الكرخى يضرب نفسه و يقول:يا نفسى أخلصى تتخلّصى.

فصل

اعلم أن امتزاج هذه الشّوائب على مراتب،فإنها قد تغلب و قد تكون مغموره، و قد تكون مساويه لقصد العباده،و لا تمحو أصل الثواب فى المباحات.و مهما بقى شوب من إراده اللّه عز و جل،فله ثواب بقدر ذلك الشوب،و الباقى لا ثواب عليه.فأما إذا كان فى العباده أمر بأن يخلصها اللّه تعالى،فإن كان الشوب غالبا بطلت العباده،و إن كان مساويا أو مغلوبا بطل الإخلاص.و لكن هل يتوقف انعقاد العباده و حصول أصلها على انتفاء الشوائب كلها؟فيه نظر أشرنا إليه فى الرياء.و يطلب استقصاؤه من كتاب الإحياء.

الركن الثالث الصدق:

و هو كمال الإخلاص؛قال اللّه تعالى: رِجالٌ صَدَقُوا ما (۲)

۱- التبرم من برم مثل ضجر ضجرا وزنا و معنى.

۲- سوره ۳۳ - آیه ۲۳

عاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ... (۱) [الأحزاب:۲۳]الآيه.و قال النبى عليه السلام:«إن الرجل ليصدق و يتحرّى الصدق حتى يكتب عند اللّه صدّيقا».و قال اللّه تعالى: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (۲) [مريم:۴۱].و يكفى بفضيله الصدق أن يدرك به فضيله الصّدّيقين.

و اعلم أن للصدق مراتب ستّا من بلغ فى جميعها رتبه الكمال استحق اسم الصّدق:

أولها:الصدق فى القول فى جميع الأحوال،ما يتعلق بالماضى و المستقبل و الحال.و لهذا الصدق كمالان:أحدهما:الحذر عن المعاريض أيضا،فإنه و إن كان صدقا فى نفسه،فيفهم خلاف الحق.و المحذور من الكذب تفهيم خلاف الحقّ،إذ يكتسب القلب صوره معوجّه كاذبه بإزاء كذب اللسان،و إذا مال وجه القلب من الصحه إلى الاعوجاج لم يتجلّ الحق له على الصحه حتى لا يصدق رؤياه أيضا.

و المعاريض لا توقع فى هذا المحذور لأنه صدق فى نفسه،لكن توقع فى المحذور، الثانى:و هو تجهيل المعنى،فلا ينبغى أن يفعل ذلك إلا لغرض صحيح.و كمال الثانى، أن يرعى الصدق فى أقاويله مع اللّه تعالى،فإذا قال:«وجّهت وجهى»،و فى قلبه فى تلك الحاله شىء سوى اللّه عز و جل،فهو كاذب،و إذا قال:«إياك نعبد»،و هو مع ذلك عبد للدنيا أو لنفسه أو لغيره لم يمكنه تحقيق صدق هذه الكلمه فى القيامه؛و لذلك قال عيسى-عليه السلام-يا عبيد الدنيا.و قال نبينا صلى اللّه عليه و سلم:«تعس عبد الدرهم و الدينار».

الصدق الثانى:فى النيه؛و هو أن يتمحض فيه داعيه الخير،فإن كان فيه شوب فقد فات الصدق للّه؛يقال هذا صادق الحموضه،و صادق الحلاوه،إذا كان محضا، فيرجع هذا إلى نفس الإخلاص.

و الصدق الثالث:فى العزم؛فإن العبد قد يعزم على التصدّق إن رزق مالا،و على العدل إن رزق ولايه،و عزمه تاره يكون مع ضعف و تردد،و تاره يكون جزما قويّا لا تردد فيه.فالجزم القوىّ يسمى قويّا صادقا،كما وجده عمر من نفسه-رضى اللّه عنه- حيث قال:لأن أقدّم فيضرب عنقى أحبّ إلىّ من أن أتأمّر على قوم فيهم أبو بكر-رضى اللّه عنه-.و درجات عزم الصديقين فى القوه قد تتفاوت،و أقصاها أن ينتهى إلى الرضاء بضرب الرقبه دون الحقيقه.

۱- سوره ۳۳ - آيه ۲۳

۲- سوره ۱۹ - آيه ۴۱

و الصدق الرابع:الوفاء بالعزم؛فإن النفس قد تسخو بالعزم أوّلا،و لكن عند الوفاء ربما تتوانى عن كمال التحقيق؛لأن المئونه فى العزم هيّن،و إنما الشده فى التحقيق،و لذلك قال تعالى: رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ (۱) [الأحزاب:۲۳]، و قال: وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ... (۲) [التوبه:۷۵]إلى قوله:

فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِى قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ (۳) [التوبه:۷۷].

الصدق الخامس:فى الأعمال؛بأن يكون بحيث لا يدل على شىء من الباطن إلا و الباطن متصف به.و معناه استواء السريره و العلانيه فالماشى على هدوء يدل بحكمه على أنه ذو وقار فى باطنه،فإن لم يكن كذلك فى الباطن و التفت قلبه إلى أن يخيّل إلى الناس أنه ذو وقار فى باطنه فذلك الرياء.و إن لم يلتفت إلى الخلق قلبه،و لكنه غافل، فليس ذلك برياء،و لكن يفوت به الصدق؛و لذلك قال صلى اللّه عليه و سلم:«اللهم اجعل سريرتى خيرا من علانيتى،و اجعل لى علانيه صالحه».و قال عبد الواحد:كان الحسن البصرى إذا أمر بشىء كان من أعمل الناس به،و إذا نهى عن شىء كان من أترك الناس له،و لم أرقط أحدا أشبه سريرته بعلانيته منه.

الصدق السادس:-و هو أعلى أبوابه-الصدق فى مقامات الدين؛كالخوف و الرجاء و الحب و الرضاء و التوكل و غيرها،فإن لهذه المقامات أوائل ينطلق الاسم بها،و لها حقائق و غايات؛إذ يقال هذا هو الخوف الصادق،و هى الشهوه الصادقه،و لذلك قال تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ،ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا... (۴) إلى قوله:

أُولئِكَ هُمُ الصّادِقُونَ (۵) [الحجرات:۱۵]،و قال تعالى: وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ... (۶) إلى قوله: أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا... (۷) [البقره:۱۷۷]الآيه.

فهذه درجات الصدق،فمن تحقق فى جميعها فهو صدّيق،و من لم يصب بعضها فمرتبته بقدر صدقه.و من جمله الصدق تحقيق القلب بأن اللّه هو الرزّاق و التوكل عليه! فلنذكره.

الأصل السابع فى التوكّل:

اشاره

قال اللّه تعالى: وَ عَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (۸) [إبراهيم:۱۲]،و قال اللّه تعالى: وَ عَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۹) [المائده:۲۳].و قال: إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ (۱۰)

۱- سوره ۳۳ - آيه ۲۳

۲- سوره ۹ - آيه ۷۵

۳- سوره ۹ - آيه ۷۷

۴- سوره ۴۹ - آيه ۱۵

۵- سوره ۴۹ - آیه ۱۵

۶- سوره ۲ - آیه ۱۷۷

۷- سوره ۲ - آیه ۱۷۷

۸- سوره ۱۴ - آیه ۱۲

۹- سوره ۵ - آیه ۲۳

۱۰- سوره ۳ - آیه ۱۵۹

اَلْمُتَوَكِّلِينَ (۱) [آل عمران:۱۵۹]و قال: وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ (۲) [الطلاق:۳] و قال: أَ لَيْسَ اللّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ (۳) [الزمر:۳۶]و قال: إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللّهِ الرِّزْقَ (۴) [العنكبوت:۱۷]و قال النبى صلى اللّه عليه و سلم:«لو أنكم تتوكّلون على اللّه حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا و تروح بطانا (۵)»،و قال:«من انقطع إلى اللّه كفاه اللّه تعالى كلّ مئونه و رزقه من حيث لا يحتسب،و من انقطع إلى الدنيا و كله اللّه إليها».و كان رسول اللّه إذا أصاب أهله خصاصه قال:«قوموا إلى الصلاه»،و يقول:«بهذا أمرنى ربى فقال:و أمر أهلك بالصلاه و اصطبر عليها لا نسألك رزقا،نحن نرزقك،و العاقبه للتّقوى».

[فصل فى حقيقه التوكل]

اشاره

حقيقه التوكل عباره عن حاله تصدر عن التوحيد،و يظهر أثرها على الأعمال،فهى ثلاثه أركان:المعرفه،و الحال،و العمل.

الركن الأول:المعرفه

اشاره

،و هى الأصل،و أعنى بها التوحيد،فإنه إنما يتوكل على اللّه من لا يرى فاعلا سوى اللّه.و كمال هذه المعرفه يترجمه قولك:«لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له،له الملك و له الحمد،و هو على كل شىء قدير»،إذ فيه إيمان بالتوحيد، و كمال القدره و الجود و الحكمه التى يستحق بها الحمد.فمن قال ذلك صادقا مخلصا فقد تمّ توحيده،و ثبت فى قلبه الأصل الذى منه ينبعث حال التوكل؛و أعنى بالصدق فيه أن يصير معنى القول وصفا لازما لذاته،غالبا على قلبه،لا يتّسع لتقدير غيره.

[فصل التوحيد له لبّان و قشران]

هذا التوحيد له لبّان و قشران،و طباقه أربع،كاللوز،له لبّ ثم الدّهن لبّ لبّه، و القشره العليا قشر قشره.فالقشره العليا القول باللسان المجرّد.الثانيه:الاعتقاد بالقلب جزما،و هو درجه عوام الخلق،و درجه المتكلمين،إذ لا يتميزون عن العوام إلا بمعرفه الحيله فى دفع تشويش المبتدعه عن هذه الاعتقادات.الثالثه:و هى اللّب،أن ينكشف بنور اللّه عز و جل حقيقه هذا التوحيد و سرّه بالحقيقه.و ذلك بأن يرى الأشياء الكثيره، و يعلم أنها بجملتها صادره عن فاعل واحد على الترتيب.و ذلك بأن يعرف سلسله

۱- سوره ۳ - آيه ۱۵۹

۲- سوره ۶۵ - آيه ۳

۳- سوره ۳۹ - آيه ۳۶

۴- سوره ۲۹ - آیه ۱۷

۵- خماصا جائعه،و بطانا:شبعانه.

الأسباب و كيفيه تسلسلها و ارتباط أول السلسله بسبب الأسباب.و صاحب هذا المقام بعد فی تفرقه لأنه یری الأفعال و کثرتها و ارتباطها بالفاعل.الرابعه:و هو لبّ اللب،أن لا یری فی الوجود إلا واحدا و یعلم أن الموجود بالحقیقه واحد،و إنما الکثره فیه فی حق من تفرق نظره کالذی یری من الإنسان مثلا- رجله،ثم یده،ثم وجهه،ثم رأسه،فیغلب علیه کثرته،فإن رأی الإنسان جمله واحده لم یخطر بباله الآحاد،بل کان کمدرک الشیء الواحد.

فکذلک الموحّد لا یفرق نظره بین السماء و الأرض و سائر الموجودات،بل یری الکلّ فی حکم الشیء الواحد.و هذا له غور،و یستدعی کشفه تطویلا فاطلبه من کتاب التوحید و الشکر من کتب الإحیاء لتقف علی تلویحات منه.و الفناء فی التوحید إنما یقع فی هذا التوحید؛و ذلک بأن یصیر مستغرقا بالواحد الحق،حتی لا یلتفت قلبه إلی غیره و لا إلی نفسه،فإن نفسه-من حیث هی نفسه-غیر اللّه،و إن لم یتحقق له معنی الغیریه بنظر آخر، و اعتبار علی وجه آخر.

[فصل فی حقیقه التوکل]

حقیقه التوکل إنما یستدعی توحید الفعل و لا یستدعی الفناء فی توحید الذات،بل المتوکل یجوز أن یری الکثره و الأسباب و المسببات،و لکن ینبغی أن یشاهد ارتباط السلسله بمسببها.و ما عندی أن ذلک یخفی علیک فیما یدخل فیه اختیار الآدمیین،فإنک إن رأیت المطر سببا فی النبات،فتعلم أن المطر مسخّر بواسطه الغیم،و الغیم مسخر بواسطه الریح و أبخره الجبال،و کذلک الجبال جمادات مسخره إلی أن ینتهی إلی الأول لا محاله.و إن کنت لا تعرف عدد الوسائط فلا یضرّک ذلک،و إنما الذی یخفی علیک أفعال الآدمیین، فإنک تقول:من أطعمنی طعاما فإنه یطعمنی باختیاره،إن شاء أعطی،و إن شاء منع، فکیف لا أراه فاعلا-و إنما مثلک فی الالتفات إلیه مثل النمله،تری الخط علی البیاض یحصل من حرکه القلم.فتضیف ذلک إلی القلم،إذ حدقتها الصغیره الضعیفه لا تمد إلی الإصبع،و منها إلی الید،و منها إلی القدره المحرکه للید،و منها إلی الإراده التی القدره مسخّره لها،و منها إلی المعرفه التی یتوقف انبعاث الإراده و انجزامها علیها،و منها إلی صاحب القدره و العلم و الإراده.فکذلک أنت تضیف أفعال العباد إلی إرادتهم و معرفتهم و قدرتهم،إذ لیس یمتد نظرک إلی القلم الذی تنسطر المعرفه به فی ألواح القلوب،و منه إلی الأصابع التی تنتهی إلی قلوب العباد،و منها إلی الید التی بها خمرت طینه آدم،و منها إلی القدره التی بها تتحرک الید لتخمیر الطینه،و منها إلی القادر الذی منه

يبدأ و إليه يعود.و ذلك لأنك لا تعرف معنى قول النبى صلى اللّه عليه و سلم:«إن اللّه خلق آدم على صورته»،و لا معنى قوله (۱)تعالى:«خمرت طينه آدم بيدى»،و لا معنى قوله تعالى:

عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ، كَلاّ إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى (۲) [العلق:۶،۵،۴].

فإنك لا- تعلم قلما إلا من قصب،و لا يدا و لا أصابع إلا من لحوم و عظام،و لا صوره إلا للألوان و الأشكال.فإن انكشف لك ذلك علمت أنك إذا رميت ما رميت،و لكن اللّه رمى،حيث سلط عليك دواعى جازمه،و معرفه حاكمه على القطع،بأن نجاتك فى الرمى مثلا-حتى انبعثت القدره التى انفرد بخلقها خادمه للإراده،و المعرفه خادمه بالتّسخير و الاضطرار،علمت أنك مضطر إلى عين الاختيار،فتفعل إن شئت ذلك،و تشاء إذا شاء اللّه،شئت أم أبيت.و هذا الآن فيه سرّ يحرّك قاعده الجبر و الاختيار،و يوهم تناقض التوحيد و تكليف الشرع،و قد شرحناه فى كتاب التوحيد و التوكل و الشكر من كتب الإحياء.فاطلبه منه إن كنت من أهله.

[فصل لا يكفى الإيمان بتوحيد الفعل و الذات]

لا يكفى الإيمان بتوحيد الفعل و الذات فى إثاره حاله التوكل حتى ينضاف إليه الإيمان بالرحمه و الجود و الحكمه،إذ به تحصل الثقه بالوكيل الحق،و هو أن يعتقد جزما أو ينكشف لك بالبصيره أن اللّه تعالى لو خلق الخلائق كلهم على عقل أعقلهم بل على أكمل ما يتصور أن يكون عليه حال العقل،ثم زادهم أضعاف ذلك علما و حكمه،ثم كشف لهم عواقب الأمور و أطلعهم على أسرار الملكوت و لطائف الحكمه،و دقائق الخير و الشر،ثم أمرهم أن يدبّروا الملك و الملكوت،لما دبّروه بأحسن مما هو عليه، و لم يمكنهم أن يزيدوا عليه أو ينقصوا منه جناح بعوضه،و لم يستصوبوا البته دفع مرض و عيب و نقص و فقر و ضر و جهل و كفر،و لا أن يغيروا قسمه اللّه تعالى من رزق و أجل و قدره و عجز و طاعه و معصيه،بل شاهدوا جميع ذلك عدلا محضا لا جور فيه،و حقّا صرفا لا نقص فيه،و استقامه تامه لا قصور فيها و لا تفاوت،بل كل ما يرون نقصا فيرتبط به كمال آخر أعظم منه،و ما ظنّوه ضررا فتحته نفع أعظم منه،لا- يتوصل إلى ذلك النفع إلا- به.و علموا قطعا أن اللّه تعالى حكيم جواد رحيم،لم يبخل على الخلق أصلا،و لم

۱- أى فى الحديث القدسى.

۲- سوره ۹۶ - آيه ۴

یدّخر فی إصلاحهم أمرا،و هذا الآن بحر آخر فی المعرفه،یحرّک أمواجه سرّ القدر الذی منع من ذکره المکاشفون،و تحیر فیه الأکثرون،و لا یعقله إلا العالمون،و لا یدرک تأویله إلا الرّاسخون.و أن حظ العوام،أن یعتقدوا أن کل ما یصیبهم لم یکن لیخطئهم، و ما یخطئهم لم یکن لیصیبهم.و أن ذلک واجب الحصول بحکم المشیئه الأزلیه،و أنه لا رادّ لحکمه،و لا معقّب لقضائه،بل کل صغیر و کبیر مستطر (۱)،و حصوله بقدر معلوم منتظر، وَ ما أَمْرُنا إِلاّ واحِدَهٌ کَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (۲) [القمر:۵۰].

الرکن الثانی:حال التوکل

اشاره

؛و معناه أن تکل أمرک إلی اللّه عز و جل،و یثق به قلبک،و تطمئن بالتفویض إلیه نفسک،و لا تلتفت إلی غیر اللّه أصلا؛و یکون مثالک مثال من وکّل فی خصومته فی مجلس القاضی من علم أنه أشفق الناس علیه،و أقواهم فی کشف الباطل،و أعرفهم به،و أحرصهم علیه،فإنه یکون ساکنا فی بیته،مطمئن القلب غیر متفکر فی کل الخصومه،غیر مستعین بآحاد الناس،لعلمه بأن وکیله حسبه و کافیه فی غرضه،و أنه لا یقاومه غیره.

فمن تحققت معرفته بأن الرزق و الأجل و الخلق و الأمر بید اللّه تعالی،و هو منفرد به لا شریک له،و أن جوده و حکمته و رحمته لا نهایه لها و لا یوازیها رحمه غیره و جوده، و اتّکل قلبه بالضروره علیه،و انقطع نظره عن غیره؛فإن لم ینقطع فلا یکون ذلک إلا لأحد أمرین:

أحدهما:ضعف الیقین بما ذکرناه؛و ضعف الیقین إنما یکون لتطرق شک إلیه أو لعدم استیلائه علی القلب.فإن الموت یقین لا شک فیه،و لکنه إذ لا یستولی علی القلب فهو کشکّ لا یقین فیه.

الأمر الثانی:أن یکون القلب فی الفطره جبانا ضعیفا،فالجبن و الجرأه فطرتان، و الجبن یوجب کون النفس مطیعه لأوهام لا شکّ فی بطلانها،حتی قد یخاف الإنسان أن یبیت مع المیت فی فراش،أو فی بیت،مع علمه بأن اللّه لا یحییه،و أن قدرته علیه کقدرته علی أن یقلب فی یده العصا حیّه،و هو لا یخاف ذلک.بل قد یشبه العسل

۱- مستطر:مکتوب.

۲- سوره ۵۴ - آیه ۵۰

بالعذره فيتعذر عليه تناوله مع علمه بأنه تشبيه كاذب،و ذلك لخور النفس و طاعه الأوهام.

فكما لا يخلو الإنسان عن شيء منه و إن ضعف،فكذلك لا يبعد أن يحصل اليقين بالتوحيد بحيث لا يخالجه ريب،و مع ذلك فيفرغ القلب إلى الأسباب.

[فصل فى درجات التوكل]

إذا عرفت أن التوكل عباره عن حاله القلب فى الثقه بالوكيل الحق،و قطع الالتفات إلى غيره،فاعلم أن فيه ثلاث درجات:إحداها ما ذكرناه،و هو كالثقه بالوكيل فى الخصومه،بعد اعتقاد كماله فى الهدايه و القدره و الشفقه.الثانيه،و هى أقوى منها، تضاهى حاله الصبىّ فى ثقته بأمه،و فزعه إليها فى كلّ ما يصيبه،و ذلك لثقته بشفقتها و كفالتها؛و لكنه فى توكله فان عن توكله (۱)فإنه ليس يحصله بفكر و كسب،و إن كان لا يخلو توكله عن نوع إدراك؛و أما التوكل على الوكيل بالخصومه،فكالمكتسب بالفكر و النظر.و الثالثه:و هى الأعلى،أن يكون بين يدى اللّه تعالى كالميت بين يدى الغاسل، لا كالصبى،فإنه يزعق بأمه و يتعلق بذيلها،بل هذا كالصبى علم أنه و إن لم يزعق بأمه فإنها تطلبه،و إن لم يتعلق بذيلها فهى تحمله،و إن لم يسألها فهى تبتدئ بإرضاعه، فيكون هذا الشخص فى حق اللّه عزّ و جلّ ساقط الاختيار،لعلمه بأنه مجرى القدر فلا يبقى فيه متسع لغير الانتظار لما يجرى عليه.و هذا المقام يأبى الدعاء و السؤال،و لا يمتنع الدعاء فى المقام الثانى و الأول،و يمتنع التدبير فى المقام الأخير،و يمتنع فى الثانى أيضا،إلا فى التعلق بالوكيل فقط.و فى الأول يمتنع التدبير بالتعلق بغيره،و لا يمتنع بالطريق الذى رسمه الوكيل و سنّه له و أمره به.

الركن الثالث فى الأعمال:

اشاره

و قد يظن الجهال أن شرط التوكل ترك الكسب،و ترك التداوى،و الاستسلام للمهلكات؛و ذلك خطأ،لأن ذلك حرام فى الشرع،و الشرع قد أثنى على التوكل، و ندب إليه فكيف ينال ذلك بمحظوره.و تحقيقه أنّ سعى العبد لا يعدو أربعه أوجه:و هو جلب ما ليس بموجود من المنفعه،أو حفظ الموجود،أو دفع الضرر كى لا يحصل،أو قطعه كى يزول.الأول:جلب النافع،و أسبابه ثلاثه:إما مقطوع به،و إما مظنون ظنّا

۱- هكذا وردت هذه الجمله و لم نرها وجها اللهم إلا أن يكون تعبيرا فقهيا خالصا.

غالبا ظاهرا يوثق به،أو موهوم.أما المقطوع به فمثاله أن لا تمتد اليد إلى الطعام و هو جائع،و يقول هذا سعى،و أنا متوكل،أو يريد الولد و لا يواقع أهله،أو يريد الزرع، و لا يبث البذر.و هذا جهل؛لأن سنّه اللّه تعالى لا تتغير،و قد عرفك أن ارتباط هذه المسببات بهذه الأسباب من السنّه التى لا تجد لها تبديلا.و إنما التوكل فيه بأمرين:

أحدهما،أن تعلم أن اليد و الطعام و البذر و قدره التناول و جميع ذلك من قدره اللّه تعالى.

و الثانى،أن لا يتكل عليها بقلبه بل على خالقها،و كيف يتكل على اليد!و ربما يفلج فى الحال أو يهلك الطعام،و ذلك تحقيق قولك«لا حول و لا قوه إلا باللّه»،فالحول هى الحركه، و القوه هى القدره.فإذا كان هذا حالك،فأنت متوكل و إن سعيت.و أما المظنون فكاستصحاب الزاد فى البوادى و الأسفار،فليس تركه شرطا فى التوكل،بل هى سنّه الأوّلين،بل يكون الاعتماد على فضل اللّه تعالى بدفع السّراق و إبقاء الزاد و الحياه، و القدره على التناول.و أما الموهومات،فكالاستقصاء فى حيل المعيشه،و استنباط دقائق الأمور فيها؛و ذلك ثمره الحرص،و قد يحمل على أخذ الشبهه.فكل ذلك يناقض التوكل،و الدليل عليه أن النبى صلى اللّه عليه و سلم وصف المتوكلين بأنهم لا يكتنون و لا يسترقون،و لم يصفهم بأنهم لا يسكنون الأمصار،و لا يكتسبون،فما نسبته إلى السبب،كنسبه الرّقيه و الكى فتركهما من شروط التوكل.

الفن الثانى:من تدبير الأسباب الادخار.فالمتوكل إذا ورث مالا و ادخر لسنه فما فوقه أبطل توكله،و إن قنع بقوت يومه و فرق الباقى فهو تمام التوكل،و إن ادخر لأربعين يوما،قال سهل التسترى:بطل توكله،و لا ينال المقام المحمود الذى وعد للمتوكلين؛ و قال الخواص:لا يبطل.و اتفقوا على أن الزياده عليه يبطل التوكل إلا إذا كان معيلا، فله أن يدخر قوت عياله لسنه،كذلك فعل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى حق عياله و فى حق نفسه؛ كان لا يدخر من غدائه لعشائه.و لا شك أن طول الأمل يناقض التوكل،و مهما قلّت مده الادخار كانت الرتبه أعظم؛و لكن سنّه اللّه تعالى جاريه بتكرر الأرزاق عند تكرار السنه.

فالادخار لأكثر من سنه غايه الضعف و ليس من التوكل فى شىء.

فأما ادخار الكوز و أثاث البيت فذلك جائز،لأن سنه اللّه تعالى لم تجر بتكررها كتكرر الأرزاق،و يحتاج إليها فى كل وقت،و ليس كثوب الشتاء،فإنه لا يحتاج إليه فى الصيف،و ادخاره على خلاف التوكل؛قال النبى صلى اللّه عليه و سلم فى فقير دفن:«إنه يحشر يوم

القيامه و وجهه كالقمر ليله البدر،و لو لا خصله كان كالشمس الضاحيه؛كان إذا جاء الشتاء ادخر حله الصيف لصيفه».

الفن الثالث:فى مباشره الأسباب الدافعه،كالفرار من السبع،و من الجدار المائل،و مجرى السيل،و دفع الأمراض بالأدويه.و ذلك أيضا له درجات؛فاستنبطها بالقياس إلى ما ذكرناه و قد فسرناه فى الإحياء.

[فصل ترک الادخار محمود لمن غلب یقینه]

اعلم أن ترك الادخار محمود لمن غلب يقينه،و قوى قلبه.و أما الضعيف الذى يضطرب قلبه لو لم يدخر لم يتفرغ للعباده،فالأفضل له أن يدع طريق المتوكلين.و لا يحمّل نفسه ما لا يطيقه،إذ فساد ذلك فى حقه أكثر من صلاحه،بل يعالج كل واحد على حسب حاله و قوته.و قد تنتهى القوه إلى أن يجوز السفر فى البوادى من غير زاد،و ذلك لمن يصبر عن الطعام أسبوعا،و يقنع بالحشيش؛فإن ذلك لا يعوزه غالبا فى الباديه.فأما الضعيف إذا فعل ذلك فهو عاص ملق نفسه فى التهلكه.و القوىّ إن حبس نفسه فى كهف جبل ليس فيه حشيش و لا يجتاز به إنسان،فذلك أيضا حرام؛لأنه خالف سنّه اللّه تعالى فى خلقه؛و إنما جاز له ذلك فى البوادى،لأن سنّه اللّه جاريه بأنها لا تخلو عن الحشيش،و قد يجتاز بها الآدميون،فإذا قوى كان هلاكه نادرا،فلم يكن بذلك عاصيا، فله أن يسافر فى الباديه متّكلا على لطيف صنع اللّه تعالى،و غير قاصر التفاته على الأسباب الجليّه الواضحه.

الأصل الثامن فى المحبه:

اشاره

قال اللّه تعالى: يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ (۱) [المائده:۵۴]،و قال: قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ وَ إِخْوانُكُمْ وَ أَزْواجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَ تِجارَهٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَ مَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللّهِ وَ رَسُولِهِ... (۲) [التوبه:۲۴]الآيه.و قال النبى صلى اللّه عليه و سلم:«لا يؤمن أحدكم حتى يكون اللّه و رسوله أحب إليه مما سواهما».و قال عليه السلام:«أحبوا اللّه لما يغذوكم به من نعمه،و أحبونى لحب اللّه عز و جل».و قال أبو بكر الصديق-رضى اللّه عنه-«من ذاق خالص محبه اللّه عز و جل منعه ذلك من طلب الدنيا،و أوحشه من جميع البشر».و قال الحسن البصرىّ-رحمه اللّه عليه-من عرف

۱- سوره ۵ - آیه ۵۴

۲- سوره ۹ - آیه ۲۴

اللّه تعالى أحبّه،و من عرف الدنيا زهد فيها.و المؤمن لا يلهو حتى يغفل،و إذا تفكر حزن.

[فصل فى أن أكثر المتكلمين أنكروا محبّه اللّه تعالى]

اعلم أن أكثر المتكلمين أنكروا محبّه اللّه تعالى و أوّلوها،و قالوا:لا معنى لها إلا لامتثال أوامره،و إلا فما لا يشبهه شىء و لا يشبه شيئا،و لا يناسب طباعنا،فكيف نحبه؟ و إنما يتصور منّا أن نحب من هو من جنسنا،و هؤلاء محرومون بجهلهم بحقائق الأمور.

و قد كشف الغطاء عن هذا فى كتاب المحبه من كتب الإحياء فطالعها لتصادف منها أسرارا تخلو الكتب عنها.فاقنع فى هذا المختصر بتلويحات و إشارات.

[فصل فى أن كلّ لذيذ محبوب]

اعلم أن كلّ لذيذ محبوب،و معنى كونه محبوبا ميل النفس إليه،فإن قوى الميل سمّى عشقا،و معنى كونه مبغوضا نفره النفس عنه لكونه مؤلما.فإن قوى البغض و النّفره سمى مقتا.و اعلم أن الأشياء التى تدركها بحواسك و جميع مشاعرك،إما أن تكون موافقه لك ملائمه،و هو اللذيذ،أو تكون منافيه مخالفه،و هو المؤلم.أو لا موافقه و لا مخالفه،و هو الذى لا ألم فيها و لا لذه.و كل لذيذ محبوب،أى للنفس الملتذه به ميل لا محاله إليه.

و اعلم أن اللذه تتبع الإدراك،و الإدراك إدراكان:ظاهر و باطن.أمّا الظاهر فبالحواس الخمس،فلا جرم لذه العين فى الصور الجميله،و لذه الأذن فى النغمات الموزونه الطيبه،و لذه الذوق و الشم فى الطعوم و الروائح الملائمه الموافقه،و لذه جمله البدن فى ملابسه الناعم اللين،و جمله ذلك محبوبه للنفس،أى للنفس ميل إليها.و أما الإدراك الباطن،فهو اللطيفه التى محلها القلب،تاره يعبر عنها بالعقل،و تاره بالنور،و تاره بالحس السادس.و لا تنظر إلى العبارات فتغلط،بل قال النبى صلى اللّه عليه و سلم:«حبب إلىّ من دنياكم ثلاث:الطيب و النساء و قره عينى فى الصلاه».فتعلم أن الطيب و النساء فيهما حظ الشم و اللمس و البصر،و الصلاه لا حظ فيها للحواس الخمس،بل للإدراك السادس الذى محله القلب،و لا يدركها من لا قلب له،و أن اللّه يحول بين المرء و قلبه.و من اقتصر من لذته على الحواس الخمس فهو بهيمه،لأن البهيمه تشاركه فيها؛و إنما

خاصیه الإنسان التمیز بالبصیره الباطنه.و لذه البصر الظاهر،فی الصور الجمیله الظاهره،و لذه البصیره الباطنه،فی الصور الجمیله الباطنه.

[فصل ما معنی الصور الجمیله الباطنه؟]

لعلک تقول:ما معنی الصور الجمیله الباطنه؟فأقول ما عندی أنک لا تحس من نفسک حب الأنبیاء و العلماء و الصحابه،و لا تدرک من نفسک تفرقه بین الملک العادل العالم الشجاع الکریم العطوف علی الخلق،و بین الظالم الجاهل البخیل الفظّ الغلیظ.

و ما عندی أنک إذا حکی لک صدق أبی بکر،و سیاسه عمر،و سخاوه عثمان،و شجاعه علی-رضوان اللّه علیهم-لا تجد فی نفسک هزه و ارتیاحا و میلا إلی هؤلاء،و إلی کل موصوف بخلال الکمال من نبیّ و صدّیق و عالم.و کیف تنکر هذا،و فی الناس من یقتدی بنفسه أرباب المذاهب،و یحمله حبه لهم علی البذل بالمال و النفس فی الذب عنهم، و تجاوز ذلک حدّ العشق،و أنت تعلم أن حبک لهؤلاء لیس لصورهم الظاهره،فإنک لم تشاهدها،و لو شاهدتها ربما لم تستحسنها،و إن استحسنت،فلو تشوهت صورهم الظاهره،و بقیت صفاتهم المعنویه الباطنه،لبقی حبهم.و إذا فتشت عن محبوبک منهم،رجع-بعد التفصیل الطویل الذی لا یحتمله هذا الکتاب- إلی ثلاث صفات:العلم و القدره و النزاهه عن العیوب.أما العلم،فکعلمهم باللّه و ملائکته و کتبه و رسله و عجائب ملکوته و دقائق شریعه أنبیائه.و أما القدره،فکقدرتهم علی أنفسهم بکسر شهوتها،و حملها علی الصراط المستقیم.و قدرتهم علی العباده بسیاستهم،و إرشادهم إلی الحق.و أما النزاهه،فکسلامه باطنهم من عیب الجهل و البخل و الحسد و خبائث الأخلاق؛و اجتماع کمال العلم و القدره مع حسن الأخلاق، و هو حسن الباطن،و هی الصوره الباطنه التی لا تدرکها البهیمه،و من فی مثل حالها بالبصر الظاهر.

ثم إذا أحببت هؤلاء بهذه الصفات،و علمت أن النبی صلی اللّه علیه و سلم کان أجمع منهم لهذه الخصال،کان حبک له أشد بالضروره،فارتفع نظرک الآن من النبی إلی مرسل النبی و خالقه و المتفضل علی الخلق ببعثه،لتعلم أن بعثه الأنبیاء حسنه من حسناته.ثم انسب قدره الأنبیاء و علمهم و طهارتهم إلی علم اللّه سبحانه و قدرته و قدسه،لتعلم أنه لا قدّوس سوی الواحد الحق،و أن غیره لا یخلو من عیب و نقص؛بل العبودیه أعظم أنواع

النقص،فأىّ كمال لمن لا قوام له بنفسه،و لا يملك لنفسه موتا و لا حياه و لا رزقا و لا أجلا!و أىّ علم لمن يشكل عليه صفات باطنه فى مرضه و صحته،بل لا يعلم جميع جوارحه الباطنه،و تفصيلها و حكمها بالتحقيق،فضلا عن ملكوت السموات و الأرض! و انسب هذا إلى العلم الأزلىّ المحيط بجميع الموجودات،و معلومات لا نهايه لها إلى الذى لا يعزب عنه مثقال ذرّه فى السموات و لا فى الأرض،و إلى قدره خالق السموات و الأرض الذى لا يخرج موجود عن قبضه قدرته فى وجوده و بقائه و عدمه؛و انسب نزاهته من العيوب إلى قدسه،لتعلم أنه لا قدس و لا قدره و لا علم إلا للواحد الحق،و إنما لغيره القدره التى أعطاه، وَ لا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّ بِما شاءَ (۱) [البقره:۲۵۵] وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّ قَلِيلاً (۲) [الإسراء:۸۵]فانظر الآن هل يمكنك أن تنكر أن هذه الصفات و المحامد محبوبه،أو تنكر أن الموصوف بكمال الجلال هو اللّه تعالى؟و انظر كيف تنكر حبه بعد ذلك!

[فصل الميل إلى المنعم المحسن]

إن قصّرت بصيرتك عن إدراك الجلال و الكمال و الميل إلى مطالعته و الفرح به و العشق له،فلا تقصر عن الميل إلى المنعم المحسن إليك،و لا تكوننّ أقلّ من الكلب، فإنه يحب صاحبه الذى يحسن إليه.و تأمل هذا فى العالم،هل لأحد إحسان إليك سوى اللّه تعالى؟و هل لك حظ و لذه و تنعّم فى شىء و حرص على نعمه إلا و اللّه سبحانه خالقها و مبديها و مبقيها و خالق الشهوه إليها و التلذذ بها؟و تفكر فى أعضائك و لطف صنع اللّه تعالى بك فيها،لتحبه بإحسانه إليك،فتكون من عوام الخلق إن لم تقدر أن تحبه لجماله و جلاله و كماله،كما تحبه الملائكه لذلك،و امتثال قوله عليه السلام:«أحبوا اللّه لما يغذوكم به من نعمه و أحبونى لحبّ اللّه».و عند هذا تكون كالعبد السوء،يحب و يعمل للأجره و النفقه،فلا جرم يزيد حبّك و ينقص بزياده الإحسان و نقصانه؛و ذلك ضعيف جدا؛بل الكامل من يحب اللّه لجلاله و جماله و محامد صفاته التى لا يتصور أن يشارك فيها.و لذلك أوحى اللّه تعالى إلى داود عليه السلام:«إن أودّ الأودّاء إلىّ من عبدنى بغير نوال،لكن ليعطى الربوبيه حقها».و فى الزبور:«من أظلم ممن عبدنى لجنه أو نار،لو لم أخلق جنه و لا نارا،أ لم أكن أهلا أن أطاع؟»و مرّ عيسى-عليه السلام-بطائفه من العبّاد و قد تخلّوا للعباده،و قالوا نخاف النار و نرجو الجنه،فقال:

۱- سوره ۲ - آيه ۲۵۵

۲- سوره ۱۷ - آيه ۸۵

مخلوقا خفتم و مخلوقا رجوتم.و مر بقوم آخرين كذلك،فقالوا:نعبده حبّا و تعظيما لجلاله،فقال:أنتم أولياء اللّه حقّا،و معكم أمرت أن أقيم.

[فصل العارف لا يحب إلا اللّه تعالى]

العارف لا يحب إلا اللّه تعالى،فإن أحبّ غيره فيحبه للّه عز و جل،إذ قد يحبّ المحبّ عبد المحبوب و أقاربه و بلده و ثيابه و ضيعته و تصنيفه،و كل ما هو منه و إليه نسبته.و كل ما فى الوجود صنع اللّه عز و جل و تصنيفه،و كل الخلق عباد اللّه تعالى؛فإن أحبّ الرسول أحبّه لأنه رسول محبوبه و حبيبه.و إن أحب الصحابه فلأنهم محبوبو رسوله،و لأنهم محبوه و عبيده و المواظبون على طاعته.و إن أحب طعاما فلأنه يقوّى مركبه الذى به يصل إلى محبوبه،أعنى البدن.و إن أحب الدنيا،فلأنها زاده إلى محبوبه.و إن أحب النظر إلى الأزهار و الأنهار و الأنوار و الصور الجميله،فلأنها صنعه محبوبه،و هى دلالات على جماله و جلاله،و مذكّرات لصفات المحامد التى هى المحبوبه فى ذاتها.و إن أحبّ المحسن إليه و المعلم إياه علوم الدين،فيحبه لأنه واسطه بينه و بين محبوبه فى إيصال علمه و حكمه إليه.و يعلم أنه الذى قيّضه لتعليمه و إرشاده، و الإنفاق عليه من ماله،و أنه لو لا تسليط الدواعى إليه و اضطراره بسلسله البواعث و الأغراض إلى إرشاده و الإنفاق عليه لما فعله.و أعظم الخلق إحسانا علينا رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و للّه المنّه و الفضل بخلقه و بعثه،كما قال: هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَهَ (۱) [الجمعه:۲].و لذلك قال اللّه تعالى: إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ،وَ لكِنَّ اللّهَ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ (۲) [القصص:۵۶].

و تأمل سوره الفتح و قوله تعالى: وَ رَأَيْتَ النّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللّهِ أَفْواجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوّاباً (۳) [النصر:۲،۳].فقد أنزله منزله النظاره و قال:إذا رأيت عباد اللّه يدخلون فى دين اللّه فقل بحمد اللّه لا بحمدى،و هو معنى التسبيح بحمد ربه.فإن التفت قلبك إلى نفسك و سعيك فاستغفره ليتوب عليك.

و اعلم أنه ليس لك من الأمر شىء.و من هاهنا نظر عمر-رضى اللّه عنه-حيث وصل كتاب خالد بعد فتح مكه:«من خالد سيف اللّه المسلول على المشركين إلى أبى بكر أمير المؤمنين».فقال:إن نصر اللّه المسلمين نظر خالد إلى نفسه و يسميها سيفا مسلولا على المشركين.و لو لاحظ الحق كما هو لعلم أن ليس ذلك بسيفه و لكن للّه

۱- سوره ۶۲ - آيه ۲

۲- سوره ۲۸ - آيه ۵۶

۳- سوره ۱۱۰ - آيه ۲

تعالی سر فی إرادته بنصره الإسلام،فینصره بخطره واحده و هو خاطر رعب یلقیه فی قلب کافر فینهزم،و ینظر إلیه غیره فینهزم و تعم الهزیمه،فینظر خالد و من هو فی مثل حاله أنه علا کلمه الإسلام بصرامته وحده سیفه،و یطلع عمر-رضی اللّه عنه-و من هو فی مثل حاله من الصّدیقین و الأولیاء علی حقیقه الحال،و یعلم حاجه خالد إلی الاستغفار،و أن یسبح بحمد ربه إذا رأی ذلک کما أمر به رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم.

فإذا لا- موجب للمحبه إلا- أمران:أحدهما الإحسان و الآخر غایه الجلال و الجمال بکمال الجود و الحکمه و العلو و القدره و التقدیس من العیب و النقص.و لا- إحسان إلا- منه،و لا جلال و لا جمال و لا قدس إلا له.فکل ما فی العالم من حسن و إحسان فهو حسنه من حسنات جوده،یسوقها إلی عباده بخطره واحده یخلقها فی قلب المحسن.

فکل ما فی العالم من صور ملیحه،و هیئه جمیله یدرک بعین أو سمع أو شم،فأثر من آثار قدرته،و هی بعض معانی جماله.فلیت شعری!لمن عرف بالمشاهده المحققه و البرهان القاطع جمیع هذا،کیف یتصور أن یلتفت إلی غیر اللّه تعالی،أو یحب غیر اللّه عز و جل؟

[فصل اعلم أن لذه العارف فی الدنیا من مطالعه جمال الحضره الربوبیه]

اعلم أن لذه العارف فی الدنیا من مطالعه جمال الحضره الربوبیه،أعظم من کل لذه یتصور أن یکون فی الدنیا سواها؛و ذلک لأن اللذه علی قدر الشهوه،و قوه الشهوه علی قدر الملاءمه و الموافقه مع المشتهی.و کما أن أوفق الأشیاء للأبدان الأغذیه،فأوفق الأشیاء للقلوب المعرفه،فالمعرفه غذاء القلب،و أعنی بالقلب الروح الربانی الذی قال اللّه تعالی فیه: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی (۱) [الإسراء:۸۵]،و قال تعالی: وَ نَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی (۲) [الحجر:۲۹،ص:۷۲]فأضافه إلی نفسه.و هذا الروح لا یکون للبهائم و لمن هو فی مثل حالها من الإنس،بل یختص به الأنبیاء و الأولیاء؛و لذلک قال تعالی:

وَ کَذلِکَ أَوْحَیْنا إِلَیْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتابُ وَ لاَ الْإِیمانُ وَ لکِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِی بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا (۳) [الشوری:۵۲]فالمعرفه أوفق الأشیاء لهذه الروح، لأن الأوفق لکل شیء خاصیته؛فالصوت الطیب لا یوافق البصر،لأنه لیس من خاصیته.

و خاصیه روح الإنسانی معرفه الحقائق،و کلما کان المعلوم أشرف،کان العلم به ألذ؛ و لا أشرف من اللّه و ملکوته و لا أجلّ منه،فمعرفته و معرفه صفاته و ذاته و عجائب ملکه

۱- سوره ۱۷ - آیه ۸۵

۲- سوره ۱۵ - آیه ۲۹

۳- سوره ۴۲ - آیه ۵۲

و ملکوته ألـذّ الأشـیاء عند القلب؛لأن شـهوه ذلک أشدّ الشـهوات؛و لذلک یخلق آخرا بعد سائر الشـهوات.و کل شـهوه تأخرت فهی أقوی ممـا قبلها؛فأول ما یخلق شـهوه الطعام، ثم یخلق له شـهوه الوقاع،فیترک شـهوه الطعام لأجله و یسـتحقر فیه.ثم یخلق له شـهوه الرئـاسه و الجـاه و الغلبـه،و یسـتحقر فیهـا شـهوه المنکـح و المطعم.ثم یخلـق له شـهوه المعرفه الـتی هی استیلاء علی کلّ الموجودات،فیستحقر فیها الجاه و الرئاسه؛و هی آخر شهوات الدنیا و أقواها.

و کما أن الصبی ینکر شـهوه الوقاع،و یتعجب ممن یتحمل مئونه النکاح لأجلها، فإذا بلغ شـهوه الوقاع أکبّ علیها و أنکر الجاه و الرئاسه و لم یبال بفواتها فی قضاء شـهوه الفرج؛فکذلک المشـعوف (۱)بشـهوه الجاه و الرئاسه،ینکر لذه المعرفه،إذ لم یخلق فیه بعد شهوتها؛و قد تنتهی شهوه شرهه للجاه إلی مرض قلبه،حتی لا یقبل شهوه معرفه اللّه عز و جل أصلا،کما یفسد مزاج المریض شهوته للغـذاء حتی یموت.و قـد ینعکس طبعه،فیشـتهی الطین و الأشـیاء المضـره المهلکه،و هی مقدّمات الموت.فکذلک مرض القلـب،قـد ینتهی إلی حـد ینکر المعرفـه و یبغضـها،و یبغض أهلهـا و المقبلین علیهـا،و لاـ یـدرک إلاّـ لـذه الرئـاسه أو المطعم و المنکـح.و ذلـک هو المیت الـذی لاـ یقبـل العلاـج،و فی مثله قیل: إِنّا جَعَلْنا عَلی قُلُوبِهِمْ أَکِنَّهً أَنْ یَفْقَهُوهُ وَ فِی آذانِهِمْ وَقْراً،وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَی الْهُدی فَلَنْ یَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً (۲) [الکهف:۵۷]و فیهم قیل: أَمْواتٌ غَیْرُ أَحْیاءٍ وَ ما یَشْعُرُونَ أَیّانَ یُبْعَثُونَ (۳) [النحل:۲۱].

[فصل لذه النظر إلی وجه اللّه الکریم]

هذه المعرفه و إن عظمت لذتها،فلا نسـبه لها إلی لذه النظر إلی وجه اللّه الکریم فی الدار الآخره.و ذلک لا یتصور فی الدنیا لسـرّ لا یمکن الآن کشـفه،و لا ینبغی أن تفهم من النظر ما یفهمه العوام و المتکلمون،فیحتاج فی تقـدیره إلی جهه و مقابله.فذلک من نظر من أقعـده القصور فی بحبوحه عالم الشـهاده،حتی لم یجاوز المحسوسات التی هی مدرکات البهائم.لکن ینبغی أن تفهم أن الحضره الربوبیه،تنطبع صورتها و ترتیبها

۱- المشعوف:لغه فی المشغوف.

۲- سوره ۱۸ - آیه ۵۷

۳- سوره ۱۶ - آیه ۲۱

العجیب علی ما هو علیه من البهاء و العظمه و الجلال و المجد،فی قلب العارف،کما تنطبع مثلا- صوره العالم المحسوس فی حواسک،فکأنک تنظر إلیه و إن غمضت عینیک.فإن فتحت العین و وجدت الصوره المبصره مثل الصوره المتخیله قبل فتح العین لا- تخالفها فی شیء إلاّ- أن الإبصار فی غایه الوضوح بالنسبه إلی التخیل.و کذلک ینبغی أن تعلم أن فی إدراک ما لا یدخل فی الخیال و الحس أیضا فی درجتین متفاوتتین فی الوضوح غایه التفاوت،و نسبه الثانیه إلی الأولی کنسبه الإبصار إلی التخیل،فتکون الثانیه غایه الکشف،فیسمی لذلک مشاهده و رؤیه.و الرؤیه لم تسمّ رؤیه لأنها فی العین،إذ لو خلقت فی الجبهه لکانت رؤیه؛بل لأنها غایه الکشف.و کما أن تغمیض الأجفان حجاب من غایه الکشف فی المبصر،فکدوره الشهوات و شواغل هذا القالب المظلم حجاب عن غایه المشاهده؛و لذلک قال اللّه تعالی: لَنْ تَرانِی (۱) [الأعراف:

۱۴۳].و قال تعالی: لا تُدْرِکُهُ الْأَبْصارُ (۲) [الأنعام:۱۰۳].فإذا ارتفع هذا الحجاب بعد الموت انقلبت المعرفه بعینها مشاهده،و یکون مشاهده کل واحد علی قدر معرفته؛ و لذلک تزید لذه أولیاء اللّه سبحانه فی النظر علی لذه غیرهم،و یتجلّی اللّه تعالی لأبی بکر-رضی اللّه عنه-خاصه،و یتجلی للناس عامه.و کذلک لا یراه إلا العارفون؛لأن المعرفه بدء النظر،بل هی التی تنقلب مشاهده،کما ینقلب التخیل إبصارا.فلذلک لا یقتضی مقابله وجهه.و سرّ هذا طویل،فاطلبه من کتاب المحبه فی الإحیاء.

فصل

لو کان معشوقک و أنت تراه من وراء ستر رقیق فی وقت الإسفار و فی حاله ضعف الضوء،و فی حاله اجتمع علیک تحت ثوبک عقارب و زنابیر تلدغک و تشغلک،فلا یخفی أن لذتک من مشاهده معشوقک تضعف.فلو أشرقت الشمس دفعه واحده فارتفع الستر الرّقیق،و انصرفت عنک العقارب و الزنابیر،و هجم علیک العشق المفرط البلیغ، فلا نسبه لهذه اللذه العظیمه التی تحصل الآن إلی ما کان قبل ذلک.و کذلک فافهم أنه لا یشبه لذه النظر إلا لذه المعرفه بل هی أعظم منها کثیرا.و الستر الرّقیق قالبک.و العقارب شواغل الدنیا و غمومها و شهواتها،و هجوم العشق شده الشهوه لانقطاع المضعّفات و المنغّصات عنها،و إشراق الشمس هو استعداد حدقه القلب لاحتمال تمام التجلّی، فإنها فی هذه الحیاه لا یحتمل بصر الخفّاش نور الشمس.

۱- سوره ۷ - آیه ۱۴۳

۲- سوره ۶ - آیه ۱۰۳

[فصل إنما ضعفت شهوه معرفه اللّه تعالى لزحمه سائر الشهوات]

إنما ضعفت شهوه معرفه اللّه تعالى لزحمه سائر الشهوات،و إنما خفيت معرفه اللّه تعالى مع جلائها لشده ظهورها؛و مثاله:أنك تعلم أن أظهر الأشياء المحسوسات، و منها المبصرات،و منها النور الذى به يظهر لك الأشياء.ثم لو كانت الشمس دائمه لا تغيب و لا يقع لها ظل،لكنت لا تعرف وجود النور،و كنت تنظر إلى الألوان فلا ترى إلا الحمره و السواد و البياض.فأما النور فلا تدركه إلا بأن تغيب الشمس،أو يقع لها حجاب بما له ظل،فتدرك-باختلاف الأحوال بين الظلمه و الضياء-أن النور شىء آخر،يعرض للألوان فتصير مبصره؛و لو تصوّر للّه سبحانه غيبه أو لأنوار قدرته حجاب عن بعض الأشياء لأدركت من التفاوت ما يضطر معه إلى المعرفه.و لكن الموجودات كلها،لما تساوت فى الشهاده لخالقها بالوحدانيه من غير تفاوت،خفى الأمر لشدّه جلائه.و لو تصور انقطاع أنوار قدرته عن السموات و الأرض،لانهدمت و انمحقت و أدرك فى الحال من التفاوت ما يضطر إلى المعرفه بالقدره و القادر.

و هذا مثال ما ذكرناه،و تحته أسرار،و فيه مواقع غلط؛فاجتهد،لعلك تقف على أسراره،و لا ترتبك فى مواقع غلطه،فمنه غلط من قال:إنه فى كل مكان.و كل من نسبه إلى مكان أو جهه فقد ذلّ فضلّ،و رجع غايه نظره إلى التصرف فى محسوسات البهائم، و لم يجاوز الأجسام و علائقها.و أول درجات الإيمان مجاوزتها،فيه يصير الإنسان إنسانا فضلا عن أن يصير مؤمنا.

[فصل فى أن للمحبه علامات كثيره]

اعلم أن للمحبه علامات كثيره،يطول إحصاؤها.و من علاماتها تقديم أوامر اللّه تعالى على هوى النفس،و التوقّى بالورع،و رعايه حدود الشرع.و من علاماتها الشوق إلى لقاء اللّه،و الخلو عن كراهيه الموت إلا من حيث يتشوق إلى زياده المعرفه،فإن لذه المشاهده بقدر كمال المعرفه،فإنها بدء المشاهده،فتختلف لا محاله باختلافها.و من علاماتها الرضاء بالقضاء بمواقع قدر اللّه عز و جل؛فلنذكر معنى الرضاء حتى لا يغتر الإنسان بما يصادف فى نفسه من خطرات تخطر،فيظن أنها حقيقه الحب للّه تعالى،فإن ذلك عزيز جدّا.

الأصل التاسع،الرضاء بالقضاء:

اشاره

قال اللّه تعالى: رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ (۱) [المائده:۱۱۹، التوبه:۱۰۰،المجادله:۲۲،البينه:۸].و قال صلى اللّه عليه و سلم:«إذا أحبّ اللّه عبدا ابتلاه،فإن صبر اجتباه،و إن رضى اصطفاه»،و قال-عليه السلام-:«اعبد اللّه تعالى بالرضا،فإن لم تستطع ففى الصبر على ما تكره خير كثير»،و قال-عليه السلام-لطائفه:«ما أنتم؟ فقالوا:مؤمنون.فقال:و ما علامه إيمانكم؟فقالوا:نصبر على البلاء و نشكر عند الرخاء،و نرضى بمواقع القضاء.فقال:مؤمنون و رب الكعبه».و فى روايه أنه قال:

«حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء».و مما أوحى اللّه تعالى إلى داود عليه السلام:ما لأوليائى و الهمّ بالدنيا،إن الهم يذهب حلاوه مناجاتى من قلوبهم،إن محبتى من أوليائى أن يكونوا روحانيين لا يغتمّون.و قال صلى اللّه عليه و سلم:«قال اللّه تعالى:أنا اللّه لا إله إلا أنا،فمن لم يصبر على بلائى،و لم يشكر نعمائى،و لم يرض بقضائى،فليطلب ربّا سواى»،و قال عليه السلام:قال اللّه تعالى:«خلقت الخير،و خلقت له أهلا،و خلقت الشر،و خلقت له أهلا،فطوبى لمن خلقته للخير و يسّرته على يديه،و ويل لمن خلقته للشر،و يسرت الشر على يديه،و ويل ثم ويل لمن قال:لم و كيف».و أوحى اللّه سبحانه إلى داود عليه السلام:يا داود تريد و أريد،و إنما يكون ما أريد،فإن سلّمت لما أريد كفيتك ما تريد،و إن لم تسلّم لما أريد أتعبتك فيما تريد،ثم لا يكون إلا ما أريد.

[فصل قد أنكر الرضا جماعه]

قد أنكر الرضا جماعه و قالوا:لا يتصور الرضاء بما يخالف الهوى،و إنما يتصور الصبر فقط.و إنما أوتوا من إنكار المحبه و نحن نحققها،و علامتها الرضاء بالبلاء و بما يخالف الطبع و الهوى،و ذلك يتصور من ثلاثه أوجه:

أحدها:أن يدهشه مشاهده الحب و إفراطها عن الإحساس بالألم،ذلك مشاهد فى حب المخلوقين و فى غلبه الشهوه و الغضب،حتى أن الغضبان تصيبه الجراحه فلا يحس بها فى الوقت،و حتى أن الحريص تصيبه شوكه فى رجله فلا يحس بها،ثم إذا سكن غضبه و ظفر بمراده عظم ألمه.و إذا تصور أن ينغمر ألم يسير بحب يسير،تصور أن ينغمر ألم كثير بحب قوى بالغ،فإن كل واحد-من الحب و الألم-يقبل الزياده و الشده.و مهما تصور مثل هذا فى عشق يرجع إلى الميل إلى صوره مركبه من لحم و دم

۱- سوره ۵ - آيه ۱۱۹

مشحون بالأقذار و الخبائث؛و إنما يدرک بعين ظاهره يغلب الغلط عليها،حتى ترى الكبير صغيرا،و البعيد قريبا،و القبيح جميلا-فكيف لا يتصور بالإدراک جمال الحضره الربوبيه،و الجلال الأزلى الأبدى،الذى لا يتصور انقطاعه و نقصانه،المدرک بالبصيره الباطنه،التى هى أصدق و أوضح عند أهلها من البصر الظاهر؟و من هذا الأصل قال الجنيد-رحمه اللّه-قلت لسرّى السقطى-رحمه اللّه-:هل يجد المحب ألم البلاء؟ قال:لا.قلت:و إن ضرب بالسيف؟قال:لا،و إن ضرب بالسيف سبعين ضربه، ضربه على ضربه.و قال بعضهم:أحببت كل شىء لحبه،حتى لو أحب النار أحببت الدخول فى النار.

و قال عمر بن عبد العزيز-رحمه اللّه-:ما بقى لى فرح إلا-فى موقع قدر اللّه تعالى.و ضاع لبعض الصوفيه ولد صغير ثلاثه أيام،فقيل له:لو سألت اللّه تعالى أن يرده عليك!فقال:اعتراضى عليه فيما قضى أشدّ على من ذهاب ولدى.

الوجه الثانى من الرضاء:أن يحس بالألم و يكرهه بالطبع،و لكن يرضى به بعقله و إيمانه لمعرفته بجزاله الثواب على البلاء،كما يرضى المريض بألم الفصد،و شرب الدواء،لعلمه بأنه سبب الشفاء،حتى إنه ليفرح بمن يهدى إليه الدواء و إن كان بشعا.

و كذلک يرضى التاجر بمشقه السفر و هو خلاف طبعه.و هذا أيضا يشاهد مثله فى الأغراض الدنيويه،فكيف ينكر فى السعاده الأخرويه؟و روى أن امرأه فتح الموصلى الأنصارى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت،فقيل لها:أ ما تجدين ألم الوجع؟فقالت:

إن لذه ثوابه أزالت عن قلبى مراره وجعه.فإذا من أيقن أن ثواب البلاء أعظم مما يقاسيه، لم يبعد أن يرضى به.

الوجه الثالث:أن تعتقد أن للّه تعالى تحت كل أعجوبه لطيفه بل لطائف،و ذلک يخرج عن قلبه.(لم و كيف)حتى لا يتعجب مما يجرى على العالم مما يظنه الجاهل تشويشا و اضطرابا،و ميلا عن الاستقامه و يعلم أن تعجبه كتعجب موسى من الخضر- عليه السلام-لما خرق سفينه الأيتام،و قتل الغلام،و أعاد بناء الجدار،كما فى سوره «الكهف».فلما كشف الخضر عن السر الذى اطلع عليه،سقط تعجبه،و كان تعجبه بناء على ما أخفى عنه من تلک الأسرار.و كذلک أفعال اللّه تعالى،مثاله:ما حكى عن رجل

من الراضين أنه كان يقول فى كل ما يصيبه:«الخير فيما قدّره اللّه تعالى»و كان فى باديه و معه أهله و ليس له إلا حمار يحمل عليه خباءه،و كلب يحرسهم،و ديك يوقظهم،فجاء ثعلب و أخذ الديك فقال:خيره،و جاء ذئب و قتل الحمار،فحزن أهله فقال:خيره،ثم أصيب الكلب فمات،فقال:خيره؛فتعجب أهله من ذلك،حتى أصبحوا و قد سبى من حولهم،و استرقّ أولادهم،و كان قد عرف مكانهم بصوت الديك،و مكان بعضهم بنبيح الكلب،و مكان بعضهم بنهيق الحمار،فقال:قد رأيتم أن الخيره فيما قدره اللّه سبحانه، فلو لم يهلكهم اللّه عز و جل لهلكتم و هلكنا.

و روى أن نبيّا كان يتعبد فى جبل و كان بالقرب منه عين،فاجتاز بها فارس و شرب و نسى عندها صره فيها ألف دينار،و جاء آخر فأخذ الصره،ثم جاء رجل فقير على ظهره حزمه حطب،فشرب و استلقى ليستريح فرجع الفارس فى طلب الصره فلم يرها،فأخذ الفقير فطالبه و عذبه فلم يجدها عنده فقتله.فقال النبى:إلهى ما هذا؟أخذ الصره ظالم آخر،و سلطت هذا الظالم على هذا الفقير حتى قتله!فأوحى اللّه إليه:اشتغل بعبادتك، فليس معرفه أسرار الملك من شأنك،إن هذا الفقير كان قد قتل أبا الفارس فمكّنته من القصاص،و إن أبا الفارس كان قد أخذ ألف دينار من مال آخذ الصره،فرددته إليه من تركته.فمن أيقن بأمثال هذه الأسرار لم يتعجب من أفعال اللّه تعالى،و تعجب من جهل نفسه،و لم يقل لم و كيف فرضى بما دبره اللّه فى ملكوته.

و هاهنا وجوه أربعه تتشعب عن محض المعرفه بكمال الجود و الحكمه،و بكيفيه ترتيب الأسباب المتوجبه إلى المسببات،و معرفه القضاء الأول الذى هو كلمح البصر، و معرفه القدر الذى هو سبب ظهور تفاصيل القضاء،و أنها رتبت على أكمل الوجوه و أحسنها،و ليس فى الإمكان أحسن منها و أكمل.و لو كان و ادّخر،لكان بخلا لا جودا و عجزا يناقض القدره،و ينطوى تحت ذلك معرفه سرّ القدر،و كما أن من أيقن ذلك،لم ينطو ضميره إلا على الرضا بكل ما يجرى من اللّه.و شرح ذلك يطول،و لا رخصه فيه أيضا فلنتجاوزه.

[فصل كيف أجمع بين الرضا بقضاء اللّه تعالى،و بين بغض أهل الكفر]

لعلك تقول:كيف أجمع بين الرضا بقضاء اللّه تعالى،و بين بغض أهل الكفر

و العصيان،و قد تعبدت به شرعا و ذلک مراد اللّه تعالی فيهم؟

فاعلم أن طائفه من الضعفاء ظنوا أن ترک الأمر بالمعروف من جمله الرضا بالقضاء،و سمّوه حسن الخلق و هو جهل محض،بل عليک أن ترضی و أن تکره جميعا.

و الرضا و الکراهيه يتضادان إذا تواردا علی شیء واحد من وجه واحد،و لا يتناقض أن يقتل عدوّک الذی هو عدوّ عدوّک أيضا،فترضاه من حيث إنه عدوّک،و تکرهه من حيث إنه عدوّ عدوّک.فکذلک للمعصيه وجهان:وجه إلی اللّه تعالی من حيث إنها بقضائه و مشيئته فهو من هذا الوجه مرضیّ به،و وجه إلی العاصی من حيث إنه صفته و کسبه، و علامه کونه ممقوتا من اللّه تعالی فهو من هذا الوجه مکروه.و قد تعبّدک اللّه تعالی ببغض من يبغضه من المخالفين لأمره،فعليک بما تعبّدک به و الامتثال له.و لو قال لک محبوبک إنی أريد أن أمتحن حبک بأن أضرب عبدی و أرهقه إلی أن يشتمنی فمن أبغضه فهو محبّی و من أحبه فهو عدوی،فيمکنک أن تبغض عبده إذا شتمه،مع أنک تعلم أنه الذی اضطره إلی الشتم،و کان ذلک مرادا منه،فيقول:أمّا فعله فی الشتم فإنی أرضی به من حيث إنه تدبيرک فی عبدک،و مرادک ممن أردت إبعاده،و أما شتمه من حيث هو صفته و علامه عداوته،فإنی أبغضه لأنی أحبک،فأبغض لا محاله من عليه علامه عداوتک؛و هذه دقيقه زلّ فيها الضعفاء،فلذلک يتهافتون فيها.

[فصل ينبغی أن لا يظن أن معنی الرضا بالقضاء ترک الدعاء]

کذلک ينبغی أن لا تظن أن معنی الرضا بالقضاء ترک الدعاء،بل ترک السهم الذی أرسل إليک حتی يصيبک،مع قدرتک علی دفعه بالترس،بل تعبدک اللّه عز و جل بالدعاء،ليستخرج به من قلبک صفاء الذکر،و خشوع القلب و رقته،لتستعد به لقبول الألطاف و الأنوار.فمن جمله الرضا بقضائه،أن يتوصل إلی محبوباته بمباشره ما جعله سببا له؛بل ترک الأسباب مخالفه لمحبوبه و مناقضه لرضاه،فليس من الرضاء للعطشان أن لا يمدّ اليد إلی الماء البارد،زاعما أنه رضی بالعطش الذی هو من قضاء اللّه تعالی؛ بل من قضاء اللّه تعالی و محبته أن يزال العطش بالماء.فليس فی الرضا بالقضاء ما يوجب الخروج عن حدود الشرع و رعايه سنه اللّه تعالی أصلا،بل معناه ترک الاعتراض علی اللّه عز و جل إظهارا و إضمارا،مع بذل الجهد فی التوصل إلی محاب اللّه تعالی من عباده،و ذلک بحفظ الأوامر و ترک النواهی.

الأصل العاشر،ذكر الموت و حقيقته

اشاره

و أصناف العقوبات الروحانيه:

اعلم أن المقامات التسع التى ذكرناها ليست هى على رتبه واحده،بل بعضها مقصود لذاتها،كالمحبه و الرضا،فإنهما أعلى المقامات،و بعضها مطلوبه لغيرها، كالتوبه و الزهد،و الخوف و الصبر،إذ التوبه رجوع عن طريق البعد،للإقبال على طريق القرب.و الزهد ترك الشواغل عن القرب.و الخوف سوط يسوق إلى ترك الشواغل، و الصبر جهاد مع الشهوات القاطعه لطريق القرب.و كل ذلك غير مطلوب لذاته، بل المطلوب القرب و ذلك بالمعرفه و المحبه فإنها مطلوبه لذاتها لا لغيرها، و لكن لا يتم ذلك إلا بقطع حبّ غير اللّه تعالى عن القلب،فاحتيج إلى الخوف و الصبر و الزهد لذلك.و من الأمور العظيمه النفع فيه ذكر الموت،فلذلك أوردناه،و لذلك عظّم الشرع ثواب ذكره،إذ به يتنغص حب الدنيا،و تنقطع علاقه القلب عنها؛قال اللّه تعالى: قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ (۱) [الجمعه:۸]و قال صلى اللّه عليه و سلم:

«أكثروا من ذكر هادم اللذات»،و قال عليه السلام:«من كره لقاء اللّه كره اللّه لقاءه»، و قالت عائشه-رضى اللّه عنها-:يا رسول اللّه هل يحشر مع الشهداء أحد؟قال:«نعم، من يذكر الموت فى اليوم و الليله عشرين مره».و مر رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بمجلس و قد استعلاه الضحك،فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:«شوبوا مجلسكم بذكر مكدّر اللّذات».قيل:و ما هو؟ قال عليه السلام:«الموت».و قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:«لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم،لما أكلتم منها لحما سمينا».و قال عليه السلام:«كفى بالموت واعظا».و قال عليه السلام:«تركت فيكم واعظين صامتا و ناطقا،فالصامت الموت،و الناطق القرآن».

و ذكر رجل عند النبى-عليه السلام-و أحسن الثناء عليه،فقال عليه السلام:

كيف كان ذكر صاحبكم للموت؟قالوا:ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت.قال:إن صاحبكم ليس هناك.و قال رجل من الأنصار:يا رسول اللّه من أكيس الناس و أكرم الناس؟فقال:أكثرهم للموت ذكرا،و أشدهم له استعدادا،أولئك هم الأكياس،ذهبوا براحه الدنيا و كرامه الآخره.

[فصل فى أن الموت عظيم هائل]

اعلم أن الموت عظيم هائل،و ما بعده أعظم منه،و فى ذكره منفعه عظيمه،فإنه

۱- سوره ۶۲ - آيه ۸

ينغّص الدنيا و يبغّضها إلى القلب،و بغضها رأس كلّ حسنه،كما أن حبها رأس كل خطيئه،و للعارف فى ذكره فائدتان:إحداهما:النفره من الدنيا،و الأخرى:الشوق إلى الآخره،فإن المحب لا- محاله مشتاق،و معنى الشوق فى المحسوسات استكمال الخيال بالترقى إلى المشاهده،فإن المشتاق إليه مدرك لا- محاله بالخيال،و غائب عن الأبصار، و أحوال الآخره و نعيمها،و جمال الحضره الربوبيه،مدرك كل ذلك للعارف يعرفه كأنه نظر من وراء ستر رقيق فى وقت الإسفار و ضعف النور،فهو مشتاق إلى استكمال ذلك بالتجلى و المشاهده،و يعلم أن ذلك لا يكون إلا بالموت؛فلذلك لا يكره الموت،لأنه لا يكره لقاء اللّه تعالى.و لا سبب لإقبال الخلق على الدنيا إلا قله التفكر فى الموت، و طريق الفكر فيه أن يفرّغ الإنسان قلبه عن كل فكر سواه؛و يجلس فى خلوه و يباشر ذكر الموت بصميم قلبه،و يتفكر أولا فى أخدانه و أشكاله الذين مضوا،فيتذكرهم واحدا واحدا،و يتذكر حرصهم و أملهم و ركونهم إلى الجاه و المال،ثم يتذكر مصارعهم عند الموت،و تحسرهم على فوات العمر و تضييعه،ثم يتفكر فى أجسادهم كيف تمزقت فى التراب و صارت جيفه يأكلها الديدان،ثم يرجع إلى نفسه و يعلم أنه كواحد منهم أمله كأملهم،و مصرعه كمصرعهم،ثم ينظر فى أعضائه و ينظر كيف تتفتت،و إلى حدقته كيف يأكلها الدود،و إلى لسانه كيف يتهرأ و يصير جيفه فى فيه.فإذا فعلت ذلك تتنغص عليك الدنيا و كنت سعيدا،إذ السعيد من وعظ بغيره،فلذلك قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:«أيها الناس، كأن الموت فيها على غيرنا كتب،و كأن الحق فيها على غيرنا وجب،و كأن الذين نشيّع من الأموات سفر عن قريب إلينا راجعون نبوؤهم أجداثهم و نأكل تراثهم،كأنا مخلدون بعدهم،قد نسينا كل واعظه و أمنّا كل جائحه».

[فصل أصل الغفله عن الموت طول الأمل]

أصل الغفله عن الموت طول الأمل،و ذلك عين الجهل؛و لذلك قال صلى اللّه عليه و سلم لعبد اللّه ابن عمر-رضى اللّه عنهما-:«إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء،و إذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح،و خذ من حياتك لموتك،و من صحتك لسقمك،فإنك يا عبد اللّه لا تدرى ما اسمك غدا»،و قال صلى اللّه عليه و سلم:«إن أخوف ما أخاف على أمتى خصلتان:

اتباع الهوى،و طول الأمل».و اشترى أسامه وليده إلى شهرين بمائه،فقال عليه السلام:«ألا- تعجبون من أسامه المشترى إلى شهرين؟إن أسامه لطويل الأمل،و الذى

نفسی بیده ما طرفت عیناى إلاّ ظننت أن شفریّ (۱)لا- یلتقیان حتی یقبض اللّه عز و جل روحی،و لا رفعت طرفی و ظننت أنی واضعها حتی أقبض،و لا- لقمت لقمه إلا- ظننت أنی لا- أسیغها حتی أغص بها من الموت».ثم قال«یا بنی آدم،إن کنتم تعقلون فعدّوا أنفسکم من الموتی،و الذی نفسی بیده إنما توعدون لآت،و ما أنتم بمعجزین».

و قال صلی اللّه علیه و سلم:«نجا أول هذه الأمه بالیقین و الزهد،و یهلک آخر هذه الأمه بالبخل و الأمل».

و قال علیه السلام:«أ کلّکم یحب أن یدخل الجنه؟»قالوا:نعم،قال علیه السلام:

«قصّروا آمالکم،و اجعلوا آجالکم بین أبصارکم،و استحیوا من اللّه حق الحیاء».

[فصل أن العارف الکامل المستهتر بذکر اللّه تعالی مستغن عن ذکر الموت]

اعلم أن العارف الکامل المستهتر بذکر اللّه تعالی مستغن عن ذکر الموت،بل حاله الفناء فی التوحید،لا التفات له إلی ماض و لا إلی مستقبل،و لا إلی حال من حیث أنه حال؛بل هو ابن وقته،یعنی أنه کالمتّحد بمذکوره؛لست أقول متحدا بالذات،فلا تعقل فتغلط،و تسیء الظن.و کذلک یفارقه الخوف و الرجاء،لأنهما سوطان یسوقان العبد إلی هذه الحاله التی هو ملابسها بالذوق؛و کیف یذکر الموت و إنما یراد ذکر الموت لینقطع علاقه قلبه عما یفارقه بالموت.و العارف قد مات مره فی حق الدنیا و فی حق کل ما یفارقه بالموت،فإنه ترفع و تنزه عن الالتفات إلی الآخره أیضا،فضلا عن الدنیا،و قد تنغص علیه ما سوی اللّه تعالی،و لم یبق له من الموت إلا- کشف الغطاء لیزداد به وضوحا،لا- لیزداد یقینا،و هو معنی قول علی-رضی اللّه عنه-«لو کشف الغطاء ما ازددت یقینا»،فإن الناظر إلی غیره من وراء ستر،لا- یزداد برفع الستر یقینا،بل وضوحا فقط؛فإذا ذکر الموت یحتاج إلیه من لقلبه التفات إلی الدنیا،لیعلم أنه سیفارقها،فلا یعتکف بهمته علیها،و لذلک قال علیه السلام:«إن روح القدس نفث فی روعی أحبب ما أحببت،فإنک مفارقه،و عش ما عشت،فإنک میت،و اعمل ما شئت،فإنک مجزیّ به».

[فصل حقیقه الموت و ماهیته]

لعلک تشتهی أن تعرف حقیقه الموت و ماهیته؛و لن تعرف ذلک ما لم تعرف حقیقه

۱- الشفر:أصل منبت شعر الجفن.

الحياه،و لن تعرف حقيقه الحياه،ما لم تعرف حقيقه الروح و هى نفسك،و حقيقتك و هى أخفى الأشياء عنك،و لا تطمع فى أن تعرف ربك قبل أن تعرف نفسك،و أعنى بنفسك روحك التى هى خاصيه الأمر المضافه إلى اللّه تعالى فى قوله: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی (۱) [الإسراء:۸۵]و فى قوله: وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِی (۲) [الحجر:۲۹، ص:۷۲]دون الروح الجسمانى اللطيف،الذى هو حامل قوه الحسّ و الحركه،التى تنبعث من القلب،و تنتشر فى جمله البدن،فى تجاويف العروق الضوارب،فيفيض منها نور حس البصر على العين،و نور السمع على الأذن،و كذا سائر القوى و الحواس، كما يفيض من السراج نور على حيطان البيت إذا أدير فى جوانبه؛فإن هذه الروح تشارك البهائم فيها و تنمحق بالموت،لأنه بخار اعتدل نضجه عند اعتدال مزاج الأخلاط.فإذا انحل المزاج بطل كما يبطل النور الفائض من السراج عند انطفاء السراج؛بانقطاع الدهن عنه،أو بالنفخ فيه.و بانقطاع الغذاء عن الحيوان تفسد هذه الروح؛لأن الغذاء له كالدهن للسراج،و القتل له كالنفخ فى السراج.و هذه هى الروح التى يتصرف فى تعديلها و تقويتها علم الطب،و لا تحمل هذه الروح المعرفه و الأمانه،بل الحمّال للأمانه الروح الخاصه للإنسان،و نعنى بالأمانه تقلد عهده التكليف،بأن يتعرض لخطر الثواب و العقاب بالطاعه و المعصيه.و هذه الروح لا تموت و لا تفنى،بل تبقى بعد الموت،إما فى نعيم و سعاده،أو جحيم و شقاوه،فإنه محلّ المعرفه.و التراب لا يأكل محل الإيمان و المعرفه أصلا كما نطقت به الأخبار،و شهدت له شواهد الاستبصار.و لم يأذن الشرع فى ذكر تحقيق صفته،إذ لا يحتمله إلا الراسخون فى العلم؛و كيف يذكر،و له من عجائب الأوصاف ما لم يحتمله أكثر عقول الخلق فى حق اللّه تعالى!فلا تطمع فى ذكر حقيقته،و انتظر تلويحا يسيرا فى ذكر صفته بعد الموت.

[فصل الروح لا تفنى البته]

هذه الروح لا تفنى البته،و لا تموت،بل تتبدل بالموت حالها فقط،و يتبدل منزلها،فتترقى من منزل إلى منزل.و القبر فى حقها إما روضه من رياض الجنه،أو حفره من حفر النيران،إذ لم يكن لها مع البدن علاقه سوى استعمالها البدن،و اقتناصها أوائل المعرفه به بواسطه شبكه الحواس.فالبدن آلتها و مركبها و شبكتها،و بطلان الآله و المركب و الشبكه لا توجب بطلان الصائد؛نعم،إن بطلت الشبكه بعد الفراغ من الصيد فبطلانه غنيمه،إذ يتخلص من ثقله و حمله،و لذلك قال عليه السلام:«الموت

۱- سوره ۱۷ - آیه ۸۵

۲- سوره ۱۵ - آیه ۲۹

تحفه المؤمن»؛و إن بطلت الشبکه قبل الصید عظمت فیه الحسره و الندامه و الألم، فلذلک یقول المقصّر: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّی أَعْمَلُ صالِحاً فِیما تَرَکْتُ (۱) [المؤمنون:۹۹، ۱۰۰].بل إن کان ألف الشبکه و أحبها و تعلق قلبه بها،و حسّن صورتها و صنعتها،و ما یتعلق بها،کان له من العذاب ضعفان:أحدهما:حسره فوات الصید الذی لا یقتنص إلا بشبکه البدن،و الثانی:زوال الشبکه مع تعلق القلب بها و إلفه لها.و هذا مبدأ من مبادی معرفه عذاب القبر،إن استقصیته تحققته قطعا.

[فصل فی أن معنی الموت زمانه البدن]

لعلک تشتهی الاستقصاء المفضی إلی التحقیق؛فاعلم أن هذا الکتاب لا یحتمله،فاقنع منه بأنموذج یسیر،و افهم أن معنی الموت زمانه (۲)البدن.و أنت تعرف أن زمانه الید خروجها عن طاعتک مع وجود شخصها ببطلان القوه التی بواسطتها تستعمل الید.فافهم أن الموت زمانه مطلقه فی جمیع الأعضاء ببطلان قواها،فیسلب الموت منک یدک و رجلک و عینک و سائر حواسک،و أنت باق،أعنی حقیقتک التی أنت بها أنت؛ فإنک الآن الإنسان الذی کنت فی الصّبا،و لعله لم یبق فیک من تلک الأجسام شیء،بل انحل کلّها و حصل بالغذاء بدلها،و أنت أنت،و جسدک غیر ذلک الجسد.فإن کان لک معشوق تفتقر فیه إلی حواسک،عظم عذابک بفراق معشوقک.و جمیع ملاذ الدنیا معشوق،و لا تنال إلا بالحواس،و لا فرق فی عذاب العاشق بین أن یحجب عنه معشوقه،و بین أن یفقأ عینه،أو یسلب هو عنه بأن یحمل إلی موضع حتی لا یراه،فإن ألمه من عدم الرؤیه.و من أحب أهله و ماله و عقاره و فرسه و جاریته و ثیابه یألم بفراقها، سواء سلبت هذه الأشیاء عنه،أو سلب هو عنها،بأن حمل إلی موضع آخر،و حیل بینه و بینها.فالموت یسلبک هذه الأشیاء.و یحول بینک و بینها،فیکون عذابک بقدر عشقک لها.و الموت یخلی بینک و بین اللّه تعالی،و یقطع عنک هذه الحواس الشاغله المشوّشه،فتکون لذّتک فی القدوم علی اللّه تعالی بقدر حبک له و أنسک بذکره؛و لأجل هذا نبّهک و قال اللّه تعالی:«أنا بدّک (۳)اللازم فالزم بدّک».و أجمع العبارات عن نعیم

۱- سوره ۲۳ - آیه ۹۹

۲- زمانه:عاهه.

۳- البدّ:النصیب،و من معانیها العوض،و البدّ بکسر الباء النظیر و المثیل.

الجنه:«إن لهم فيها ما يشتهون» (۱).و أجمع العبارات لعذاب الآخره قوله: وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ (۲) [سبأ:۵۴].و لا ملذ إلا الشهوه،و لكن عند مصادمه المشتهى،و لا مؤلم إلا الشهوه،و لكن عند مفارقه المشتهى.و لا ينبغى أن تغتر الآن و تقول:إن كان هذا سبب عذاب القبر فأنا فى أمان منه،إذ لا علاقه بين قلبى و بين متاع الدنيا؛فإن هذا لا تدركه بالحقيقه ما لم تطرح الدنيا و تخرج عنها بالكليه،فكم من رجل باع جاريه على ظن أنه لا علاقه بينه و بينها،فلما أخذها المشترى اشتعل فى قلبه من نيران الفراق،و احترق بها احتراقا،و ربما ألقى نفسه فى الماء و النار ليقتل نفسه و يتخلص منها.فكذلك يكون حالك فى القبر فى كل ما يتعلق به قلبك من الدنيا؛ و لذلك قال المصطفى عليه السلام:«أحبب ما أحببت فإنك مفارقه».و وراء هذا عذاب أعظم منه،و هو حسره الحرمان عن القرب من اللّه تعالى،و النظر إلى وجهه الكريم.

و ينكشف بالموت عظم قدر ما فات منه،و إن كان لا يعظم قدره عندك قبل الموت؛لأن الموت سبب الانكشاف،ما لم تكن المكاشفه قبله،كما أن النوم سبب انكشاف الغيب بمثال أو غير مثال.و النوم أخ الموت،و لكنه دونه يكبر.فهذان عذابان يتضاعفان على كل ميت كأن غير اللّه تعالى أحب إليه من اللّه تعالى؛و كأن أنسه بغير اللّه تعالى،أكثر من أنسه باللّه؛و هما ضروريان إن عرفت بالحقيقه الروح و بقاءه بعد الموت،و علائقه،و ما يضادّه بالطبع و ما يوافقه بالطبع.

[فصل أن الإنسان يعدم بالموت ثم يعاد]

لعلك تقول:المشهور عند أهل العلم،أن الإنسان يعدم بالموت ثم يعاد،و أن عذاب القبر يكون بنيران و عقارب و حيات،و ما ذكرته بخلاف ذلك.

فاعلم أن من قال إن الموت معناه العدم فهو محجوب عن حضيض التقليد و يفاع (۳)الاستبصار جميعا،أما حرمانه عن ذروه الاستبصار فلا تدركه ما لم تستبصر؛ و أما حرمانه عن التقليد فتعرفه بتلاوه الآيات و الأخبار،قال اللّه تعالى: وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ... (۴) [آل عمران:

۱- ليس هذا نص آيه كما قد يتوهم.

۲- سوره ۳۴ - آيه ۵۴

۳- يفاع:علو.

۴- سوره ۳ - آيه ۱۶۹

۱۶۹،۱۷۰]الآیه.هذا فی السعداء؛و أما فی الأشقیاء فقد ناداهم رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم یوم بدر لما قتلوا،فکان یقول:«یا فلان یا فلان-یذکر واحدا واحدا من صنادیدهم-فقد وجدت ما وعدنی ربّی حقّا،فهل وجدتم ما وعد ربکم حقّا»؟فقیل یا رسول اللّه أ تنادیهم و هم أموات؟فقال علیه السلام:«و الذی نفسی بیده ما أنتم بأسمع لکلامی منهم،لکنهم لا یقدرون علی الجواب».و قال علیه السلام:«الموت هو القیامه،و من مات فقد قامت قیامته»و أراد بهذه القیامه الصغری،و القیامه الکبری تکون بعده.و شرح قیامه الصغری إن أردته فاطلبه من کتاب الصبر من کتب الإحیاء.و الأخبار فی الدلاله علی بقاء أرواح الموتی و شعورهم مما یجری فی هذا العالم أیضا کثیره.

[فصل فی إن المشهور من عذاب القبر التألم بالنیران و العقارب و الحیات،صحیح]

أما قولک:إن المشهور من عذاب القبر التألم بالنیران و العقارب و الحیات،فهذا صحیح،و هو کذلک؛و لکنی أراک عاجزا عن فهمه و درک سره و حقیقته،إلا أنی أنبهک علی أنموذج منه تشویقا لک إلی معرفه الحقائق،و التشمر للاستعداد لأمر الآخره،فإنه نبأ عظیم أنتم عنه معرضون؛فقد قال علیه السلام:«المؤمن فی قبره فی روضه خضراء قد فرّج له قبره سبعین ذراعا،و یضیء وجهه حتی یکون کالقمر لیله البدر،هل تدرون فی ما ذا أنزلت فَإِنَّ لَهُ مَعِیشَهً ضَنْکاً؟ (۱) قالوا:اللّه و رسوله أعلم:قال:عذاب الکافر فی قبره،یسلّط علیه تسعه و تسعون تنّینا،هل تدرون ما التّنین؟تسع و تسعون حیه،لکل حیه تسعه رءوس ینهشونه و یلحسونه و ینفخون فی جسمه إلی یوم یبعثون».فانظر إلی هذا الحدیث،و اعلم أن هذا حق علی الوجه الذی شاهده أرباب البصائر ببصیره أوضح من البصر الظاهر.

و الجاهل ینکره إذ یقول:إنی أنظر فی قبره فلا أری ذلک أصلا.فلیعلم الجاهل أن هذا التنین لیس خارجا عن ذات المیت،أعنی ذات روحه لا ذات جسده،فإن الروح هی التی تتألم و تتنعم،بل کان معه قبل موته متمکنا من باطنه،لکنه لم یکن یحس بلدغه لخدر کان فیه لغلبه الشهوات فأحس بلدغه بعد الموت.و لیتحقق أن هذا التنین مرکب من صفاته و عدد رءوسه بقدر عدد أخلاقه الذمیمه،و شهواته لمتاع الدنیا.و أصل هذا التنین حبّ الدنیا،و تتشعب عنه رءوس بعدد ما یتشعب عن حب الدنیا من الحسد و الحقد و الریاء و الکبر و الثروه و المکر و الخداع و حب الجاه و المال و العداوه

۱- سوره ۲۰ - آیه ۱۲۴

و البغضاء.و أصل ذلک معلوم بالبصیره،و کذلک کثره رءوسه اللداغه؛أما انحصار عددها فی تسعه و تسعین،إنما یوقف علیه بنور النبوه فقط.فهذا التنین متمکن فی صمیم فؤاد الکافر،لا بمجرّد جهله بالکفر،بل لما یدعو إلیه الکفر،کما قال اللّه تعالی:

ذلِکَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَیاهَ الدُّنْیا عَلَی الْآخِرَهِ (۱) [النحل:۱۰۷].و قال اللّه تعالی:

أَذْهَبْتُمْ طَیِّباتِکُمْ فِی حَیاتِکُمُ الدُّنْیا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِها... (۲) [الأحقاف:۲۰]الآیه.و هذا التنین لو کان کما تظنه خارجا من ذات المیت،لکان أهون،إذ ربما یتصور أن ینحرف عنه التنین أو ینحرف هو عنه،لا بل هو متمکن من صمیم فؤاده،تلدغه التنین لدغا أعظم مما تفهمه من لدغ التنین،و هو بعینه صفاته التی کانت معه فی حیاته کما أن التنین التی تلدغ قلب العاشق إذا باع جاریته،هو بعینه الذی کان مستکنّا فی قلبه استکنان النار فی الحجر و هو غافل عنه.فقد انقلب ما کان سبب لذّته سبب ألمه،و هذا سرّ قوله علیه السلام:

«إنما هی أعمالکم ترد علیکم»،و قوله تعالی: یَوْمَ تَجِدُ کُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَیْرٍ مُحْضَراً،وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَیْنَها وَ بَیْنَهُ أَمَداً بَعِیداً،وَ یُحَذِّرُکُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَ اللّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (۳) [آل عمران:۳۰]،بل سر قوله تعالی: کَلّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْیَقِینِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِیمَ (۴) [التکاثر:۶،۵]،أی أن الجحیم فی باطنکم فاطلبوها بعلم الیقین، لترونّها قبل أن تدرکوها بعین الیقین؛بل هو سر قوله تعالی: یَسْتَعْجِلُونَکَ بِالْعَذابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَهٌ بِالْکافِرِینَ (۵) [العنکبوت:۵۴]؛و لم یقل إنها ستحیط؛بل قال:هی محیطه؛و قوله تعالی: إِنّا أَعْتَدْنا لِلظّالِمِینَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها (۶) [الکهف:۲۹]، و لم یقل یحیط بهم،و هو معنی قول من قال:إن الجنه و النار مخلوقتان.و قد أنطق اللّه لسانه بالحق،و لعله لا یطلع علی سر ما یقوله،فإن لم تفهم بعض معانی القرآن کذلک، فلیس لک نصیب من القرآن إلا فی قشوره،کما لیس للبهیمه نصیب من البر (۷)إلا فی قشوره الذی هو التّبن.و القرآن غذاء الخلق کلهم علی اختلاف أصنافهم،و لکن اغتذاؤهم به علی قدر درجاتهم؛و فی کل غذاء مخّ و نخاله و تبن؛و حرص الحمار علی التبن أشد منه من الخبز المتخذ من اللّب.و أنت شدید الحرص علی أن لا تفارق درجه البهیمه،و لا ترتقی إلی رتبه الإنسانیه،بل إلی الملکیه،فدونک و الانسراح فی ریاض القرآن،ففیه متاع لکم و لأنعامکم.ه.

۱- سوره ۱۶ - آیه ۱۰۷

۲- سوره ۴۶ - آیه ۲۰

۳- سوره ۳ - آیه ۳۰

۴- سوره ۱۰۲ - آیه ۵

۵- سوره ۲۹ - آیه ۵۴

۶- سوره ۱۸ - آیه ۲۹

۷- البر:القمح و الحنطه.

[فصل فهل يتمثل التنين تمثلا يشاهده مشاهده تضاهى إدراک البصر]

فإن قلت:فهل يتمثل هذا التنين تمثلا تشاهده مشاهده تضاهى إدراک البصر،أم هو تألم محض فى ذاته کتألم العاشق إذا حيل بينه و بين معشوقه؟

فأقول:لا بل يتمثل لک حتى تشاهده،و لکن تمثلا روحانيا لا على وجه يدرکه من هو بعد فى عالم الشهاده إذا نظر فى قبره،فإن ذلک من عالم الملکوت.نعم،العاشق أيضا قد ينام فيتمثل له حاله فى المنام،فربما يرى حيه تلدغ صميم فؤاده.لأنه بعد بالنوم من عالم الشهاده قليلا،فيتمثل له حقائق الأشياء تمثلا محاکيا للحقيقه،منکمشا له من عالم الملکوت،و الموت أبلغ فى الکشف من النوم،لأنه أقمع لنوازع الحس و الخيال،و أبلغ فى تجريد الروح عن غشاوه هذا العالم.فلذلک يکون ذلک التمثل تامّا متحققا دائما لا يزول،فإنه نوم لا ينتبه منه إلا يوم القيامه: لَقَدْ کُنْتَ فِی غَفْلَهٍ مِنْ هذا فَکَشَفْنا عَنْکَ غِطاءَکَ فَبَصَرُکَ الْیَوْمَ حَدِیدٌ (۱) [ق:۲۲].و اعلم أن المتيقظ بجنب النائم إن کان لا يشاهد الحيه التى تلدغ النائم،فذلک غير مانع من وجود الحيه فى حقه،و حصول الألم به؛فکذلک حال الميت فى القبر.

[فصل أنواع عذاب الآخره يدرک بنور البصيره و المشاهده]

لعلک تقول:قد أبدعت قولا مخالفا للمشهور،منکرا عند الجمهور،إذ زعمت أن أنواع عذاب الآخره يدرک بنور البصيره و المشاهده إدراکا مجاوزا حدّ تقليد الشّرائع، فهل يمکنک-إن کان کذلک-حصر أصناف العذاب و تفاصيله؟

فاعلم أن مخالفتى للجمهور لا أنکره،و کيف تنکر مخالفه المسافر للجمهور!فإن الجمهور يستقرون فى البلد الذى هو مسقط رءوسهم و محل ولادتهم،و هو المنزل الأول من منازل وجودهم،و إنما يسافر منهم الآحاد.و اعلم أن البلد منزل البدن و القال؛و إنما منزل الروح الإنسانى عوالم الإدراکات،و المحسوسات منزله الأول، و المتخيّلات منزله الثانى،و الموهومات منزله الثالث.و ما دام الإنسان فى المنزل الأول فهو دود و فراش؛فإن فراش النار ليس له إلا الإحساس،و لو کان له تخيل و حفظ للمتخيّل بعد الإحساس لما تهافت على النار مره بعد أخرى،و قد تأذى بها أولا،فإن الطير و سائر الحيوان إذا تأذى فى موضع بالضرب يفرّ منه و لم يعاوده لأنه بلغ المنزل الثانى،و هو حفظ المتخيّلات بعد غيبوبتها عن الحس.و ما دام الإنسان فى المنزل الثانى بعد فهو بهيمه

۱- سوره ۵۰ - آيه ۲۲

ناقصه،إنما حدّه أن يحذر عن شيء تأذّى به مره و ما لم يتأذّ بشيء فلا يدرى أنه يحذر منه.و ما دام فى المنزل الثالث-و هو الموهومات-فهو بهيمه كامله كالفرس مثلا؛فإنه قد يحذر من الأسد إذا رآه أولا،و إن لم يتأذّ به قط،فلا يكون حذره موقوفا على أن يتأذى به مره؛بل الشاه ترى الذئب أولا-فتحذره،و ترى الجمل و البقر و هما أعظم منه شكلا و أهول منه صوره و لا تحذرهما،إذ ليس من طبعهما إيذاء.و هؤلاء إلى الآن تشاركهم البهائم،فبعد هذا يترقى الإنسان إلى عالم الإنسانيه فيدرك أشياء لا تدخل فى حس و لا تخيل و لا و هم،و يحذر به الأمور المستقبله،و لا يقتصر حذره على العاجله اقتصار حذر الشاه على ما يشاهده فى الحال من الذئب؛و من هاهنا يصير إلى حقيقه الإنسانيه، الحقيقه هى الروح المنسوبه إلى اللّه تعالى فى قوله: وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي (۱) [الحجر:۲۹،ص:۷۲].و فى هذا العالم يفتح له باب الملكوت فيشاهد الأرواح المجرده عن كسوه التلبيس،و غشاوه الأشكال.و هذا العالم لا نهايه له.

أما عوالم المحسوسات و المتخيلات و الموهومات فمتناهيه،لأنها مجاوره للأجسام و ملتصقه بها؛و الأجسام لا يتصور أن تكون غير متناهيه.و السير فى هذا العالم مثاله المشى إلى الخيال على الماء،ثم يترقى منه إلى المشى فى الهواء؛و لذلك لما قيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:إن عيسى-صلوات اللّه عليه و سلامه-مشى على الماء،فقال-عليه السلام:«نعم و لو ازداد يقينا لمشى فى الهواء».و أما التردد على المحسوسات،فهو كالمشى على الأرض،و بينها و بين الماء عالم يجرى مجرى السفينه،و فيها يتولد درجات الشياطين،حتى يجاوز الإنسان عوالم البهائم،فينتهى إلى عالم الشياطين؛و منه يسافر إلى عالم الملائكه،و قد ينزل فيه و يستقر،و شرح ذلك يطول.و هذه العوالم كلها منازل الهدى،و لكن الهدى المنسوب إلى اللّه تعالى يوجد فى هذا العوالم الرابع،و هو عالم الأرواح،و هو قوله تعالى: قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللّهِ (۲) [آل عمران:۷۳].و مقام كلّ إنسان و محله و منزله فى العلوّ و السّفل بقدر إدراكه،و هو معنى قول على-رضى اللّه عنه-:«الناس أبناء ما يحسنون».فالإنسان بين أن يكون دودا أو حمارا أو فرسا أو شيطانا،ثم يجاوز ذلك فيصير ملكا.

و للملائكه درجات،فمنهم الأرضيه،و منهم السماويه،و منهم المقرّبون المترفعون عن الالتفات إلى السماء و الأرض،القاصرون على جمال الحضره الربوبيه،

۱- سوره ۱۵ - آيه ۲۹

۲- سوره ۳ - آيه ۷۳

و ملاحظه الوجه خاصه.و هم أبدا فی دار البقاء،إذ ملحوظهم علی الوجه الباقی،و ما عدا ذلک فإلی الفناء مصیره؛أعنی السماء و الأرض،و ما یتعلق بهما من المحسوسات و المتخیلات و الموهومات؛و هو معنی قوله تعالی: كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ (۱) [الرحمن:۲۶،۲۷].و هذه العوالم منازل سفر الإنسانیه،یترقی من حضیض درجه البهائم إلی یفاع رتبه الملائکه؛ثم یترقّی من رتبتهم إلی رتبه العشّاق منهم،و هم العاکفون علی ملاحظه جمال الوجه،یسبحون للوجه و یقدسونه باللیل و النهار لا یفترون.

فانظر الآن إلی خسّه الإنسان و شرفه،و إلی بعد مراقیه فی معارجه،و إلی انحطاط درجاته فی تسفّله.و کلّ الآدمیین مردودون إلی أسفل السّافلین،ثم الذین آمنوا و عملوا الصالحات یترقون منها فلهم أجر غیر ممنون،و هو جمال الوجه،و بهذا یفهم معنی قوله تعالی: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَهَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ... (۲) [الأحزاب:۷۲]الآیه.لأن معنی الأمانه التعرض للعهده و الخطره،و لا خطر علی سکان الأرض،و هم البهائم،إذ لیس لهم إمکان الترقّی من المنزل الثالث؛و لا خطر علی الملائکه،إذ لیس لهم خوف الانحطاط إلی حضیض عالم البهائم.

و انظر إلی الإنسان و عجائب عوالمه کیف یعرج إلی السماء العلوی رقیّا،و یهوی إلی أرض الحقاره هویّا،متقلدا هذا الخطر العظیم الذی لم یتقلده فی الوجود غیره.فیا مسکین!کیف تهدّدنی بالعاقبه،و تخوّفنی مجاوزه الجمهور و مخالفه المشهور،و بذلک فرحی و سروری!إن الذین یکرهون منی ذلک الذی یشتهیه قلبی.فاطو طومار (۳)الهذیان و لا تقعقعنی بعد هذا بالشّنان (۴).م.

۱- سوره ۵۵ - آیه ۲۶

۲- سوره ۳۳ - آیه ۷۲

۳- طومار:صحیفه.

۴- فی القاموس و ما یقعقع له بالشنان بفتح القافین یضرب لمن لا یتضع لحوادث الدهر و لا یروعه ما لا حقیقه له.و القعاقع تتابع أصوات الرعد.و الشنان کسحاب لغه فی الشنآن و کغراب الماء البارد و ککتاب واد بالشام.

[فصل فی العذاب الآخره]

و أما مطالبتک إیای بتفصیل عذاب الآخره،و ذکر أصنافه،فلا تطمع بالتفصیل، فذلک داعیه إلی الملال و التطویل،و اقنع بذکر الأصناف؛فقد ظهر لی بالمشاهده ظهورا أوضح من العیان،أن أصناف عذاب الآخره ثلاثه:أعنی الروحانی منها حرمه المشتهیات،و خزی خجله المفضحات،و حسره فوات المحبوبات.فهذه ثلاثه أنواع من النیران الروحانیه یتعاقب علی روح من آثر الحیاه الدنیا إلی أن ینتهی إلی مقامات النار الجسمانیه،فإن ذلک یکون فی آخر الأمر،فخذ الآن شرح هذه الأوصاف.

الصنف الأول:حرقه فرقه المشتهیات،فصورته المستعاره من عالم الحس و التخیل،التنین الذی وصفه الشرع،و عدد رءوسه و هی بعدد الشهوات،و رذائل الصفات تلدغ صمیم الفؤاد لدغا مؤلما،و إن کان البدن بمعزل عنه.فقدّر فی عالمک هذا ملکا مستولیا علی جمیع الأرض،متمکنا من جمیع الملاذّ،متمتعا بها،مستهترا بالوجوه الحسان،متهالکا علیها،مشعوفا بالإماره و استعباد الخلق بالطاعه،مطاعا فیهم، غافصه (۱)عدوه و استرقه و استعمله علی ملأ من رعیته فی تعهد الکلاب،و صار یتمتع بنعمه و یتمتع بأهله و جواریه بین یدیه،و یتصرف فی خزائنه و ذخائر أمواله،فیفرقها علی أعدائه و معانیده.و انظر الآن هل تری علی قلبه تنّینا ذا رءوس کثیره،تلدغ صمیم فؤاده و بدنه بمعزل عنه،و هو یرید أن یبتلی بدنه بأمراض و آلام لیتخلص منه!فتوهم هذا،فربما تشتم به قلیلا من رائحه الحطمه (۲)التی فیها نار اللّه الموقده التی لا تطلع إلا علی الأفئده،أعدت لمن جمع مالا و عدده یحسب أن ماله أخلده.

و اعلم أن عذاب کل میت بقدر رءوس هذا التنین،و عدد الرءوس بقدر المشتهیات،فلهذا من کان أفقر و تمتعه فی الدنیا أقل،کان العذاب علیه أخف،و من لا علاقه له مع الدنیا أصلا فلا عقاب علیه أصلا.

الصنف الثانی:خزی خجله المفضحات؛فقدّر رجلا خسیسا رذیلا فقیرا عاجزا،قرّبه ملک من الملوک و رفعه و قوّاه و خلع علیه،و سلم إلیه نیابه ملکه،و مکنه من

۱- قوله غافصه أی فاجأه و أخذه علی غرّه.

۲- الحطمه:النار الشدیده لأنها تحطم ما یلقی فیها.

دخول حريمه و جمله خزائنه اعتمادا على أمانته.فلما عظمت عليه النعمه،طغى و بغى، و صار يخون فى خزانته،و يفجر بأهل الملك و بناته و سريّاته،و هو فى جميع ذلك يظهر الأمانه للملك،و يعتقد أنه غير مطلع على خيانته.فبينما هو فى غمره فجوره و خيانته،إذ لاحظ روزنه (۱)فرأى فيها الملك مطّلعا عليه منها،و علم أن الملك كان يطلع عليه كل يوم و ليله،و لكنه كان يغض عنه و يمهله حتى يزداد خبثا و فجورا،و يزداد استحقاقا للنكال ليصب عليه فى الآخره أنواع العذاب صبّا.فانظر الآن إلى قلبه كيف يحترق بنار الخزى و الخجله،و بدنه بمعزل منه،و كيف يود أن يعذب بدنه بكل عذاب و ينكتم خزيه.فكذلك أنت تتعاطى فى الدنيا أعمالا- هى مشتهياتك،و لتلك الأعمال أرواح و حقائق خبيثه قبيحه،و أنت جاهل بها معتقد حسنها؛فينكشف لك فى الآخره حقائقها فى صورها القبيحه،فتختزى و تخجل خجله تؤثر عليها آلاما بدنيه.

فإن قلت كيف ينكشف إلىّ أرواحها و حقائقها؟ فاعلم أن ذلك لا- تفهمه إلا- بمثال؛فمن جملته مثلا- أن يؤذّن المؤذّن فى رمضان قبل الصبح،فيرى فى المنام أن بيده خاتما يختم به أفواه الرجال و فروج النساء،فيقول له ابن سيرين:هذا رأيته لأذانك قبل الصبح.فتأمل الآن أنه لما بعد بالنوم قليلا عن عالم الحس الجسمانى،انكشف له روح عمله.لكن لما بعد فى عالم التخيل-لأن النائم لا يزول تخيله-غشاه الخيال بمثال متخيل،و هو الخاتم و الختم،و لكنه مثال أدل على روح العمل من نفس الأذان،لأن عالم المنام أقرب إلى عالم الآخره،فالتلبيس فيه أضعف قليلا و ليس يخلو عن تلبيس،و لأجله يحتاج إلى التعبير.

و لو قال قائل لهذا المؤذن:أ ما تستحى أن تختم أفواه الرجال و فروج النساء؟ لقال:معاذ اللّه أن أفعل هذا،فلأن أقدّم و يضرب عنقى أحب إلىّ من أن أفعل ذلك.فهو ينكره،لأنه يجهله،مع أنه فعله،لأن روحه قاصره عن إدراك أرواح الأشياء.و كذلك لو أكلت لحما طيبا على اعتقاد أنه لحم طير،فقال قائل:أ ما تستحى أن تأكل لحم أخيك الميت فلان؟لقلت:معاذ اللّه أن أفعل ذلك،و لأن أموت جوعا أهون علىّ من ذلك، فنظرت فإذا هو لحم أخيك الميت قد طبخ و قدّم إليك و لبّس عليك.فانظر كيف تختزيه.

۱- روزنه:الكوه،الطاقه،و الكلمه من الفارسيه.

و تفتضح به،و بدنک فی معزل من ألمه.فکذلک یری المغتاب نفسه فی الآخره،و لأنّ روح الغیبه تمزیق أعراض الإخوان و التفکه بها.

و فی عالم الآخره ینکشف أرواح الأشیاء و حقائقها.و کذلک لو کنت ترمی حجاره إلی حائط،فقال لک قائل:أ ما تستحی أن تفعل ذلک،و الحجاره ترتد من الحائط و تقع فی دارک،و تصیب حدقه أولادک،فقد غیبت أحداقهم کلهم!قلت:معاذ اللّه أن أفعل ذلک.فقال:ادخل دارک.فدخلت فإذا هو کذلک.فانظر کیف تفتضح و یحترق قلبک تحسّرا علی عملک الذی ظننته هیّنا و هو عند اللّه عظیم.و هذا روح حسدک لأخیک، فإنک تحسده و لا تضره و ینعکس علیک و یهلک دینک،و ینقل حسناتک إلی دیوانه-و هی قرّه عینک-لأنها سبب سعاده الأبد،فهی أعز من حدقه الولد.فإذا انکشف لک هذه الروح،فانظر کیف تحترق بنیران الفضیحه و بدنک بمعزل عنه.

فالقرآن کثیرا ما یعبّر عن الأرواح،و لذلک قال تعالی فی الغیبه: أَ یُحِبُّ أَحَدُکُمْ أَنْ یَأْکُلَ لَحْمَ أَخِیهِ مَیْتاً فَکَرِهْتُمُوهُ (۱) [الحجرات:۱۲].و قال اللّه تعالی فی الحسد: یا أَیُّهَا النّاسُ إِنَّما بَغْیُکُمْ عَلی أَنْفُسِکُمْ (۲) [یونس:۲۳].فیکفیک من الأمثله مثال الأذان و الغیبه و الحسد.فقس علیه کل فعل نهاک الشرع عنه،فذلک لقبح روح الفعل و حقیقته،و حسن ظاهره،أی ظاهره حسن للبصر الظاهر،و باطنه قبیح للبصیره الناظره فی مشکاه نور اللّه تعالی.

و عن هذا عبر الشرع حیث قال:تعرض الدنیا یوم القیامه فی صوره عجوز شوهاء زرقاء،صفتها کیت و کیت،لا یراها أحد إلا و یقول أعوذ باللّه منها،فیقال هذه دنیاکم التی کنتم تتهالکون علیها،فیصادفون فی نفوسهم من الخزی و الفضیحه ما یؤثرون النار علیه.و إن أردت أن تفهم کیفیه هذه الخجله،فاسمع حکایه رجل من أبناء الملوک، زوج بأجمل امرأه من بنات الملوک،فشرب تلک اللیله فسکر،و أخطأ باب الحجره فخرج من الدار و ضلّ فرأی ضوء سراج فقصده علی ظنّ أنها حجرته،فدخل الموضع فرأی جماعه نیاما،فصاح بهم فلم یجیبوه،فظنّ أنهم نیام،فطلب العروس فرأی واحدا نائما فی ثیاب جدیده فظن أنها العروس،فضاجعها و أخذ یقبلها و یغشاها،و یجعل لسانه فی فیها و یمتص ریقها متلذذا بذلک فی سکره غایه التلذذ،و یتمسح بالرطوبات التی تصیبه من جمیع بدنها،علی ظن أن ذلک عطر ادّخرته له.فلما أصبح أفاق فإذا هو

۱- سوره ۴۹ - آیه ۱۲

۲- سوره ۱۰ - آیه ۲۳

فی ناووس المجوس،و إذا النیام موتی.و هذه عجوز شوهاء قریبه العهد بالموت،علیها الحنوط،و کفنها الجدید،فصادف فی فمه و أنفه من رطوبات ریقها و مخاطها،و علی بدنه من قاذورات أسافلها،فإذا هو من قرنه إلی قدمه ممتلئ فی قاذوراتها،ثم تفکر فی غشیانه إیاها و ابتلاعه ریقها،فهجم علی قلبه من الخزی ما تمنّی أن یخسف اللّه به الأرض،حتی ینسی ما جری علیه.و لا یزال یعاود ذکره و لا ینساه أصلا،بل تجد نفسه ما عمله من سوء محضرا یود لو أن بینها و بینه أمدا بعیدا،و بدنه بمعزل من هذه المخازی و الآلام،و هو فی عذاب دائم فی الغثیان و القیء،و تذکر تلک المخازی،و یحذر أن یطلع علیه أحد فیتضاعف حزنه،فإذا هو بأبیه و جمیع حشمه قد جاءوا فی طلبه،و اطلعوا علی جمیع مخازیه.فهذه حال من تمتع بالدنیا،ینکشف له کذلک فی الآخره روحه و حقیقته،و هی معنی قوله تعالی: وَ حُصِّلَ ما فِی الصُّدُورِ (۱) [العادیات:۱۰]أی یعرض علیها حاصلها أی روحها و حقیقتها،و هی معنی قوله تعالی: یَوْمَ تُبْلَی السَّرائِرُ (۲) [الطارق:۹].أی یکشف عن أسرار الأعمال و أرواحها القبیحه أو الحسنه.و کما أن ألذ الأطعمه رجیعه (۳)أقذر و أنتن،فألذ تنعمات الدنیا و حاصلها و سرها فی الآخره أقبح و أفضح؛و لذلک شبه رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم الدنیا بالطعام،و عاقبته بالرجیع.

الصنف الثالث:حسره فوات المحبوبات؛فقدّر نفسک مع جماعه من أقرانک دخلتم فی ظلمه،فکان فیها حجاره لا یری ألوانها،فقال أقرانک:احمل من هذا ما تطیق،فلعله یکون فیها ما ینتفع بها إذا خرجنا من الظلمه،فقلت فما ذا أصنع بها؟ أتحمل فی الحال ثقلها،و أکدّ بنفسی فیها و أنا لا أدری عاقبتها!ما هذا إلا جهل عظیم.

فإن العاقل لا یترک الراحه نقدا بما یتوقعه نسیئه،و لا یستیقنه.فأخذ کل واحد من أقرانک ما أطاق أخذه،و أعرضت عن ذلک تستحمقهم و تسخر بهم،لأنهم ینوءون تحت أعبائه و ثقله،و أنت مرفّه فی الطریق تعدو و تضحک منهم.فلما جاوزوا الظلمه نظروا،فإذا هی جواهر و یواقیت یساوی کل واحد ألف دینار،فأقبلوا علی بیعها و توصلوا بها إلی الجاه و النعمه و أصبحوا ملوک الأرض.فأخذوک فاستسخروک لتعهد دوابّهم لینفقوا علیک فی کل یوم قدرا یسیرا من فضلات الطعام.م.

۱- سوره ۱۰۰ - آیه ۱۰

۲- سوره ۸۶ - آیه ۹

۳- رجیعه:ما یقذف من الجوف عبر الفم.

فکیف تری اشتعال نیران الحسره فی قلبک،و بدنک بمعزل منه؟و کم تقول: یا حَسْرَتی عَلی ما فَرَّطْتُ فِی جَنْبِ اللّهِ (۱) [الزمر:۵۶]و یا لیتنا نردّ و نعمل غیر الذی کنا نعمل؟،فتقول لهم:أفیضوا علینا من الماء ممّا أفیض علیکم،فیقولون لک:هذا حرام علیک،أ لم تکن تسخر منّا و تضحک علینا،فلا بد و أن نسخر الیوم منک کما سخرت منّا.

فلا یزال ینقطع نیاط (۲)قلبک من التحسر و لا ینفعک التحسر،و لکن تتسلی و تقول:

الموت یخلصنی من هذا.

فاعلم أن حال تارک الطاعات فی الآخره کذلک ینکشف له،و لکن لا مطمع فی الموت المخلّص،بل هی حسره أبدیه دائمه،و الألم یتضاعف کل یوم،و إن کان البدن بمعزل عنه،و عنه العباره بقوله تعالی: أَفِیضُوا عَلَیْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمّا رَزَقَکُمُ اللّهُ،قالُوا: (۳)

إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُما عَلَی الْکافِرِینَ (۴) [الأعراف:۵۰].

و کذلک یفیض علی أهل المعرفه و الطاعه من أنوار جمال الوجه ما تحصل به من اللّذّه مبلغ لا یوازیه نعیم الدنیا،بل یعطی آخر من یخرج من النار مثل الدنیا عشر مرات کما ورد به الخبر،لا بمعنی تضاعف المقدار بالمساحه،بل بتضاعف الأرواح،کما أن الجوهر یکون عشره أمثال الفرس لا بالوزن و المقدار،بل بروح المالیه،إذ قیمته عشره أمثاله.

و اعلم أن تحریم تلک اللذات و إفاضتها علیهم لیس من جنس تحریم الرجل نعمه علی عبده بغضب أو باختیار،حتی یتصور تغییره،بل هو کتحریم اللّه تعالی علی الأبیض أن یکون أسود فی حاله البیاض،و علی الحار أن یکون باردا فی حاله الحراره؛و ذلک لا یتصور فیه التبدیل،بل مثال ذلک أن یقول للعالم الکامل رجل شیخ هرم من الجهال الذی کان بلیدا فی أصل الفطره و لم یمارس قطّ علما و لم یتعلم لغه:أفض علی قلبی من دقائق علومک،فیقول:إن اللّه حرّمه علی الجاهلین:معناه أن الاستعداد لقبوله إنما یکتسب بذکاء فطریّ،و ممارسه طویله للعلم،بعد تعلم اللغه العربیه و أمور أخر کثیره.

و إذا بطل الاستعداد و فات استحاله الإفاضه،کما یستحیل إفاضه الحراره علی البروده مع بقاء البروده،فلا تظنن أن اللّه تعالی یغضب علیک فیعاقبک انتقاما،ثم تخدع نفسکه.

۱- سوره ۳۹ - آیه ۵۶

۲- نیاط:شریان أو هو العرق الغلیظ المتصل بالقلب فإذا انقطع مات صاحبه من فوره.

۳- سوره ۷ - آیه ۵۰

۴- سوره ۷ - آیه ۵۰

برجاء العفو فتقول:لم يعذبنى و لم يضره معصيتى بل يلزم العذاب من المعصيه كما يلزم الموت من السمّ.

و اعلم أن هذه الحسره دائمه لأن منشأها تضاد صفتين لا يزول تضادهما أبدا؛ مثاله أن الذى يعلّق بحبل فى عنقه أو رجله إنما يتألم لتضاد الصفتين،لا لصوره الحبل و التعلق؛لكن صفته الطبعيه تطلب الهوىّ إلى أسفل،و المنع القهرى بالحبل يمانع الطبعيه فيتولد الألم فيه من تمانعهما،فكذلك الروح الإنسانى من الروح الروحانى الإلهى بأصل فطرته،فله بحكم الطبع حنين و شوق إلى عالم العلوّ،عالم الأرواح، و إلى مرافقه الملأ الأعلى؛و لكن أغلال الشهوات و سلاسلها يجذبها إلى أسفل السافلين،و هى شهوات الدنيا،و هى صفه عارضه قهرت الصفه الطبعيه،و منعتها عن نيل مقتضاها،و الألم يتولد من بينهما؛و النار أيضا إنما تؤلم للمضاده،فإن الملائم للتركيب بقاء الاتصال.و النار تضاد الاتصال بالتفريق بين الأجزاء.و لو لم يكن قد رأيت النار، و سمعت بأن شيئا لطيفا ليّنا يماسّ بدنك فيؤلمك،لاستنكرته و قلت:شىء لا صلابه فيه كيف يؤلم باللمس؟

و اعلم أن التضاد مؤلم،سواء كان بسبب خارج أو داخل؛فإن سمّ العقرب فى العضو يؤلم لفرط برودته المضاده لحراره البدن.فلا تظنن أن الآلام كلّها تدخل من خارج.فإن قلت:إن العقرب إنما لدغت من خارج فاعلم أن ألم السّن و ألم العين لا يقصر عنه،و إنما سببه انصباب خلط داخل مضادّ لمزاج العين و السن.و ليس ذلك بأهون من لدغ العقرب و الحيه.

و اعلم أن تضادّ الصفات فى القلب،يؤلم القلب إيلاما لا ينقص عما يؤلم السن و العين،و مثاله فى أضعف الصفات،أن البخيل المرائى إذا طلب منه عطيه على ملأ من الناس عند من يريد أن يعرفوه بالسخاء؛يتألم قلبه لتضادّ صفتين،إذ البخل يتقاضاه أن لا يعطى،و حب الجاه يتقاضاه أن يعطى،و قلبه بين هاتين الصفتين كشخص ينشر بمنشار بنصفين.فهذا مثال حسره الفوت و عظمها بقدر ما ينكشف من جلاله قدر الفائت،و لا تعلمه بالحقيقه فى هذا العالم بل فى عالم الكشف،و هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون.

و اعلم أن هذه الأصناف الثلاثه،لها ترتيب:

فالصنف الأول الذى يلقاه الميت المعذب،هو حرقه فرقه المشتهيات،و ذلك

تنین حب الدنیا و لذلک أضیف ذلک إلی القبر؛و إنما سبق هذا لأن أغلب الأشیاء علی قلب المیت فی الحال فراق ما یفوته فی الدنیا من جاه و مال و منصب و نعمه،ثم بعد ذلک ینکشف له أرواح الأعمال و حقائقها القبیحه.و ذلک عند الانغمار التام فی الموت،و بعد العهد بغشاوه صفات الدنیا.و کل ما کان أعقابه بعد الموت أشد،فهو للکشف أقبل، فیفیض عنه ذلک علیه الخزی و الفضیحه،و لذلک أضیف هذا إلی القیامه،لأنه وسط بین منزل القبر و بین دار القرار؛و لذلک قال اللّه تعالی: یَوْمَ لا یُخْزِی اللّهُ النَّبِیَّ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ (۱) [التحریم:۸]،أی یوم القیامه.

و أما حسره فوت المحبوبات،فیستولی علیه آخرا عند القرار فی النار،ففیها یقول: أَفِیضُوا عَلَیْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمّا رَزَقَکُمُ اللّهُ (۲) [الأعراف:۵۰].و ذلک أن بعد العهد عن الدنیا ربما یخفف عنه عذاب النزوع إلیها.

و طول العهد بالکشف یوجب خروجه عن خزی الافتضاح،فإن سوره عذاب الخزی تکون عند هجوم الافتضاح،ثم یألف الفضیحه و الخزی إلفا ما،ثم عند فتورهما قلیلا،تنبعث حسره الفوت،إذ یظهر جلاله الفوائت،ثم تبقی حسره الفوت آخرا، و یشبه أن یکون ذلک لا- آخر له.و هذا کله تعرفه قطعا،إذا عرفت نفسک،و عرفت أنک لا تموت،لکن تعمی عینک،و تصم أذنک،و تفلج أعضاؤک.

فأما الحقیقه التی أنت بها أنت،فلا تفنی بالموت أصلا،بل یتغیر حالک فقط، فیبقی معک جمیع معارفک،و إدراکاتک الباطنه،و شهواتک،و إنما تعذبک بفراق ما أحببت،و افتضاحک بظهور ما ینکشف فی تلک الحال،و تحسرک علی فوات ما تعرف عظم قدره بعد الموت لا- قبله،و هذا کله مقدّمات العذاب الحسی البدنی،و ذلک أیضا حق و له میعاد معلوم،کما ورد به الآی و الأخبار.

فاقنع الآن بهذا القدر،فإن هذا الکلام یکاد یجاوز حد مثل هذا الکتاب،و لا بد و أن یحرک سلسله الحمقی الجاهلین؛و لکنهم أخس من أن یلتفت إلیهم؛قال اللّه تعالی: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّی عَنْ ذِکْرِنا وَ لَمْ یُرِدْ إِلاَّ الْحَیاهَ الدُّنْیا، ذلِکَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (۳) [النجم:۲۹،۳۰].

فلنقتصر علی هذا و لنختم به أصول الأربعین لنختم به کتاب جواهر القرآن.و من

۱- سوره ۶۶ - آیه ۸

۲- سوره ۷ - آیه ۵۰

۳- سوره ۵۳ - آیه ۲۹

طلب مزيـدا على هذا فليطلبه من كتاب ذكر الموت من كتب الإحياء.فالغرض الأظهر من هذا الكتاب،التلويحات مع التشويق إلى الاستقصاء المذكور فى ذلك الكتاب، ففيه تنكشف أسرار علوم الدين،و لا يفتر عن طلبه إلا مشغوف بالدنيا لا يطلب من العلوم إلا ما يتخذه شبكه للحطام،و آله لكسب الحرام،فلا يناسبه علوم ذلك الكتاب أصلا البتّه.

ص: ١٨١

خاتمه فی مناظره النفس

اعلم أنا قد نبهناک و شوقناک،فإن أعرضت عن الإصغاء أو أصغیت بظاهر قلبک، کما تصغی إلی الکلام الرسمی،فقد خبت و خسرت،و ما ظلمت إلا نفسک: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُکِّرَ بِآیاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَ نَسِیَ ما قَدَّمَتْ یَداهُ،إِنّا جَعَلْنا عَلی قُلُوبِهِمْ أَکِنَّهً أَنْ یَفْقَهُوهُ وَ فِی آذانِهِمْ وَقْراً،وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَی الْهُدی فَلَنْ یَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً (۱) [الکهف:

۵۷]،و إن أصغیت إصغاء ذی فطنه و بصر حدید،و تفکرت تفکر من له قلب عتید،و قد ألقی السمع و هو شهید،فاخرج عن جمیع ما یصدّک عن سلوک الصراط المستقیم،و ما یصدّ عنها إلا حب الدنیا و الغفله عن اللّه تعالی و الیوم الآخر.و اجتهد أن تفرغ قلبک کلّ یوم ساعه عقیب صلاه الصبح،و ذلک عند صفاء الذهن؛فتتفکر فی شأنک و تنظر فی مبدئک و معادک،و تحاسب نفسک،و تقول لها:إنی مسافر و تاجر،و ربحی سعاده الأبد و لقاء اللّه تعالی،و خسرانی شقاوه الأبد و الحجاب عن اللّه تعالی،و رأس مالی عمری.

و کل نفس من الأنفاس کنز من الکنوز،و جوهره من الجواهر،إذ تجارته به سعاده الأبد، و أی کنز أعظم من هذا!و إذا فنی العمر انقطعت التجاره و حصل الیأس.و هذا الیوم یوم جدید قد أمهلنی اللّه تعالی فیه،و لو توفانی لکنت اشتهی أن یرجعنی إلی الدنیا لأعمل صالحا،فاحسبی یا نفسی أنک توفیت و رجعت إلی الدنیا یوما واحدا،و اجتهدی فی هذا الیوم الواحد،و انظری لنفسک،فإن لم تمهلی للغد فقد استوفیت ربح هذا الیوم و لم تتحسّری،و إن أمهلت فاستأنفی للغد مثل ذلک و لا تخدعی نفسک بتمنی العفو،فإن ذلک ظن قد یکذب و لا ینفع التحسّر.

ثم هب أنه قد عفی عنک،أ لیس قد فاتک ثواب المحسنین؟و ناهیک به حسره

۱- سوره ۱۸ - آیه ۵۷

و نـدامه!فإذا قالت نفسك ما ذا أعمل و كيف أجتهد؟فتقول:اتركى ما يفارقك بالموت، و الزمى بدّك اللّازم و هو اللّه تعالى،و اطلبى الأنس بذكره.

فإذا قالت:فكيف أترك الدنيا؟فقد استحكمت علائقها فى قلبى فتقول:أقبلى على قطع علائقها من باطن القلب،كما أعلمناك فى الأصول العشره من المهلكات.

ففتشـى عـن أغلـب علاـقه مـن علائقهـا مـن حـب مـال أو جـاه أو حسـب أو عـداوه أو شـهوه بطـن أو فرج أو غير ذلـك من المهلكـات.فليس إلاـ أن يتفكر فى عظم آفاتهـا و إهلاكهـا إيـاك، فتنبعث لمجاهـدتها و مخـالفه مقتضاهـا،فقـد تخلصت منها و أيدك اللّه بتوفيقه و معونته.

فقـدّرى أنك مريضه العمر مـده الحياه،و قد أنبأك طبيب تظنين صدقه أن ملاذّ الأطعمه تضـرك،و أن الأدويه البشـعه تنفعك،أ لست تتصبّرين بقوله على مراره الدواء طمعا فى الشفاء؟أ لست تتصبّرين على الكدّ و التّعب فى السفر الطويل طمعا فى الاستراحه فى المنزل و أنت مسافره و منزلك الآخره؟و المسافر لا يستريح و يتحمل التعب و الكدّ،فإن استراح انقطع فى الطريق و هلك.

و يقول يا نفس:ما الـذى تطلبين من الـدنيا إن طلبت المال و وجـدته،و هيهات، فتكون فى اليهود جماعه أغنى منك.و إن طلبت الجـاه و نلت،و هيهـات،فيكون فى أجلاـف الأـتراك و حمقى الأـكراد من يسـتولى عليك،و يكون جاهه أعظم من جاهك.فإن كنت لا تدركين آفه الدنيا و شده عذابها فى الآخره و بلائها،أ فلا تترفعين عنها لخسه شركائها؟أ ما تعلمين أنك لو أعرضت عن الـدنيا،و أقبلت على الآـخره،كنت وحيـد الـدهر فريـد العصـر لاـ يوجـد فى الأقـاليم نظيرك؟و إن طلبت الـدنيا كان فى اليهود و الحمقى من سبقك بها؛فأفّ لدنيا سبقك بها حمير!فتفكرى يا نفس،و انظرى لنفسك،فلا ينظر لك أحد غيرك.

و كذلك لا تزال تناظر نفسك حتى تطاوعك على سـلوك الصـراط المسـتقيم إلى اللّه تعالى.فهذه المناظره أهم لك-إن كنت عاقلاـ-من مناظره الحنفيه و الشـفعويه و المعتزله و غيرهم.فلم تعاديهم و تجادلهم و لا يضـرّك خطؤهم و لا خطأ غيرهم،و لا هم يقبلون منـك و لاـ أنت تقبـل منهم الصواب،و إن صـار أظهر من الشـمس،و تترك أعـدى عـدوّك بين جنبيـك لاـ تنازعه و لا تناظره،بل تساعـده على ما يطالبك به من شـهواته الباطله الباطنه، فتسـتنبط بالفكر الـدقيق الحيل لقضاء الشـهوه!هل هـذا إلّا عين الانعكاس و الانتكاس

على قمه الرأس؟فهل رأيت قط رجلا يشاهد تحت ثوبه حيات و عقارب أقبلت عليه لتهلكه،فأخذ المروحه ليدفع الذباب عن وجه غيره؛فهل يستحق من يفعل ذلك إلا الخزى؟

فاعلم أن هذا حالك فى اشتغالك بمناظره غيرك،و إعراضك عن مناظره نفسك.

و فى هذا المعرض ينكشف لك روح عملك،يوم تبلى السرائر،كما نبهتك على كيفيه مكاشفات الآخره بأسرار الأعمال و أرواحها.و ما لم تناظر نفسك مده طويله،لا تخليك لمناجاه ربك و ذكره و الإقبال عليه.ثم طريقك مع النفس-إذا خالفتك-أن تعاقبها بما يزجرها،و تعلم أنها كالكلب،لا يتأدب إلا بالضرب.و إن أردت أن تتعلم طريق مناظرتها و مراقبتها و محاسبتها و معاقبتها،فاطلبه من كتاب المحاسبه و المراقبه،فإن هذا الكتاب لا يحتمله؛و اللّه تعالى يوفقنا و إياك بفضله و جوده و كرمه.

[انتهى]

ص: ۱۸۵

الفهرس

الموضوع الصفحه

المقدمه ۳

القسم الأول:فی جمل العلوم و أصولها و هی عشره ۵

الأصل الأول:فی الذات ۵

الأصل الثانی:فی التقدیس ۵

الأصل الثالث:فی القدره ۶

الأصل الرابع:فی العلم ۶

الأصل الخامس:فی الإراده ۶

الکلام فی المعتقدات القدریه و الجبریه و المعتزله..الخ ۸

الأصل السادس:فی السمع و البصر ۱۲

الأصل السابع:فی الکلام ۱۳

الأصل الثامن:فی الأفعال ۱۳

الأصل التاسع:فی الیوم الآخر ۱۴

الأصل العاشر:فی النبوه ۱۵

خاتمه فی التنبیه علی الکتب التی تطلب فیها حقیقه هذه العقیده ۱۶

القسم الثانی:فی الأعمال الظاهره و هی أیضا عشره أصول ۱۸

الأصل الأول:فی الصلاه ۱۸

الأصل الثانی:فی الزکاه و الصدقه ۲۲

المحافظه فی الزکاه و الصدقه علی خمسه أمور ۲۳

الموضوع الصفحه الأول:الإسرار ۲۳

الثانی:أن تحذر من المن ۲۳

الثالث:أن تخرجه من أطيب أموالک ۲۴

الرابع:أن تعطی بوجه طلق ۲۴

الخامس:أن تتخير لصدقتک محلا تزکو به الصدقه ۲۴

الأصل الثالث:فی الصيام ۲۴

الکلام فی أن طب القلوب قريب من طب الأبدان ۲۵

الکلام فی درجات أسرار الصوم ۲۵

الأصل الرابع:فی الحج ۲۶

آداب الحج سبعه ۲۶

الأول:أن ترتاد للطريق رفيقا صالحا و نفقه طيبه حلالا ۲۶

الثانی:أن يخلی يده عن مال التجاره کيلا يتشعب فکره ۲۶

الثالث:أن يوسع فی الطريق بالطعام و يطيب الکلام مع الرفقاء و المکاری ۲۶

الرابع:أن يترک الرفث و الجدال ۲۶

الخامس:أن يرکب راحله دون المحمل ۲۷

السادس:أن ينزل عن الدابه أحيانا ترفيها للدابه ۲۷

السابع:أن يکون طيب النفس بما أنفق من نفقه ۲۷

الأصل الخامس:فی قراءه القرآن ۲۸

آداب قراءه القرآن الظاهره ۲۸

أسراره الباطنه ۲۹

الأصل السادس:ذكر اللّه عز و جل فى كل حال ۳۳

الأصل السابع:فى طلب الحلال ۳۹

فصل فى أن طيب المطعم له خاصيه عظيمه فى تصفيه القلب ۴۰

فصل إياك أن تشدد على نفسك فتقول أموال الدنيا كلها حرام ۴۳

الأصل الثامن:فى القيام بحقوق المسلمين و حسن الصحبه معهم ۴۵

فصل من أصل الدين فى أمر الصحبه اتخاذ الاخوان فى اللّه ۵۱

الموضوع الصفحه الأصل التاسع:فی الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر ۵۳

فصل کل من شاهد منکرا و لم ینکره و سکت عنه فهو شریک فیه ۵۳

فصل عمده الحسبه شیئان ۵۴

أحدهما:الرفق و اللطف و البدایه بالوعظ ۵۴

العمده الثانیه:أن یکون المحتسب قد بدأ بنفسه فهذبها ۵۵

الأصل العاشر:فی اتباع السنه ۵۵

فصل السبب المرغب فی الاتباع فی هذه الأفعال ۵۶

فصل التحریض الذی ذکر إنما هو فی العادات ۵۹

خاتمه فی ترتیب الأوراد و تنعطف علی الأمور العشره ۶۱

القسم الثالث:فی تزکیه القلب عن الأخلاق المذمومه و هی أیضا عشره أصول ۶۳

الأصل الأول:شره الطعام ۶۳

فصل السر فی تعظیم الجوع و مناسبته لطریق الآخره ۶۴

فصل کیفیه ترک عاده الشبع و الإکثار ۶۵

الأصل الثانی:شره الکلام ۶۷

فصل أن للسان عشرین آفه ۶۷

فصل تفصیل بعض الآفات ۶۸

الآفه الأولی:الکذب ۶۸

فصل الکذب حرام فی کل شیء إلا لضروره ۶۸

الآفه الثانیه:الغیبه ۶۹

فصل یرخص فی الغیبه فی سته مواضع ۷۱

فصل علاج النفس فی کفها عن الغیبه ۷۱

الآفه الثالثه:المراء و المجادله ۷۲

الآفه الرابعه:المزاح ۷۲

الآفه الخامسه:المدح ۷۳

فصل حق علی الممدوح أن یتأمل فی خطر الخاتمه ۷۴

الأصل الثالث:فی الغضب ۷۴

الموضوع الصفحه فصل علیک فی صفه الغضب وظیفتان ۷۴

الأصل الرابع:فی الحسد ۷۶

فصل الحسد من الأمراض العظیمه للقلب ۷۶

فصل لعل نفسک لا تطاوعک علی التسویه بین عدوک و صدیقک الخ ۷۷

الأصل الخامس:فی البخل و حب المال ۷۸

فصل فی أن أصل البخل حب المال ۷۸

فصل فی أن المال لیس مذموما من کل وجه ۷۹

فصل فی معرفه مقدار الکفایه ۸۰

فصل فی أن الذی ذکر تقریب یمکن الزیاده علیه و النقصان منه ۸۱

فصل فی معرفه حد البخل ۸۲

فصل فی معرفه علاج البخل ۸۲

الأصل السادس:الرعونه و حب الجاه ۸۳

فصل حقیقه الجاه هی ملک القلوب لتتسخر لذی الجاه علی حسب مراده ۸۴

فصل لم کان طلب الرفعه مذموما الخ ۸۵

فصل فی أن طریق علاج حب الجاه هو قمع هذا الحب ۸۶

فصل من البواعث علی طلب الجاه حب المدح ۸۷

الأصل السابع:حب الدنیا ۸۷

فصل فی أن هذه الدنیا المذمومه هی بعینها مزرعه الآخره ۸۸

فصل فی أن من عرف نفسه و عرف ربه عرف وجه عداوه الدنیا للآخره ۸۹

فصل فی أن من ظن أنه یلابس الدنیا ببدنه و یخلو عنها بقلبه فهو مغرور ۹۱

الأصل الثامن:فی الکبر ۹۲

فصل حقیقه الکبر أن یری نفسه فوق غیره فی صفات الکمال ۹۲

فصل فی أن العلاج الجملی لقمع رذیله الکبر أن یعرف الانسان نفسه ۹۳

فصل فی علاج الکبر علی التفصیل ۹۴

الأصل التاسع:العجب ۹۷

فصل فی أن حقیقه العجب استعظام النفس و خصالها الخ ۹۸

الموضوع الصفحه فصل العجب جهل محض فعلاجه العلم المحض ۹۸

فصل من العجائب أن يعجب بعلمه و عقله ۹۸

الأصل العاشر:فى الرياء ۹۹

خاتمه فى مجامع الأخلاق و مواقع الغرور فيها ۱۰۸

القسم الرابع:فى الأخلاق المحموده و هى أيضا عشره أصول ۱۱۵

الأصل الأول:التوبه ۱۱۵

فصل فى حقيقه التوبه ۱۱۵

فصل فى وجوب التوبه على كل أحد ۱۱۶

فصل فى أن علاج التوبه حل عقده الإصرار ۱۱۷

الأصل الثانى:فى الخوف ۱۲۰

فصل فى حقيقه الخوف ۱۲۰

فصل فى علاج الخوف و تحصيله ۱۲۱

الأصل الثالث:فى الزهد ۱۲۳

فصل فى أن للزهد فى الدنيا حقيقه و أصل و ثمره ۱۲۳

فصل فى أن الزهد على درجات ۱۲۶

الأصل الرابع:فى الصبر ۱۲۸

فصل فى حقيقه الصبر ۱۲۸

فصل فى درجات الصبر ۱۲۹

الأصل الخامس:الشكر ۱۳۲

فصل فى مقام الشكر ۱۳۲

الأصل السادس:الاخلاص و الصدق ۱۳۶

أركان الاخلاص ۱۳۶

الركن الأول:النيه ۱۳۶

الركن الثانى:فى إخلاص النيه ۱۴۰

الركن الثالث:الصدق ۱۴۱

الأصل السابع:التوكل ۱۴۳

ص: ۱۹۱

الموضوع الصفحه فصل فی حقیقه التوکل و هی ثلاثه أرکان ۱۴۴

الرکن الأول:المعرفه ۱۴۴

الرکن الثانی:حال التوکل ۱۴۷

الرکن الثالث:فی الأعمال ۱۴۸

الأصل الثامن:فی المحبه ۱۵۰

الأصل التاسع:الرخاء بالقضاء ۱۵۹

الأصل العاشر:ذکر الموت و حقیقته و أصناف العقوبات الروحانیه ۱۶۳

فصل فی أن أصل الغفله عن الموت طول الأمل ۱۶۴

فصل فی معرفه حقیقه الموت و ماهیته ۱۶۵

فصل فی عذاب الآخره و ذکر أصنافه ۱۷۴

خاتمه فی مناظره النفس ۱۸۳

الفهرس ۱۸۷

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

عنوان المكتب المركزی

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم ۱۲۹، الطبقة الأولی.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونی : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزی ۰۳۱۳۴۴۹۰۱۲۵

هاتف المكتب فی طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ ـ ۰۲۱

قسم البيع ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹شؤون المستخدمين ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹.

مركز
القائمية
اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹